الإصدار: 70



الكِتَاب وصنعة التأليف عند الجاحظ

د. عباس أرحيلة





الكِتَاب
وصنعة التأليفِ عند الجاحظ

د. عباس أرحيلة

الإصدار: 70 (أكتوبر 2013م / ذو القعدة 1434هـ)

الإخراج الفني : محمود محمد أبو الفضل

د. عباس أرحيلة

من مواليد المغرب، حاصل على دكتوراه الدولة في النقد والبلاغة من جامعة محمد الخامس بالرباط، عمل أستاذًا للأدب والنقد بالجامعات المغربية، وكلية اللغة العربية بجامعة أم القرى بمكة المكرمة. وهو عضو برابطة الأدب الإسلامي العالمية.

له مؤلفات عديدة، منها: «البحوث الإعجازية والنقد الأدبي»، و«الأثر الأرسطي في البلاغة والنقد»، وله تحقيق علمي لرسالة «التفضيل بين بلاغتي العرب والعجم» لأبي أحمد العسكري، وغيرها...



نهر متعدد... متجدد

مشروع فكري وثقافي وأدبي يهدف إلى الإسهام النوعي في إثراء المحيط الفكري والأدبي والثقافي بإصدارات دورية وبرامج تدريبية وفق رؤية وسطية تدرك الواقع وتستشرف المستقبل.



وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية

قطاع الشؤون الثقافية

إدارة الثقافة الإسلامية

ص.ب: 13 الصفاة – رمز بريدي: 13001 دولة الكويت

الهاتف: 22487310 (965+) – فاكس: 22445465 (965+)

نقال: 99255322 (965+)

البريد الإلكتروني: rawafed@islam.gov.kw

موقع «روافد»: www.islam.gov.kw/rawafed

الطبعة الأولى – دولة الكويت

أكتوبر 2013 م / ذو القعدة 1434هـ

وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية

الموقع الإلكتروني: www.islam.gov.kw

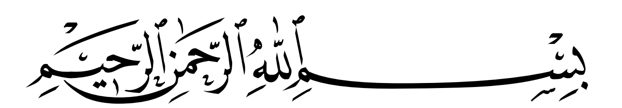
رقم الإيداع بمركز المعلومات: 2012 / 132

تم الحفظ والتسجيل بمكتبة الكويت الوطنية

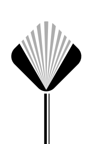
رقم الإيداع: 2012 / 536

ردمك: 978-99966-50-65-9

فهرس المحتويات



بسم الله الرحمن الرحيم



تصدير

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيد المرسلين وعلى آله وصحبه أجميعين.

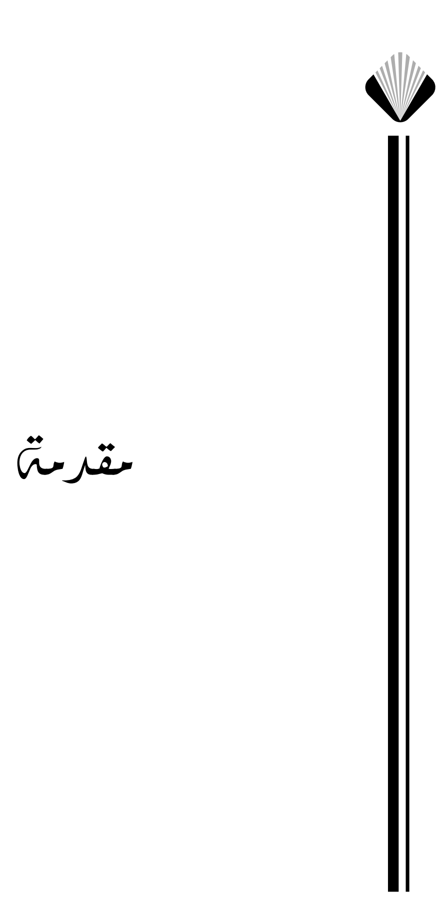
تشتهر الحضارة الإسلامية بأنها «حضارةُ النَّصِّ» وهو ما يعكس مدى الاهتمام البالغ بالكلمة مبنى ومعنى، وقيمتها في حياة المسلمين على امتداد عصورهم... وهو الأمر الذي وَفّر مزيدًا من سوانح الكتابة والتأليف ابتداءً من كتابة الوحي وما ارتبط بها من دقةٍ وعناية وأمانة... انسحبت بعد ذلك على منهجية العمل العلمي في مختلف مجالات النشاط الحضاري الإسلامي.

وتشُكِّلُ مادةُ «الكِتَاب وصنعة التأليف عند الجاحظ» للدكتور عباس ارحيلة إحدى المرايا العاكسة لمنهجيات الكتابة والتأليف في العصور الإسلامية الأولى، والذي يمثل أبوعمرو الجاحظ أحد روّادها الأوائل الذين وضعوا القواعد وأسسوا لفن الكتابة في مجالات متعددة.

ويسر إدارة الثقافة الإسلامية بوزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بدولة الكويت أن تقدم هذا الكتاب إلى جمهور القراء والمهتمين والدارسين، إسهاما منها في إلقاء المزيد من الأضواء على جوانب مهمة من الإبداع المنهجي والعلمي في التأليف والتصنيف في الحضارة العربية والإسلامية.

والله نسأل أن ينفع به، ويجزي كاتبه خير الجزاء.

إنه سميع مجيب...



مقدمة

الحمد لله الذي أنزل الكتاب، وأنار به سبُل الحق والهداية والرشاد، ويسره لمن أراد أن يعتَبِر ويتدبّر، سبحانه علَّمَ بالقلم وألهم العقول تأليف المعاني والأفكار، لتأتلِف بها القلوب والأنظار، والصلاة والسلام على النبي المختار؛ مَن جاء بالكتاب هاديا إلى سواء السبيل، وعلى آله وصحبه الأخيار الطاهرين.

أما بعد؛

فموضوع هذا البحث هو ما أثاره الجاحظ حول الكتاب وصناعة تأليفه من آراء وملاحظات تَكشف عمّا استوعبه من مرحلته وتجربته، وما قدَّمه من أفكار أسهمت في التأريخ للكتاب العربي، وفي تأسيس منهجية تأليفه. وقد استوقفتني آراء الجاحظ هذه حول الكتاب ومنهجية تأليفه، حين كنتُ بصدد تَتَبُّعِ مُكَوِّنات خطاب المقدمات في كتابي المقدمة في التراث الإسلامي وهاجس الإبداع [1]، فقرَّرتُ أن أتناول هذه الجوانب في آثار الجاحظ ببحث خاص.

وزمن الجاحظ صادف، ما أُطلق عليه، حركة التدوين (١٥٠ – ٢٥٠هـ)، إذ انتقلت فيها الثقافة الإسلامية العربية من عنفوانها الشفهي، على ألسنة البلغاء وأهل العلم في المحافل والمنتديات والمساجد، إلى تسجيلها في الأوراق. وانطلقت فيها صناعة التأليف، فكان أبو عثمان الجاحظ أحد أعلام التأليف الذين واجهوا تجربة تصنيف الكتب أثناء انطلاقة حضارة الإسلام، ومِمن وطَّدوا هذه التجربة ورسَّخوها في حقل الأدب بشكل خاص.

وهي مرحلة تاريخية دخلت فيها اللغة العربية في بلورة هوية إسلامية، وبناء ثقافة إنسانية، فوقعت في لحظَتَيْ اختبار وتحَدٍّ بدأت خلالَهما تستجمع تاريخها الثقافي، وتتطور لتُعبِّر عن معترك العصر وما يحفل به من تحولات حضارية ضخمة في جوانبها المادية والفكرية.

١- طُبع بالوراقة الوطنية، مراكش ٢٠٠٣ .

وخلال لحظتَيِ الاختبار والتحدِّي، بدأتْ عملياتُ تطويع علومِ العربية وأساليبها لتُؤدِّيَ ما جدَّ في عالم الإسلام من حقائقَ ومعانٍ، وما نُقِل إليها من آثار أفكار السابقين، وما كانت تختزنه العقول والقلوب في تلك الفترة. فأخذت المعاني تتنوَّعُ وتتعَدَّد، وصارتْ صِياغتُها وأساليبُها تَتَشَكَّل وتتَحدَّدُ، فتنثال على أقلام أهل العلم، كما أخذت العربية تنقاد طواعيةً لمجالات التدوين التي كانت تختزنُها ذاكرة العصر.

وتلك مرحلة شهدت تأسيس الهوية الإسلامية العربية في وجه المدِّ الشعوبي بملَلِه ونِحَلِه وأحقاده، وفيها انفتحت سُبُلُ الاتصال بالثقافات الأجنبيةعن طريق حركة الترجمة وانصهار الأجناس، وخلالها برز الحِقد الشعوبي، وتنوَّعت محاولات تشويه الذاكرة الثقافية للأمة عامة وللسنة النبوية بشكل خاص.

ففي زمن الجاحظ بدأت المعارف العربية تخرج من المجالس والمنتديات وتتشكَّل في مدونات وتآليف ومصنفات. ومع الجاحظ، وبمعية كوكبة من كُتّاب المرحلة، بدأت الكتابة النثرية الفنية تسمو إلى مدارج الشعر، وتسعى إلى زحزحته عن مكانته. فقد أجاد الجاحظ صياغة العبارة العربية، وأضفى عليها جمالية خاصة، وحمَّلها ما كانت تحفل به معاني الشعر، إلى درجة سحرت أهل زمانه ومَن أتى بعدهم.

ومع الجاحظ وغيره من مؤلفي المرحلة، أخذت صناعة التأليف تتضِحُ قسماتُها، وتبرز معالمها، وتتوطَّد دعائمُها، وتتشكل مناهجُها. وبذلك أخذت صناعة الكتاب العربي تأخذ طريقها وضْعاً ونَسْخا وتصنيفا وتوزيعاً ومنهاجاً. يقول د. طه الحاجري: «لعل الجاحظ كان أول من اتخذ التأليف صناعةً ، يُبرز بها نفسَه، ويُظهر فيها مواهبه، ويستجيب بها لنزوعه الفني»[1].

١- الجاحظ حياته وآثاره: د. طه الحاجري- ط٢ (القاهرة ، دار المعارف، ١٩٦٩) ، ص١٨.

وقد عاش الرجل عمراً مديداً قارب القرن من الزمان (١٥٩ – ٢٥٥هـ)، قضاه بعيداً عن قيود الوظائف؛ فملأه بحثاً وقراءةً وكتابةً. ولم يجِد لذةً في غير التحديق في مجتمعه والتأمُّل فيه: يَقرأه ويكتبه.

وتمرَّس بالتصنيف فكان مِمَّن عانَوْا صناعة وضْع الكتاب فكرةً وبناءً وصياغةً، وتناثرت أصداء تلك المعاناة في آثاره ملاحظاتٍ ونظراتٍ تُقدِّم في مجملها آراء جاحظية تتعلق بصناعة تأليف الكتاب في حضارة الإسلام؛ ومن المعلوم أنه كان أكبر من ارتاد بالفكر الأدبي عند العرب آفاقا جديدة.

ولما كان الجاحظ مُلتقى ثقافات عدّة، ومِمَّن أغنوْا المكتبة العربية بآثارهم؛ فإنَّ في كتبه تُلتمس كثير من الظواهر التي يُستدل بها على ما شهدته الثقافة العربية، إلى عهده، من تحولات وقضايا فكرية ومنهجية.

ومن رسائل الجاحظ التي لها علاقة بالكتابة والتأليف: رسالة في القلم، رسالة في فضل اتخاذ الكُتُب، رسالة في مدح الكتاب، رسالة في مدح الوُرَّاق، رسالة في ذم الوُراق [1]. ولم يَصل إلينا من رسائله في الموضوع إلا رسالته في ذم الكُتَّاب. وذكر د. محمود محمد الطنَاحي من نوادر المخطوطات في تركيا : رسالة مدح الكتب والحث على جمعها للجاحظ، بخط علي بن البواب الخطاط الشهير، المتوفى سنة ٤٢٣هـ، يرجع تاريخها إلى سنة ٤١٣هـ، متحف الأوقاف باستانبول، وقد نشرها إبراهيم السامرائي في مجلة المجمع العلمي العراقي، المجلد الثاني، ١٩٦١، ص٣٣١ – ٣٤٢ [2].

وقد كان للباحثين عناية خاصة بالجاحظ في العصور الحديثة، فبعد تحقيق آثاره والتعرف على عصره وبيئته البصرية؛ تمَّ إبراز جوانب متعددة من جهود أبي عثمان؛ سواء تعلق الأمر بالجانبين النقدي والبلاغي،

١- معجم الأدباء: ياقوت الحموي (٦٢٦هـ)، تحقيق : د. إحسان عباس – ط١ (بيروت ، دار الغرب الإسلامي، ١٩٩٣) : ٥/٢١٢٠ .

٢- مقالات العلامة د. محمود محمد الطنَاحي صفحات في التراث والتراجم واللغة والأدب:١/٣٢٩، وينظر: ذخائر التراث العربي الإسلامي: عبد الجبار عبد الرحمن: ٤٣٧/١

أو الجانب اللغوي، أو ما تعلق باتجاهه الفكري الاعتزالي أواتجاهِه الفني في الكتابة بأشكالها.

ووجدتُ أن حديث الجاحظ عن أهمية الكتابة في حضارة الإنسان، ودور الكِتاب في رقيٍّ تلك الحضارة، وما ورد له من آراء حول منهجية التأليف؛ باعتبارها صناعة لها رسومها وقواعدها؛ من الأمور التي لم تنل ما تستحقه من عناية.

فتتبعتُ في هذا البحث ما قاله الجاحظ عن الكتاب، وما أضفاه عليه من نعوت وأوصاف رفيعة؛ جَلَّتْ قيمتَه وأهميتَه في حياة الإنسان. ووقفتُ عند ما قدَّمه أبو عثمان من إفادات وتوجيهات تتعلق بكيفية تأليف الكتاب العربي، وما كشف عنه من معاناة أثناء تجربته في التأليف، وما رسمه من منهجية أثناء ذلك.

وأملي أن يقدم هذا البحث صورة عن صناعة التأليف في الثقافة الإسلامية العربية، في مراحل تأسيسها، وهي صورة، لم تتضح قسماتها بالدقة اللازمة، في الدراسات التي اطلعْتُ عليها. وقد عمدت إلى ما استطعت الوقوف عليه من كتب الجاحظ ورسائله، فاستخلصت منها تجربتَه في التأليف وما بثه فيها من آراء، ونَثَرَهُ من نظرات وأفكار حول تأليف الكتُب، وسُقتُ ذلك في المباحث الآتية:

فبعد الإشارة إلى مكانة الجاحظ وقيمة آثاره الأدبية والفكرية، تناولتُ بالحديث أهمية الكتابة وضرورتها في الاجتماع البشري، وكيف نظَر َالجاحظ إلى العلم والمعرفة، وجعل الكتاب وسيلة لإخراجهما من طور المرحلة الشفهية إلى طور الكتابة، فأضحى صدىً لحركة الوجود الإنساني على الأرض. واتخذ الجاحظ الكتاب قرَّةَ عينيه، وإلْفَ نفسه في الحياة؛ يجِدُ فيه ما تحفِل به دنيا الناس من ملذات وسعادة، ودعا غيرَه إلى الارتباط الروحي بالكتاب.ثم أتيْتُ بما يتعلق بقضايا تأليف الكتاب، من خلال ما

سطَّره من آراء منهجية، وما عاناه في تجربته وهو يكتب ويؤِّلف، ووقفتُ عند اتهام الجاحظ بالفوضى في كل ما ألّفَه؛ نتيجة شيوع الاستطراد في آثاره. وأنهيت هذا البحث بذكر بعض المصطلحات التي تتعلَّق بموضوع الكتاب وتأليفه، كما وردت في بعض آثار الجاحظ.

ومصدري في كل ما ذهبت إليه؛ هو ما وقفتُ عليه من آراء وردت في آثار الجاحظ. وقد وجدتُ كثيرا من هذه الأفكار في كتابه الحيوان لأنه كان خلاصةً لتجربته في البحث والتأليف، ولأنه انشغل فيه بقضايا فكرية تشمل منهجه في التفكير وأسلوبه في الحياة؛ مِمَّا جعلَ من هذا الكتاب «معلمة واسعة وصورة ظاهرة لثقافة العصر العباسي المتشعبة الأطراف» [1]، على حد تعبير عبد السلام هارون.

والجاحظ أشهر من أحب الكُتُب، وأشهر مَن شغلته الكتب عن سواها؛ فكانت سلوته في الحياة. وهو خير من أفاض في وصف الكتب، ولعله أول من قدم فهرستا لكتبه في مقدمة أحد كتُبه (الحيوان)، وما عدَّدَه منها يكشف عن ضآلة ما بَقِيَ منها. والجاحظ أشهرمَن قيل إنه مات تحت أنقاض الكتب، وأحسن من بقيت بعض كتبه محط أنظار أهل الفكر والأدب والبلاغة على امتداد التاريخ. وهومن الذين يُثير الحزنَ في نفوس الباحثين ضياعُ كتبهم.

وغايتي أن يُلقيَ هذا البحث بعض الأضواء على جوانب تتعلق بصناعة تأليف الكتاب عند الجاحظ، وأن يفتح نافذة على جوانب من منهجية تأليف الكتاب في تراثنا العربي، وأن يُذكِّر الأجيال العربية المعاصرة بأهمية الكتاب، في زمن استبدت فيه وسائل الإعلام بعيون القراء وأسماعهم واهتماماتهم، وأضحتّ فيه الشاشة خير جليسُ في الأنام. وقد راعيت في

١- كتاب الحيوان: الجاحظ ، مقدمة تحقيق عبد السلام هارون- ط٢ (القاهرة، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، ١٩٦٥) :٢٩/١ (ملحوظة: الأرقام الواقعة بين معقوفين في هذا البحث، هكذا تُحيل على هذه الطبعة).

هذا البحث عرضَ أقوال الجاحظ ليُشاركني القارئ في تأمل ما حفلتْ به نصوصُه من أفكار حول منهجية التأليف.

لعل هذا الكتيب يحمل إشارة إلى وجود منهج في التأليف في حضارة الإسلام، من خلال آثار باحث كان أول مَن توسَّع في التأليف الأدبي في التراث الإسلامي العربي.

وأملي أن يجد الباحث فيه فائدة تُذكر. ومن اللّه تعالى التوفيق والسداد، إنه نعم المولى ونعم النصير.



المبحث الأول

كلمة حول الجاحظ

(١) امتداد حياة عبر تأسيس هوية

امتدت حياة أبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ عبر مرحلة التدوين في أزهى فتراتها من أواسط القرن الثاني للهجرة إلى أواسط القرن الثالث؛ إذ عاش نحو ست وتسعين سنة (١٥٩ – ٢٥٥هـ). وهي مرحلة استدعت ترسيخ الهوية الإسلامية العربية في مواجهة الصراعات السياسية والاجتماعية والفكرية مع الحضارات المحيطة والمتاخمة للمجال العربي.

قضى جل حياته في مدينة البصرة، وكانت يومئذ وَسَطاً اقتصاديا وفكريا؛ فهي مفترق طرق برية وبحرية ونهرية. وكانت بفضل موقعها الجغرافي ملتقى كثير من الأجناس، ومن أهم المحطات التجارية؛ جُلبت إليها السلع من أطراف المعمور، وأضحت واسطة العرب والعجم، كما قيل، وتنوعت فيها المكاسب والمطالب. وتميزت البيئة البصرية على عهد الجاحظ بنزوعها العقلاني في مختلف ميادين المعرفة، وخاصة في الحركة الاعتزالية. وقد تأثر الجاحظ بهذا الوسط في مناحيه الفكرية.

يقول شارل بيلا (تـ ١٩٩٢): «كانت البصرة لأسباب لا أتبيَّنُها، أكثرَ جُنوحاً إلى الواقعية والعقلانية أي إلى استعمال العقل والمنطق في جميع المحاكمات والتأملات القائمة على علم متين ومعرفة صحيحة. وكان من المنتظر أن يُطبِّقَ الجاحظ، في معظم مؤلفاته، المبادئ التي تُمَيِّزُ مسقطَ رأسه البصرة» [١].

وكفى البصرة مجداً أن يُكتب في ديارها ثلاثة كتُب: الكتاب لسيبويه (١٨٠هـ)، والعين للخليل بن أحمد (١٧٥هـ)، والبيان والتبيين للجاحظ.

ويوم انتقل الجاحظ إلى بغداد كانت مقر الخلافة العباسية، وعاصمة الدنيا، وملتقى الحضارات، ومهبط آمال العلماء والمفكرين. كانت نفوس الراغبين في الثروة أو المتعة تتطلع إليها؛ إذ تدفقت عليها الثروات وجُمعت

١- الجاحظ: شارل بيلا، ترجمة: د. إبراهيم الكيلاني، ص٣٧٨.

فيها أنواع الملذات؛ فكانت كما وصفها أبو منصور الثعالبي (٤٢٩هـ): «واسطة الدنيا، ومدينة السلام، وقُبَّةُ الإسلام؛ لأنها غُرَّةُ البلاد، ودار الخلافة، ومجمع الطرف والطيِّبات، ومعدن المحاسن واللطائف، وبها أرباب النهايات في كل فن، وآحاد الدهر في كل نوع»[1].

(٢) مواجهة غليان فكري

ولا شك أن سر عظمة الجاحظ يرجع إلى ما أخذه عن أعلام مرحلته، وإلى انفتاحه على المجالس العامة والخاصة في عصره، ومعايشته للحظة التجاذب بين الفكر الإسلامي وبقية الأفكار الأخرى، وقدرته على رصد مظاهر تحركات الطوائف، وتفاعلات المجتمع مع تلك الفترة، مع تمثله لثقافة العصر في أبعادها الإنسانية، وخوضه في معضلات عصره، وما يضطرب فيه من نزعات وتيارات، بجرأة فكرية لا تتأتَّى إلاَّ لأمثاله من نوابغ العصور.

أما عصرُه فقد كان يضطرب بالمذاهب والنِحل، وتصطرع فيه الأفكار والمناهج بأُصولها المتعدِّدة، وأشكالها المختلفة. وهي لحظة تفاعلت فيها حضارة الإسلام مع الحضارات السابقة، وحصل تجاذُبُ الثقافة الإسلامية العربية مع بقية ثقافات الأمم الأخرى من خلال حركة الترجمة. وهي مرحلة سعت خلالها الحركة الشعوبية إلى مناهضة السَّادة الجُدد، وطمس هُويتهم، وكان الجاحظ من أوائل مَن وقفوا في وجه ذلك المد الشعوبي.

وفي لُجَّةِ هذا الصدام تفاعلت الثقافات، وتشعبت مناهج الفكر، وكان للكلمة مفعولها في معترك العصر. وبانفتاح الجاحظ على اهتمامات العصر كان خير مَن تمثَّلَ ما لدى الآخرين، فصبَغه بأصالة الأمة التي ينتمي إليها.

١- لطائف المعارف: أبو منصور الثعالبي (٤٢٩هـ)، تحقيق: محمد إبراهيم سليم – ط١ (القاهرة، دار الطلائع، ١٩٩٢)، ص١٢٩.

«قيل لأبي العيناء: ليت شعري، أيُّ شيء كان الجاحظ يُحسن؟ فقال: ليت شعري أيُّ شيء كان الجاحظ لا يُحسن» [1].

(٣) في معترك الثقافة والتأليف

ازدهرت حضارة الإسلام خلال النصف الأول من القرن الثالث للهجرة، وبلغت شأواً بعيداً. فبعد أن تبلورَتْ داخل الحواضر العباسية الجديدة، بدأت تمتدُّ عبر آفاق المعمور؛ فانصهرت الأجناس وتفاعلت في بوتقة أمة إسلامية، وبدأت المدونات والكتب تحمل أصداء ذلك التفاعل، وأخذت الأفكار تتعايش تحت ما يحمله الإسلام من شعار في طلب العلم: **الكلمة الحكمة ضالة المؤمن يطلبها أنى وجدها**. ولكن ما هي الكلمة الحِكمة؟ إنها ما يَمكُثُ في الأرض؛ مِمّا ينفع الناس؛ أي ما ينسجم منها مع ثوابت الأمة وحاجتها. فما كان لها أن تطلُب ما لا ينفعها في دينها أو دنياها. ومن هنا، حين تطلعت إلى ما لدى الشعوب الأخرى من آداب، «كان أول ما نُقِل إلى العربية ذلك النوع من الأدب القائم على استخراج الحكمة والمثل من صور الحياة المختلفة؛ ليكون كاشفاً عن مسالك هذه الحياة، هاديا إلى آداب السلوك فيها» [2].

فكلُّ الحواضر تَغْلي بالرواية والتدوين، فعلوم العربية تُضبط نحواً وصرفاً ومعجماً وعروضاً، وجامعو اللغة والشعر ينهضون بهما شرْحاً وتعليقاً ونقداً، وعلماء الحديث يضعون المنهج جرحاً وتعديلاً داخل جوامع ومسانيد، أما فقهاء الإسلام فقد دوّنوا الفقه وتولّى تأصيله الإمام الشافعي (٢٠٤هـ)، أما علم التاريخ فقد اتضحت معالمه من خلال السيرة النبوية وأخبار الصحابة، وما وصل من أخبار الأمم القديمة.

١- جمع الجواهر في المُلَح والنوادر: إبراهيم الحصري القيرواني، تحقيق: علي محمد البجاوي، القاهرة، ١٩٥٣، ص ٢٠٤ .

٢- الجاحظ حياته وآثاره: د. طه الحاجري، ص ١٤٦.

وكانت البصرة أكبر البيئات العلمية في زمن الجاحظ، تعيش فيها طائفة من العلماء السريان؛ يُمثلون البقية الباقية من الحياة العلمية القديمة في هذه المنطقة؛ إذ تعلموا العربية، فنقلوا إليها ما كانوا يُعنون بعلمه من كتب الأوائل؛ فأخذت الكتب المترجمة مكانا ظاهراً في الحياة العقلية في البصرة، وبهذا الاعتبار كانت البصرة مثابة للكتب المختلفة [١].

ولاحظ د. طه الحاجري أن الكتب المترجمة كان لها أثرها في تطور الكتاب العربي، فقد وُضعت هذه الكتب المترجمة الموضوعة على نسق تأليفي منظم بين يدي العلماء؛ فأصبحت نماذج قوية من التأليف تدعوهم إلى احتذائها، كما فتحت لهم آفاقا من الموضوعات فيها يبحثون ويكتبون. يقول: «ولا ريب أن هذه الكتب اليونانية التي أخذوا في ترجمتها كانت فرغت من المصاعب الأولى في التأليف، واستقامت فيه على الجادة. وفوق هذا كان بين هذه الكتب ما يُعنى فيه بالنص على المنهج الذي يَلْزَم في كل علم، ليكون وافيا بشرائط التأليف وأصول العلم» [٢].

ومن المعلوم أن المعارف أخذت تُنقَلُ تِباعاً إلى الثقافة العربية، قبل ميلاد الجاحظ. وفي شبابه انتشرت الكتب في البيئة البصرية، وشاعت في المنتديات، وبدأت ملامح مناهج التأليف تتضح معالمُها. ولم يكن ذلك بفعل حركة الترجمة، كما يدعي ذلك بعض الباحثين؛ إذ إننا نفتقد المخطوطات التي تتشكَّلُ منها ملامح الخطوات الأولى لتاريخ التأليف في حضارة الإسلام. ونجد معالم ديباجة الكتاب الإسلامي نابعة من توجيهات الإسلام وتقاليده في الكتابة، ومحتويات مقدمة الكتاب في تراث الإسلام لا علاقة لها بما هو ثابت اليوم في مقدمات الكتب المترجمة عن الفرس أو اليونان.

وعموما، أشاع الإسلام حركة فكرية واسعة، امتدت عبر الحواضر الجديدة في البيئات الاجتماعية المختلفة، وتغلغلت في ثناياها؛ فأصبحت

١- نفسه ص ١٤٨.

٢- نفسه، ص ١٤٩.

المعارف المتنوعة وثيقة الصلة بالشعوب والجماعات وحلتَّ الكتُب بينها محل الأحبة والأصدقاء. فانتشرت الكتُب في كل الأصقاع، وازداد الإقبال عليها، والاعتزاز باقتنائها، فتكاثرت الخزائن، وازداد عدد الوراقين، وأصبح الكتاب قريباً من النفوس، بل أصبح جزءاً لا يتجزّأ من بعضها.

وعن انتشار الورق في زمن الجاحظ، يقول القلقشندي (أحمد بن علي ٨٢١هـ): «لما ولي الرشيد الخلافة كثُر الورق، وفشا عمله بين الناس، وأمَرَ ألاَّ يَكتب الناسُ إلا في الكاغد؛ لأن الجلود ونحوها تَقبَلُ المَحوَ والإعادة فتقبل التزوير، بخلاف الورق بأنه متى مُحيَ منه فَسَدَ، وإن كُشط ظهر كَشطُه، وانتشرت الكتابة في الورق إلى سائر الأقطار (...) واستمر الناس على ذلك إلى الآن»[1].

وحياة الجاحظ ارتبطت بالعلم منذ حداثة سنه، فقد ورد في كتاب المُنية والأمل، أنه «كان في حداثته مشتغلا بالعلم، وأمُّه تُمَوِّنُه، فجاءته يوماً بطَبَقٍ عليه كَرارِيسُ، فقال: ما هذا قالت: هذا الذي تجئ به. فخرج مُغتمّاً، وجلس في الجامع، وموسى بن عمران جالس، فلما رآه مغتمّاً، قال له:ما شأنك؟ فحدثه الحديثَ، فأدخله المنزلَ وقرّب إليه الطعام، وأعطاه خمسين ديناراً، فدخل السوق واشترى الدقيق وغيره، وحمله الحمّالون إلى داره، فأنكرت الأم ذلك، وقالت: من أين لك هذا قال: من الكراريس التي قدّمتِها إليَّ»[2].

والجاحظ دخل إلى المعترك الثقافي؛ حاملاً في تكوينه ثقافة القرون الثلاثة الأولى، ومتسلحا برؤية منهجية ثاقبة وبقدرة على الجدل؛ وبكل ذلك دافع باستماتة عن مواقفه، وبهما صبغ ثقافة مرحلته، وجعلها مواكبة للتطورات، ومستوعبة للتحولات.

١- صبح الأعشى: ٢/٤٧٥ - ٤٧٦

٢- المنية والأمل: القاضي عبد الجبار الهمذاني(٤١٥هـ)، جمعه: أحمد بن يحيى المرتضى، حققه: د. عصام الدين محمد علي، ص ٥٨ - ٥٩.

وأول ما تكشف عنه آثار الجاحظ شيُوعُ الروح المنهجية في ثناياها؛ فَفكرُه «قائم على الملاحظة والتحليل والمقارنة والنقد والتمحيص وكشف التضاد والتناقض الداخلي في الأفكار المطروحة عليه. فهو عاشق للمعرفة، مولع بامتلاك مفاتيحها، شغوف بالاطلاع على مختلف مصادرها» [1].

والجاحظ تعلّق بحب الكتاب، ووجد فيه سلوته في الحياة. وقد لاحظ عبد السلام محمد هارون في مقدمة تحقيقه لـ كتاب الحيوان أن ما أورده الجاحظ في صدر الجزء الأول من الحيوان من نعتٍ للكتب؛ يقع معه الدليل على ما ملأ الله به صدر هذا الرجل من إيمان بما للعلم والكتاب من شرف وجاه، وما للتفهم والقراءة من مكان عال، ومنزل كريم .

وتطلعت نفس الجاحظ إلى أن تصل إلى مجالات خارج البصرة، فتنوَّعتْ مشاهداتُه واتصالاتُه، واتجه إلى كتابة الرسائل وتأليف الكتب، في مرحلة أصبح الوراقون فيها يتولون نشر التصانيف في الحواضر العباسية. ولا يشكُّ أحدٌ أن أصول التأليف قد بدأت تترسَّخ في البيئات الثقافية على اختلاف توجهاتها.

«ولقد كان اصطناع الجاحظ التأليف والكتابة من الأحداث البارزة في تاريخ الكتاب العربي، ومن الحدود الظاهرة في تطوره، فقد خطا به خطوة جديدة، وسلك فيه مسلكاً جديراً بذلك العقل الفنان. كانت صناعة التأليف لا تزال تخطو خطواتها الأولى، لم تنهج لها سبُلا واضحة مرسومة معبدة؛ إذ كانت لا تزال حميلة على غيرها، معلقة بمجالس الدرس والمذاكرة والمناظرة: فهي إلى طور التدوين أقرب منها إلى طور التأليف، فلم تُصبح بعد أمراً مستقلا تمام الاستقلال» [2].

١- الصراع الفكري عند الجاحظ: د. إلياس فرح، ص ١٠.

٢- الجاحظ حياته وآثاره: د. طه الحاجري، ص: ١٧٨.

(٤) اختبار في التأليف

ويبدو أن المأمون كان يُتابعُ ما حقَّقَه الجاحظ من نجاح في صناعة التأليف؛ **مما** جعله يستدعيه إلى بلاطه ويطلب إليه أن يَكتب له رسالة في العباسية والاحتجاج لها. ونجد هذا النص في كتاب **البيان والتبيين**، يتناول فيه الجاحظ متابعة كتبه من لدن أحد العيون العلمية للمأمون، وهو مؤَدِّبُه اليزيدي محمد بن يحيى (٢٠٢هـ)، أحد القُراء؛ وهو، كما أخبر المأمون؛ «منْ يُرتضى عقلُه ويُصدَّقَ خبرُه». وجاءت الرواية هكذا:

قال الجاحظ: «ولما قرأ المأمون كُتُبي في الإمامة فوجدها على ما أمر به، وصرتُ إليه وقد كان أمَرَ اليزيديَّ بالنظر فيها ليُخبرَه عنها، قال لي: قد كان منْ يُرتضى عقلُه ويُصدَّق خبرُه، خبَّرَنا عن هذه الكتب بإحكام الصنعة وكثرة الفوائد، فقلنا له: قد تُربي الصفةُ على العيان، فلما رأيتُها رأيتُ العيانَ قد أربى على الصفة، فلما فليتُها أرْبى الفَلْيُ على العِيان كما أربى العِيانُ على الصفة.

وهذا كتاب لا يَحتاجُ إلى حضور صاحبه، ولا يفتقر إلى المُحتجِّين عنه، قد جمَعَ استقصاء المعاني، واستيفاء جميع الحقوق، مع اللفظ الجزل، والمَخرج السهل، فهو سوقي ملوكي، وعامي خاصِّيٌّ»[(١)].

ويُستفاد من النص ما يلي:

- إن المأمون وجد كتب الجاحظ على ما أمر به، أي على الصورة التي أرادها.
- إن المأمون كلَّف مؤدِّبَه بالنظر في كتب الجاحظ؛ أي أنه أمره بوضع تقارير عنها، بلغة اليوم.
- إن كتب الجاحظ تتميز بإحكام الصنعة وكثرة الفائدة، كما يرى اليزيدي.

١- البيان والتبيين، تحقيق: عبد السلام هارون – ط٤ (بيروت، دار الفكر، د.ت): ٣/ ٣٧٤ –٣٧٥.

- إن المأمون لم يكتفِ بما قاله اليزيدي، بل إنه فحص كتبَ الجاحظ بنفسه؛ فوجد فيها فوق ما وُصِفتْ به، وقال: رأيت العيان قد أربى على الصفة.

- إن المأمون، وهو يُشير إلى كتاب الإمامة على مذهب الشيعة، (وكأنه يُشير إلى صفات كتب الجاحظ عامة) قال: كتاب لا يحتاج إلى حضور صاحبه أي أن الكتاب يُثبت جدارة صاحبه بحيث ينوب عنه في المحافل والمنتديات، ويقوم شاهداً على قيمته العلمية. فالكتاب جَمَعَ استقصاء المعاني، واستيفاء جميع الحقوق؛ أي أنه استقصى المعاني، وتوافر له ما تتطلع إليه النفوس؛ مع اللفظ الجزل، والمَخرج السهل أي مع قوة العبارة وسهولة الأداء؛ فهو سوقي ملوكي، وعامي خاصي؛ يستجيب لجميع المستويات والأذواق.

(٥) وحدثت طفرة في التأليف على عهد الجاحظ

وخلال زمن الجاحظ اتسعت حركة تدوين المعارف العربية، فحدثت طفرة في التأليف وأصبح ثالث ثلاثة اشتهروا بكثرة التأليف:

(أ) المدائني (أبو الحسن، علي بن محمد ٢٢٥ هـ) ذكر له ابن النديم في الفهرست حوالي مائتين وأربعين مصنفاً [١].

(ب) الكندي (يعقوب بن إسحاق ٢٥٢هـ)، وقد ذَكر َله ابن النديم ما يقرب من مائتين وخمسين كتابا «في المنطق والفلسفة والهندسة والحساب والأرثماطيقي والموسيقى والنجوم وغير ذلك» [٢].

(جـ) الجاحظ (أبو عثمان عمرو بن بحر٢٥٥ هـ) فقد أخرج زهاء ثلاثمائة وستين مؤلفا في ألوان شتى من المعرفة. وأحصى له ياقوت الحموي

١- فهرست النديم (محمد بن أبي يعقوبنحو٤٠٠هـ)، تحقيق: د. يوسف علي الطويل – ط١(بيروت، دار الكتب العلمية١٩٩٦)، ص ١٦٢ – ١٦٦.

٢- نفسه، ص ٤١٤.

في معجم الأدباء مائة وثمانية وعشرين مُصنفاً [1].

وقد جعل الجاحظُ التأليفَ حرفتَه وصناعتَه. وتقاضى عن كل واحد من كتبه الثلاثة الآتية، خمسة آلاف دينار:

كتاب الحيوان أهداه إلى محمد بن عبد الملك الزيات (٢٣٣هـ).

البيان والتبيين أهداه إلى قاضي القضاة أحمد بن أبي دواد (٢٤٠هـ).

الزرع والنخل أهداه إلى إبراهيم بن العباس الصولي (٢٤٣هـ) .

أما كتابُه في فضائل الترك فإن الفتح بن خاقان (٢٤٧هـ) – وزير المتوكل العباسي– قد أجرى على الجاحظ بتأليفه له، راتبا شهريا ظل يتقاضاه من مال الدولة.

(٦) وماذا عن كتب الجاحظ عامة وكتاب الحيوان خاصة؟

كل مَن قرأ شيئا من تراث الجاحظ يُحس بقيمته في تاريخ الثقافة العربية، وأنه يُمثِّل شيئا نفيساً لا يُمكن الاستغناء عنه. وكل مَن عرف آثار الجاحظ عدَّها ثروة أدبية ولغوية وحضارية لا يُستغنى عنها.» فهو من أحذق أئمة الأدب – كما يقول الصفدي – وأعرفهم بما يقول، وأبصرِهم بمدارك العقول»[2].

ونكتفي هنا بآراء بعض العلماء في قيمة آثار الجاحظ، منها :

– قول ثابت بن قُرَّة الحرّاني الصابئ (٢٨٨هـ) في آثار الجاحظ: «كتُبه رياض زاهرة، ورسائلُه أفنان مُثمرة» [3].

– قول المسعودي (علي بن الحسين ٣٥٦هـ) – وهو يُعد في خصوم الجاحظ: «كتُبُ الجاحظ – مع انحرافه المشهور – تجلو صدأ الأذهان،

١– معجم الأدباء: ٢١١٨/٥ – ٢١٢٠ .

٢– نُصرة الثائر على المثل السائر: صلاح الدين بن أيبك الصفدي (٧٦٤هـ)، ص٩٠.

٣– معجم الأدباء : ٢١١٣/٥ (نقل ياقوت هذا القول من كتاب أبي حيان : تقريظ الجاحظ).

وتكشف وضوح البرهان؛ لأنه نظمَها أحسن نظم، ورصفَها أحسن رصف، وكساها من كلامه أجزل لفظٍ» [1].

- وقول ابن العميد (أبي الفضل محمد بن الحسين ٣٦٠هـ) «كتب الجاحظ تعلم العقل أولا والأدب ثانيا» [2].

ووصف أبو حيان التوحيدي (علي بن محمد ٤١٤هـ) كتب الجاحظ بقوله: «وكُتُبُه هي الدُّرُّ النثير، والنَّوْرُ المطير، وكلامُه الخمرُ الصِّرْف، والسِّحْر الحلال» [3].

أو كما قال الخطيب البغدادي (٤٦٣هـ): «أبو عثمان الجاحظ المُصنِّفُ الحسَنُ الكلام، البديعُ التصانيف» [4].

وقد قال العلامة أمجد الطرابلسي- رحمة الله تعالى عليه - (وفاته ٢٨ يناير ٢٠٠١): «ولو أن كتبَه فُقِدتْ لفُقِدَ معها ما لم يُعَوَّضْ من آداب العرب القديمة والمحدثة، ومن الإشارات الثمينة إلى مختلف مظاهر الحضارة الإسلامية في القرنين الثاني والثالث خاصة» [5].

ومنهج الجاحظ في التأليف، كما هو معروف، يقوم على الرغبة في استقصاء المعرفة وتجميع شواردها، تحت نزوع موسوعي، قد ننعته اليوم بالاستطراد؛ غير أن حقيقته تستجيب لا محالة لمرحلته التاريخية ولرؤية صاحبه في التأليف ولظروفه الصحية ومزاجه، كما سنرى.

أما رسائل الجاحظ فتنوعت مواضيعُها، تبَعاً لتنوع اهتمامات صاحبها؛

١- مروج الذهب ومعادن الجوهر: المسعودي (٣٥٦هـ) تنقيح وتصحيح: شارل بيلا (ت١٩٩٢) - ط١ (بيروت، منشورات الجامعة اللبنانية قسم الدراسات التاريخية، ١٩٦٥) : ١٩٥/٤.

٢- معجم الأدباء: ٢١١٧/٥.

٣- البصائر والذخائر: أبو حيان التوحيدي، تحقيق: د. وداد القاضي : ٣/١ .

٤- تاريخ بغداد : الخطيب البغدادي (٤٦٣هـ): ٣٥٨/١٤.

٥- نظرة تاريخية في حركة التأليف عند العرب في اللغة والأدب: ط٥ (الدار البيضاء، دار قرطبة للطباعة والنشر،١٩٨٦)، ١٣٤.

حتى لامست جوانب واسعة من مجالات الحياة الإنسانية في عصره؛ فهي كما قال عبد السلام هارون: «دراسات نفسية اجتماعية، ودينية وكلامية وجدلية، وأدبية عالية، وترفيهية سامية ...» [1].

وعن مكانة كتاب الحيوان في نفس صاحبه، وعن تقديره لقيمته العلمية واتجاهه الفكري العام، وتوسيع مجالات مُخاطبيه، ما مهَّد به الجاحظ له بقوله: «وهذا كتاب تستوي فيه رغبة الأمم، وتتشابهُ فيه العُرْبُ والعجم، لأنه وإن كان عربياً أعرابياً، وإسلامياً جماعياً، فقد أخذ من طُرَف الفلسفة، وجَمَعَ بين معرفة السماع وعلم التجربة، وأشرك بين علم الكتاب والسنة، وبين وِجدان الحاسة، وإحساس الغريزة. ويشتهيه الفتيان كما يشتهيه الشيوخ (...) ويشتهيه الغبي كما يشتهيه الفَطِن» (١١/١).

ونبَّهَ القارئَ إلى ما يُمكن أن يتوخّاه من الكتاب بقوله: «وهذا كتاب موعظة وتعريف وتفقه وتنبيه» (٣٧/١).

وعن شُهرة كتاب الحيوان ومكانته في تاريخ التأليف لدى علماء البصرة، جاء في معجم الأدباء لياقوت الحموي (٦٢٦هـ): «وكان يُقال: لأهل البصرة ثلاثة كتب يفتخرون بها على أهل الأرض: كتاب النحو لسيبويه وكتاب الحيوان للجاحظ وكتاب أبي حاتم في القراءات» [2].

واعتبر ابن خلكان (٦٨١هـ) كتابه الحيوان «أحسن تصانيفه وأمتعها؛ إذ جمع كل غريبة» [3].

وهو من الكتب التي ألَّفها في نهاية حياته، وقد ضمَّنَ صدرَه لائحةً بأسماء كتُبه؛ مُشيراً إلى مضامينها وردود الأفعال حولها، ونثَرَ خلال ذلك نظرات هامّة في تاريخ التأليف عند العرب، كما عرَضَ لنا ملامح من تجربته في التأليف.

١- مقدمة عبد السلام هارون لرسائل الجاحظ: ٤/١.

٢- معجم الأدباء: ١٤٠٦/٣ .

٣- وفيات الأعيان، تحقيق: د. إحسان عباس: ٤٧١/٣ .

والملاحظ أنه مهَّد للكتاب بمهاد كشف فيه عن دور الكتابة وأهميتها في تطورات الاجتماع الإنساني؛ إذ بفضل الكتابة ينتصر الإنسان على الزمن، وبها تصون الإنسانية تجربتها وخبرتها وتراثها على الأرض. وصوَّر الجاحظ ضرورة انتقال الأمة العربية من عهد السماع والرواية والمشافهة إلى عهد الكتابة؛ تبَعاً لطبيعة التطور الإنساني. وهذا التمهيد إقرار بمشروعية الكتابة في مواجهة الرواية والمشافهة، ودفاع مبطن عن النثر في مقابل الشعر في زمن الجاحظ.

ونجده يقول في هذا التمهيد: «ثم رجع بنا القول إلى الترغيب في اصطناع الكتاب، والاحتجاج على مَن زرى على واضع الكتاب (...) فلا يُصان العلم بمثل بذله، ولن تُستبقى النعمة فيه بمثل نشره» (١/ ٨٤).

وفي صدْر كتاب الحيوان دفاع عن جملة من الكتب، وامتداحٌ لها، وتفنيد لآراء شخص تعرَّضَ لها بالطعن، وفي تلك المقدمة تحدَّث عن فوائد الكتاب؛ مما يعلَقُ بالفؤاد لنفاسته، ونثر فيها نظرات حول تأليف الكتاب وأهميته؛ مما يُعد تأسيسا لرؤية منهجية في التأليف في تاريخ الإسلام. وسيتضح للقارئ – إن شاء الله تعالى – أن الجاحظ قدَّم لأول مرة تصورات منهجية رائدة في تاريخ التأليف في مرحلة تدوين الثقافة الإسلامية، وتأسيس رؤية فكرية حضارية في عالم الكتاب. والجاحظ ممن أُخِذوا بالفُضول المعرفي، واتسم أدبُهم بالروح العلمي والنزوع العقلي، وسكنهم الشك المنهجي، وتطلَّعوا إلى ضبط القوانين العامة، ووضع النظريات الخاصة في كثير من شؤون الحياة.

ويُمكن القولُ إجمالاً إنَّ ظاهرة التأليف قد انطلقت بقوة في معترك النهضة العربية في عهد الجاحظ، فكان أول مَن نظر في تلك الظاهرة وهي تتأسَّسُ وتتوطّد وتتشعب، وكان لا بدّ أن تكون محط نظر الجاحظ؛ وهو الذي كان له رأيٌ في كل قضية شغلت أهل عصره. كيف وهو الذي مارس

الترسُّل والتأليف وضعاً وتصنيفاً وتنسيقا، وعاصر وضع الكتب المترجمة، وما وضعه أهل الإسلام من كتب في حقول المعرفة الإسلامية ألم يعِشْ الجاحظ محاطاً بالكتب حتى مات تحت أنقاضها؟

(٧) وماذا عن مكانة الجاحظ؟

وعن مكانة الجاحظ يكفي أن نسوق ثلاثة أمثلة:

أولا: ذكروا أن ثابت بن قُرَّة الصابئ (٢٨٨هـ) قال:» ما أحسد هذه الأمة إلا على ثلاثة أنفس: أولهم: عمر بن الخطاب في سياسته ويقظته، وحذره وتحفظه، ودينه وتقيته (...) وصرامته وشهامته (...) والثاني الحسن بن أبي الحسن البصري، فلقد كان من دراري النجوم علما وتقوىً، وزهداً وورَعاً، وعِفة ورقة، وتألهاً وتنزهاً (...) والثالث أبو عثمان الجاحظ خطيب المسلمين، وشيخ المتكلمين (...) كتبُه رياض زاهرة، ورسائله أفنان ثمرة (...) والعلماء تأخذ عنه، والخاصة تُسلِّمُ له (...) «[1].

وهناك مَن أراد الغمز في نسبه والتشكيك في أصله العربي؛ فتمسّك بالرواية التي وردت في ترجمة الجاحظ في تاريخ بغداد، والتي تقول إن جدَّه الأدنى كان أسود اللون يُقال له فزارة، وكان جَمَّالا لعمرو بن قلع؛ وهي رواية عن يموت بن المُزَرِّع المحدِّث (ابن بنت أخت الجاحظ)، لكنها رواية لا تثبت عند الفحص؛ وإنما أُريدَ بها أن تكون مطعنا في نسب الجاحظ؛ قصد إبعاده عن أصله العربي بالتشكيك في هذا الأصل، وجَعْلِه من الأفارقة [2].

ثانيا: ما نقله ياقوت الحموي (٦٢٦هـ) في معجم الأدباء من كتاب تقريظ الجاحظ لأبي حيان التوحيدي (٤١٤هـ) من أن أبا عثمان أحد ثلاثة

١- معجم الأدباء: ٥/ ٢١١٣- ٢١١٤ . ويُقارن بما أورده أبو حيان في كتابه البصائر والذخائر: ١/١٩٠ - ١٩١، وقال فيه: «إنك لا تجد مثلَه ، فسبحان مَن سخَّر له البيان وعلَّمَه، وسلَّم في يده قَصَب الرِّهان وقدَّمَه».

٢- تاريخ بغداد: ٤١/٨٥٣ - ٠٦٣ - وتفصيل هذه القضية عند طه الحاجري:٩٧ - ٨٨- يقول د. شوقي ضيف: «وهو يرجع - فيما يظهر - إلى أصل غير عربي (الفن ومذاهبه في النثر العربي) ، ٤٥١.

«لو اجتمع الثقلان على تقريظهم ومدحهم، ونشر فضائلهم في أخلاقهم وعلمهم ومصنفاتهم ورسائلهم، مدى الدنيا إلى أن يأذن الله بزوالها، لما بلغوا آخر ما يستحقه كل واحد منهم». وقد ذكره إلى جانب كل من أبي حنيفة أحمد بن داود الدينوري (نحو ٢٨٢هـ)، وأبي زيد أحمد بن سهل البلْخي (٣٢٢هـ) [١].

ثالثا: نجد أن مقياس الحضارة عند ابن العميد (أبي الفضل محمد بن الحسين ٣٦٠هـ) أمران: أوَّلُهما: التفطُّن لخواص بغداد، وثانيهما: معرفة كتب الجاحظ. وكان ابن العميد «إذا طرأ عليه أحد من مُنتحلي العلم فأراد امتحانَ عقله سأله عن بغداد؛ فإن فَطِنَ لخواصِّها، ونبَّهَ على محاسنها، وأثنى خيراً عليها؛ جعل ذلك مقدمة فضله، وعنوان عقله، ثم سأله عن الجاحظ، فإن وجد عنده أثرَ المُطالعة لكتبه، والاقتباس من ألفاظه، وبعض القيام بمسائله؛ قضى له بأنه غُرَّةٌ شادخة (ظاهرة) في أهل العلم، وإن وجدَه ذامّاً لبغداد غَفِلاً عما يجب أن يكون موسوماً به من الانتساب إلى المعارف التي يختص بها الجاحظ، لم يَنفعْه بعد ذلك شيءٌ من المحاسن»[٢].

وابن العميد هذا هو الذي جاء عنه في يتيمة الدهر «عين المشرق(...)، وأوحد العصر في الكتابة؛ يُدعى الجاحظ الأخير»[٣]. فقد لُقِّب بالجاحظ الثاني.

وعن تعلق الجاحظ بالكتب، أذَكِّرُ بخبريْن؛ ورد أولهما في معجم الأدباء؛

١- تاريخ بغداد: ٩٥٢/١ .

٢- لطائف المعارف: أبو منصور الثعالبي (٩٢٤هـ)، تحقيق: محمد إبراهيم سليم – ط١ (القاهرة، دار الطلائع، ٢٩٩١) ، ص٩٢١ – ٠٣١.

٣- يتيمة الدهر: الثعالبي (٤٢٩هـ)، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد:١٨٣/٣ – جاء في الإمتاع والمؤانسة ٦٦/١ أن أبا الفضل " تخيَّل مذهبَ الجاحظ وظنَّ إن تبِعَه لحِقَه، وإن تلاه أدركه، فوقعَ بعيداً عن الجاحظ ":٦٦/١.

وهو قول أبي هفّان (عبد الله بن محمد ٢٥٧هـ) أحد العلماء بالشعر من البصريين: «لم أر قط ولا سمعت مَن أحب الكتب والعلومَ أكثر من الجاحظ، فإنه لم يقع بيده كتابٌ قط إلا استوفى قراءتَه، كائناً ما كان، حتى إنه كان يكتري دكاكين الوراقين ويَبيتُ فيها للنظر» [١].

والقول الثاني ورد في الفهرست لابن النديم (نحو ٤٠٠هـ)، «عن أبي العباس محمد بن يزيد النحوي (المبرد ٣٨٥هـ)، قال: ما رأيتُ أحْرَص على العلم من ثلاثة: الجاحظ، والفتح بن خاقان، وإسماعيل بن إسحاق القاضي؛ فأمّا الجاحظ، فإنه كان إذا وقع بيده الكتاب قرأه من أوله إلى آخره، أيّ كتاب كان»[٢].

(٨) وتعلق الناس بكتب الجاحظ على امتداد التاريخ !

وأسوق أمثلة ثلاثة على شهرة كُتُب الجاحظ وتعلق الناس بها:

أولهما: قول أبي هفان، حين قيل له لمَ لا تهجُو الجاحظ، وقد ندَّدَ بك؟ فقال: «أمثلي يُخدَعُ عن عقله؟! والله لو وَضَعَ رسالةً في أرنبة أنفي لما أمست إلاَّ بالصين شُهرَةً، ولو قلتُ فيه ألف بيت لما طَنَّ منها بيت في ألف سنة» [٣]

ثانيهما: ما كان من أمر أحد الأندلسيين الذي «كان إذا سمِع كلام الجاحظ تخدَّرَ وتسدَّرَ عجَباً به. وكان يقول: «قد رضيتُ في الجنة بكتب الجاحظ عوضاً عن نعيمها» [٤]. فنجده يتهوّر في مبالغته حين يُفرط في تقدير كتب الجاحظ إلى درجة تجعله يقول مثل هذا الكلام.

وصاحب هذه المبالغة المُفرطة هو أبو محمد عبد الله بن حمود الزَّبيدي الأندلسي أحد علماء النحو واللغة والمبرِّزين في الشعر في القرن الرابع.

١- نفسه: ٢١٠١/٥ .

٢- الفهرست، ص٢٩١.

٣- معجم الأدباء: ٢١١٤/٥.

٤- نفسه: ١٥١٧/٤.

ثالثهما : ما كان من أمر ابن الإخشاذ (أبي بكر أحمد بن علي ٣٢٦هـ) حين افتقد كتاب الجاحظ الموسوم بالفرق بين النبي والمتنبي، فأقام مناديا بعرفات يُنادي، حيث «الناس حضور من الآفاق على اختلاف بلدانهم وتنازح أوطانهم وقبائلهم وأجناسهم، من المشرق إلى المغرب ومن مهب الشمال إلى مهب الجنوب، وهو المنظر الذي لا يُشابهه منظر: «رحم الله مَن دلَّنا على كتاب الفرق بين النبي والمتنبي لأبي عثمان الجاحظ على أي وجه كان» [١].

والجاحظ، كما قال د. أمجد الطرابلسي- طيّب الله ثراه - «تمثل ثقافة عصره؛ بل ثقافات عصره، ومثَّلَها خير تمثيل في كتبه الكثيرة المتنوعة» [٢].

وشهد له الباحثون بصيرورة آثاره في الزمان وذُيوعِها بين القراء على اختلاف مشاربهم.

وقد ورد في ثمار القلوب في المضاف والمنسوب: «وكان يُقال: أربعةٌ لم يُلحَقوا ولم يُسبَقوا: أبو حنيفة في فقهه، والخليل في أدبه، والجاحظ في تأليفه، وأبو تمام في شعره»[٣].

ونجد الجاحظ يفخر بنفسه في رسالة التربيع والتدوير فيقول مخاطباً أحمد بن عبد الوهاب، وهو يسخر من جهل وغبائه «وأشهد لك بعد هذا أن ستُحاسن عمْراً الجاحظَ وتُعاقلُه ثم تُطارفُه وتُطاوِلُه [٤] (فهو يفوقه حسناً وعقلاً وطرافةً وطولاً).

١- معجم الأدباء: ٢١١٥/٥ ، ابن الإخشاد متكلم على مذهب المعتزلة ، ورد في تحقيق د. إحسان عباس بدال مهملة (ينظر: معجم المؤلفين: ١٩٨/١) .

٢- نظرة تاريخية في حركة التأليف عند العرب في اللغة والأدب: ١٣٣ — ١٣٤ .

٣- ثمار القلوب في المضاف والمنسوب: أبو منصور الثعالبي (٤٢٩هـ) ص١٧٠.

٤- التربيع والتدوير: ١٦٧/٣

(٩) وظل الجاحظ روحا سارية ﰲ العصور

لقد ترددت أصداء الجاحظ ﰲ النفوس والعقول على امتداد تاريخ الثقافة الإسلامية العربية. ولعل من أسباب ذلك قدرتُه على الإبداع ﰲ كل كتُبه ورسائله، فالتقت عنده كثير من الميول، وتعلقت به النفوس، وانتشرت كتبه ﰲ الآفاق. وكيف يكون حال مَن كان يُقال فيه إن طالب العلم يشرف عند ملوك الأندلس بلقاء الجاحظ [١].

يقول د. طه الحاجري إن الجاحظ «ظل معروفاً – على وجه ما – ﰲ خلال العصور المختلفة، وظل مصدراً ينهل منه ويصدر عنه كثير من الأدباء، حتى ﰲ أحلك تلك العصور ظلمةً، وأبعدها عن الروح الأدبية الصحيحة، كما كان الأمر ﰲ أثناء الحكم العثماني ﰲ البلاد العربية»[٢].

ولاحظ أنه منذ اتجهت الأنظار إلى إحياء الآثار العربية القديمة ﰲ النهضة العربية الحديثة، أخذ الجاحظ مكانه ﰲ هذه النهضة. «فالاتجاه إلى استحياء الجاحظ بنشر بعض آثاره صدر أول ما صدر عن روح النهضة المصرية الحديثة، وحركة الإحياء الأدبي التي كانت مظهرا من مظاهرها»[٣].

لقد رسم الجاحظ بمواقفه وآثاره ملامح مثقف متميز من القرن الثالث للهجرة؛ ينفتح بصورة فعّالة وإيجابية على الثقافات الوافدة على المناخ الإسلامي العربي، وينماز بمتابعة ما يجري ﰲ الساحة الثقافية من حوله، وبالإسهام فيما يخوض فيه الناس من قضايا فكرية؛ خاصة أنه عاصر تشييد بيت الحكمة، وعاشر كثيراً من التراجمة، وتفاعل مع كثير من الثقافات الوافدة، إلى جانب شيوع مظاهر الحضارة الفارسية ﰲ المدن العباسية. وذهب د.شوقي ضيف، إلى أن الجاحظ، هو الكاتب الوحيد الذي

١- معجم الأدباء: ٢١١٧/٥.

٢- الجاحظ حياته وآثاره: د. طه الحاجري، ص٦ .

٣- نفسه: ٧ .

فرض نفسه على عصره والعصور التالية، خلال تاريخنا الثقافي[1].

وأثَر الجاحظ بارزٌ في ثقافة العرب عامة، ولا يختلف اثنان في حضور نزعته الإنسانية فيما بقِيَ بين أيدينا من كتبه ورسائله وأخباره.

وقال أستاذنا د. أمجد الطرابلسي - رحمة الله تعالى عليه - إن الجاحظ «استطاع بأسلوبه الدافئ الحي الوثاب أن يجعل آثاره تنبض حياةً على مر العصور»[2].

ويرى ميشال عاصي أن الجاحظ «يختصر العبقرية العربية في الفكر والأدب والإبداع »[3].

وقال د. محمود محمد الطَّنَاحي: «وقراءة الجاحظ فوق أنها تُمتع الوجدان، تُحرِّك العقل، وتفتح أبواباً من النظر، وتستثير دفائنَ من النظر. والكاتب العظيم – فوق إمتاعه – يستخرج من قارئه أشياء تظل حبيسة، هي من صميم الموضوع الذي يُعالجُه الكاتب»[4].

ويقول أيضاً - رحمه الله تعالى- : «وقراءة الجاحظ إذا أخذت بحقها قادت إلى المكتبة العربية كلِّها، بفنونها وعلومها المختلفة؛ إذ كان الجاحظ كثيرَ الإلمام بالعلوم العربية، لا يكاد يشذ عنه منها شيء»[5].

لقد فَرَضَ الجاحظ نفسه على العصور، وظلت مدرستُه البيانية مُشِعَّةً، حاملة لواء البيان. وظل الجاحظ نُسخةً فريدة في تاريخ الثقافة العربية، سعى المحققون أن يعثروا على ثانيةً لها، فما وقَفوا على شيء، منذ كان البحث في تراث العرب. وقد وجدوا مَن حاول أن يتشبه به أسلوباً ومنهجاً، ولكن عند المقارنة، اختفت المماثلة، فقيل:هيهات.

١- العصر العباسي الثاني: د. شوقي ضيف، ص ٦١٠

٢- نظرة تاريخية في حركة التأليف عند العرب في اللغة والأدب:أمجد الطرابلسي، ص ١٣٧.

٣- مفاهيم الجمالية والنقد في أدب الجاحظ : د. ميشال عاصي – ط١ (بيروت، دار العلم للملايين، ١٩٧٤)، ص ٥ .

٤- مقالات العلامة د. محمود محمد الطنَاحي صفحات في التراث والتراجم واللغة والأدب : ١/ ٢٦٠.

٥- نفسه: ١/٢٦١.

ويبدو أن طريقة الجاحظ في التأليف قد أصبحت راسخة في مناهج التأليف عند العرب، فهذا ابن النديم يقول عن ابن خلاد الرامهرمزي (الحسن ين عبد الرحمن ٣٦٠هـ) إنه كان «حسن التأليف مليح التصنيف يسلك طريقة الجاحظ، ويقول عن الآمدي (الحسن بن بشر٣٧١هـ) إنه كان «مليح التصنيف جيد التأليف متعاطي مذهب الجاحظ»[١]

وأختم هذا المبحث بقولين : أولهما لأبي حيان التوحيدي، و ثانيهما لـ شارل بيلا .

أما قول أبي حيان في الجاحظ، فإن كلَّ عالم أومثقف في التاريخ يتمنَّى أن يصدُق عليه، ويُقال فيه. قال أبو حيان التوحيدي: «إنّ مذهبَ الجاحظ مُدَبَّرٌ بأشياء لا تلتقي عند كلِّ إنسان، ولا تجتمِعُ في صدر كلِّ أحد: بالطبع والمنشأ والعِلم والأصول والعادة والعُمر والفراغ والعشق (للكتابة) والمنافسة والبلوغ؛ وهذه مفاتح قلَّما يملكُها واحدٌ، وسواهاَ مغالق قلَّما ينفكُّ منها واحد»[٢].

أما رأي شارل بيلا، فيدعو فيه الباحثين أن يُعوِّلوا في أبحاثهم على آثار الجاحظ، ويقول لهم : «... على جميع الباحثين أن يُعوِّلوا عليه، ويرجعوا إليه عندما يشرعون في دراسة موضوع من الموضوعات، مهما كان جنسُه وشكله، حتى قلتُ مرةً إني لو دُعيتُ إلى القول في تربية النحل، أو تحديد النسل، لما استغنيتُ عن الاعتماد عليهوالإشادة بذكره، لقد فهمتهم أن ذلك الشخص الفريد والكاتب الفذ ليس إلا صديقي العزيز أبا عثمان عمرو بن بحر الجاحظ»[٣].

١- الفهرست : ص٢٤٩

٢- الإمتاع والمؤانسة: أبو حيان التوحيدي (علي بن محمد ٤١٤هـ)، تحقيق: أحمد أمين – أحمد الزين : ١/٦٦.

٣- الرسالة الهزلية من أبي عثمان إلى أبي الوليد : شارل بيلا، (ضمن : الكتاب : مجلة شهرية يصدرها اتحاد المؤلفين والكتاب العراقيين، عدد خاص بالذكرى الألفية لميلاد ابن زيدون) العددان: ١١ – ١٢، السنة التاسعة، تشرين الثاني– كانون الأول ١٩٧٥، ص١٢٦.



المبحث الثاني

أهمية الكتابة وضرورتها في الاجتماع البشري

(١) لمحة عن تاريخ الكتابة وضروب من الخطوط:

يُعطينا الجاحظ لمحة عن تاريخ الكتابة، وعن قِدَمها وتشَكُّلِها بين الحفر والنقش والنتوء، وكيف أنها تختلف من حيث موضوعها وأهميتها: فالحفر يكون لتأريخ أمر جسيم أو تخليد ذكرى عظيمة. وموقع هذا الحفر يكون في الأماكن المشهورة المحفوظة التي تتطلع إليها العيون.

يقول الجاحظ في كتاب الحيوان إنهم «كانوا يجعلون الكتاب (أي الكتابة) حفراً في الصخور، ونقشا في الحجارة، وخِلْقة مركبة في البنيان، وربما كان الكتاب هو الحفر؛ إذا كان تاريخاً لأمر جسيم، أو عهد لأمر عظيم، أو موعظة يُرتجى نفعُها، أو إحياء شرف يُريدون تخليد ذكره (...) كما كتبوا على قُبَّة غُمدان، وعلى باب القيروان، وعلى باب سمرقند (...) يعمِدون إلى الأماكن المشهورة، والمواضع المذكورة، فيضعون الخط في أبعد المواضع من الدثور، وأمنعها من الدروس، وأجدَرَها أن يراها مَن مر بها، ولا تُنسى على وجه الدهر» (١/٦٨ – ٦٩).

وتحدث عن ضروب من الخطوط، ذكر منها: خط الحازي والعرَّاف والزاجر. وأشار إلى ما يخطه الأسير والمهموم والمفكر على الأرض، وأتى بأقوال للشعراء في الخط (١/٦٢ – ٦٣، ٦٥ – ٦٨). وعن منفعة الخط ومقاومته للنسيان أورد الجاحظ آيات قرآنية تتحدث عن الكتابة والكتاب، منها قول الله عز وجل:) فأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كتابَه بيمينه (وقوله:) وأما من أوتي كتابه وراءَ ظهره (، وقوله:) اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً، وعلق الجاحظ بقوله: «ولو لم تُكتب أعمالهم لكانت محفوظةً لا يدخلُ ذلك الحفظَ نسيانٌ، ولكنه تعالى وعز، علِمَ أن كتابَ المحفوظِ ونسَخُه، أوْكَدُ وأبلغُ في الإنذار والتحذير، وأهيَبُ في الصدور» (١/٦٢).

(٢) دور الكتابة في تخليد المآثر: من طبع الإنسان نقل الأخبار عن الماضين:

لاحظ الجاحظ تعلُّق الإنسان بنقل الأخبار، وحبه لتخليد آثاره على الأرض. يقول في رسالة كتمان السر وحفظ اللسان: «إن من طبع الإنسان محبة الإخبار والاستخبار. وبهذه الجِبِلَّة التي جُبل عليها الإنسان نُقلت الأخبار عن الماضين إلى الباقين، عن الغائب إلى الشاهد، وأحب الناسُ أن يُنقَلَ عنهم، ونقشوا خواطرهم في الصخور، واحتالوا لنشر كلامهم بصنوف الحيل. وبذلك ثبتت حجة الله على من لم يُشاهد مخارج الأنبياء، ولم يحضر آيات الرسُل، وقام الإخبار من غير تعاشر (معاشرة) ولا تواطؤ مَقام العيان، وعرفت البلدان والأقطار والأمم والتجارات والتدبيرات والعلامات؛ وصار ما يَنقلُه الناسُ بعضهم عن بعض ذريعةً إلى قبول الإخبار عن الرسل، وسُلَّماً إلى التصديق، وعونا على الرضا بالتقليد. ولولا حلاوة الإخبار والاستخبار عند الناس لما انتقلت الأخبار وحلت هذا المحل. ولكن اللّه عز وجل حببها إليهم لهذا السبب» [١].

(٣) صعوبة كتمان ما في النفس: الصدر إذا نَفَثَ بَرَأَ

ويؤكد في الرسالة المذكورة، أن الإنسان ينساق مع طبعه فلا يستطيع كتمان ما في نفسه؛ فتراه يبوح بما يمور في نفسه، وإلاّ «اعتراه الكرْب لكتمان السر، وغشيه لذلك سُقم وكمد يُحس به في سويداء قلبه بمثل دبيب النمل، وحِكَّة الجرب، ومثل لسْع الدَّبْر ووخز الأشافي، على قدر اختلاف الحُلوم والرزانة والخفة. فإذا باح بسره فكأنه أُنشِط من عِقال، ولذلك قيل: (الصدر إذا نفث برأ) مثلا مضروبا لهذه الحال».

ولتأكيد أن الإنسان طُبع على حب الإخبار والاستخبار، وعلى نقل ما يجري في نفسه، يقول: «ومما يؤكد هذا المعنى في كرْب الكتمان وصعوبته

١- كتمان السر وحفظ اللسان (رسائل الجاحظ) : ١٤٣/١

على العقلاء فضلا عن غيرهم، ما رَوَوْهُ عن بعض فقهائهم أنه كان يحمل أخبارا مستورة لا يحتملها العوامُّ، فضاق صدرُه بها، فكان يبرز إلى العراء فيحتفر بها حَفيرةً يودعها دنّاً، ثم ينكب على ذلك الدن فيُحدِّثُه بما سَمِعَ، فيُروِّح عن قلبه، ويرى أن قد نقل سرَّه من وِعاء إلى وِعاء.

وكان الأعمش (سليمان بن مهران، المحدث ١٨٨هـ) سيئ الخلق غَلِقاً، وكان أصحاب الحديث يُضجرونه ويَسومونه نشرَ ما يُحب طيَّه عنهم، وتَكرارَ ما يُحدثهم به، ويتعنَّتونه، فيحلف لا يُحدثهم الشهرَ والأكثرَ والأقل، فإذا فعل ذلك ضاق صدُره بما فيه، وتطلعت الأخبار إلى الخروج منه، فيُقبِلُ على شاةٍ كانت له فيُحدثها بالأخبار والفقه، حتى كان بعض أصحاب الحديث يقول: «ليت أني كنت شاة الأعمش» [1].

فصدرُ الإنسان يضيق بما يحمله، فيستعصي عليه كِتمانُ ذلك، فيَنبثق منه ما يعتلج في نفسه.

(٤) بالكتابة تستمر المعرفة مُشاعة بين الناس

لتقييد الآثار أهمية خاصة في تاريخ التطور البشري؛ إذ بذلك التقييد تتراكم التجارب الإنسانية على الأرض، وتنفتح آفاق البحث في مجالات المعرفة.

يقول الجاحظ:«ولولا تقييد العلماء خواطرهم على الدهر، ونقرهم آثار الأوائل على الصخر؛ لبطل العلم وضاع آخره. ولذلك قيل: " لا يزال الناس بخير ما بقِيَ الأولُ يتعلمُ منه الآخِر» [2].

ولم يكن للإنسان وسيلة لحفظ تجربة السابقين سوى الكتابة، ولا يقوم كيان دولة أو يُدبَّرُ أمرُها بغير وجود كتابة؛ فهي تمثِّل آلية التواصل بين الأزمنة والأمكنة، وهي وسيلة التقارب بين الأمم، وبها تستقيم حياة الناس

١- نفسه: ١/١٤٤.

٢- رسالة في الحنين إلى الأوطان (ضمن رسائل الجاحظ):٢/٣٨٣ .

في تدبير معاشهم، وتنظيم دنياهم. يقول بكتابه في المعلمين: «ولولا الكتابُ لاختلت أخبار الماضين، وانقطعت آثار الغائبين، وإنما اللسان للشاهد لك، والقلم للغائب عنك، وللماضي قبلك والغابرِ بعدك. فصار نفعه أعم والدواوين إليه أفقر. والمَلِكُ المُقيمُ بالواسطة(أي بوسط البلاد) لا يُدرِك مصالح أطرافه وسدَّ ثغوره، وتقويم سكان مملكته، إلا بالكتاب.

ولولا الكتاب ما تم تدبير، ولا استقامت الأمور. وقد رأينا صلاح الدين والدنيا إنما يعتدل في نِصابه، ويقوم على أساسه بالكتاب والحساب»[1].

والأصل في هذا ما تفضل به ربُّ العزة على خلقه؛ فعلَّمَ آدمَ الأسماء كلَّها، ثم علم الإنسان بالقلم فعلّمه ما لم يعلم، ودلَّه على الكتابة، فالله تعالى، كما قال الجاحظ «اخترع لنا ذلك، ودلنا عليه، وأخذ بنواصينا إليه»[2].

(٥) الاستعاضة عن المشافهة بالكتابة والتوثيق

ويرى الجاحظ أنه لا تقوم حضارة بدون كتابة، وأن كل أمة تعتمد في استبقاء مآثرها على شكل من الأشكال. «وكانت العرب في جاهليتها تحتال في تخليدها، بأن تعتمد في ذلك على الشعر الموزون، والكلام المقفى، وكان ذلك هو ديوانها (...) وذهبت العجم على أن تُقيد مآثرها بالبنيان (...) ثم إن العرب أحبت أن تُشارك العجم في البناء، وتنفرد بالشعر»(٧٢/١).

ولما تبين للأمم أن البنيان يلحقها الاندثار والدمار«ولأن من شأن الملوك أن يطمسوا على آثار مَن قبلهم» كانت الكتب أجدر بالعناية من بنيان الحجارة. وقد أثبت الجاحظ قول بعضهم: «كُتُب الحكماء وما دوَّنت العلماء من صنوف البلاغات والصناعات والآداب والأرفاق (ما يُستعان به) من القرون السابقة والأمم الخالية، ومَن له بقية ومَن لا بقِيَةَ له، أبقى ذكراً وأرفعُ قدراً وأكثر ردّاً لأن الحكمة أنفع لمن ورِثها، من جهة الانتفاع بها، وأحسن في الأحدوثة، لمن أحب الذكر الجميل»(٧٣/١).

١- فصل من صدر كتابه في المعلمين (ضمن رسائل الجاحظ):٢٧/٣- ٢٨.

٢- نفسه: ٢٨/٣ .

فالكتابة تخلِّد المآثر وتصون العلم من الاندثار، وتضمن له الامتداد في الزمن ورسوخ المواقع في الأمكنة، وسهولة الذيوع والانتشار.

ونبه الجاحظ إلى أن الإنسانية لا يمكن أن تصون مآثرها الفكرية إذا هي اعتمدت ذاكرتها فقط؛ لما قد يطرأ عليها من آفة النسيان، وما قد يحدث جراء ذلك من تغيير الحقائق وتشويهها.

وعن أهمية الكتابة ومقاومتها لآفة النسيان أورد الجاحظ قول الله عز وجل لنبيه عليه السلام (اقرأْ ورَبُّكَ الأكرمُ الذي عَلَّمَ بالقَلَم)، فوصف نفسه تبارك وتعالىبأن علَّم بالقلم، كما وصف نفسه بالكرم، واعتدَّ بذلك في نِعَمِه العِظام، وفي أياديه الجِسام" (٤٢/١).

من هنا اعتبر الجاحظ الكتاب مستودعاً للتجارب والتدابير والعلوم، فهو «نعم المعرفة ببلاد الغُربة» وهو «وِعاء ملئ علماً»، أ٣٨/١ مع «رُخص ثمنه، وإمكان وجوده» (٤٢/١).

«وقد قال ذو الرُّمة لعيسى بن عمر: اكتُبْ شعري؛ فالكتاب أحبُّ إليَّ من الحِفظ؛ لأن الأعرابي ينسى الكلمةَ وقد سهِرَ في طلبها ليلتَه، فيضعُ في موضعها كلمةً في وزنها، ثم يُنشدُها الناسَ، والكتابُ لا يَنسى ولا يُبدِّلُ كلاما بكلام» (٤١/١).

فالكتابة أهم وسيلة لصيانة المآثر وتخليد الأفكار، والذاكرة مهما كانت حدتها يُصيبها الوَهَن وتعتريها آفة النسيان؛ فتتعرض المعرفة للخلل والاضطراب والتغيير.

(٦) أهمية الكتابة في صيانة الحقوق وضبط المواثيق

والخط عند الجاحظ من بين آليات البيان الأربعة (اللفظ والخط والإشارة والعَقْد)، يحتل مكانة خاصة، وذلك لأن الله تعالى«جعل الخط دليلا على ما غاب من حوائجنا، وسببا موصولا بينه وبين أعوانه، وجعله

خازناً لِما لا يأمَنُ نسيانَه، مما قد أحصاه وحفِظه، وأتقنه وجمعه، وتكلف الإحاطة به» (١/٤٦).

وللكتابة دورها في تسجيل العهود والمواثيق بين القبائل والشعوب، وللخطوط والنقوش على أنواع الحلي ما يحفظها من الضياع. يقول: «لولا الخطوط لبطلت العهود والشروط والسجلات والصِّكاك، وكل إقطاع، وكل إنفاق، وكل أمان، وكل عهد وعَقد، وكل جِوار وحِلف. ولتعظيم ذلك، والثقة به والاستناد إليه، كانوا يدعون في الجاهلية مَن يكتب لهم ذكرَ الحِلف والهُدنة؛ تعظيماً للأمر، وتبعيداً من النسيان، ولذلك قال الحارث بن حلزة، في شأن بكر وتغلب:

«واذكُروا حِلْفَ ذي المَجازِ وما قُـدِّ مَ فيه العهود والكُفلاءُ» (١/٦٩).

فالكتابة تضع حدا لضياع الحقوق والعهود، كما تضع حدا لآفة النسيان. وتجعل أفراد المجتمع على توافق فيما يجري بينهم من عهود ومواثيق تنتظم بها حركة حياتهم. فبالكتابة تمَّ التوافق، وتحقق التعايش، وساد التفاهم.

«فأيُّ نفع أعظمُ، وأيُّ مِرْفَقٍ أعوَنُ مِنَ الخط (...) فلذلك وضع الله عز وجَلَّ القَلمَ في المكان الرفيع، ونوَّه بذكره في المنصب الشريف حين قال: «ن والقلم وما يَسْطُرُونَ» «فأقسمَ بالقلم، كما أقسم بما يُخَطُّ بالقلم» (١/ ٤٨).

(٧) الكتابة شرطُ وجودٍ للحضارة الإنسانية

يقرر الجاحظ حاجة البشر إلى التعايش داخل مجتمعات يسودها التعاون، ويرى أن الحاجة إلى الاجتماع البشري من ضرورات الوجود البشري على الأرض. فيُقدم لنا إشارات رائدة عن حقيقة الاجتماع البشري، وضرورة التعاون لتنظيم حركة الحياة بصورة تُثري تجربة البشر على الأرض. يقول: «اعلَم - رحِمك الله تعالى - أن حاجة بعض الناس إلى بعضٍ، صفةٌ

لازمة في طبائعهم، وخِلقَة قائمة في جواهرهم، وثابتة لا تزايلهم، ومحيطة بجماعتهم، ومُشتملة على أدناهم وأقصاهم، وحاجتهم إلى ما غاب عنهم ممَّا يُعيشهم ويُحييهم، ويُمسِك بأرماقهم، ويُصلح بالَهم، ويَجمع شملهم، وإلى التعاون في دَرْك ذلك، والتَّوازر على ما يحتاجون من الارتفاق بأمورهم التي لم تغب عنهم، فحاجة الغائب موصولة بحاجة الشاهد.

وَجَعَلَ حاجتَنا إلى معرفة أخبار مَن كان قبلنا، كحاجة مَن كان قبلنا إلى أخبار مَن كان قبلهم، وحاجة مَن يكون بعدنا إلى أخبارنا؛ ولذلك تقدمت في كتب الله البِشارات بالرسل، ولم يُسخر لهم جميع خلقه، إلا وهم يحتاجون الارتقاء بجميع خلقه» (١/٤٢ – ٤٣) .

ويختصر ضرورة الاجتماع البشري بقوله: «لم يخلق الله تعالى أحداً يستطيع بلوغ حاجته بنفسه دون الاستعانة ببعض من سخَّرَ له، فأدناهم مُسَخَّرٌ لأقصاهم، وأجلُّهم مُيَسَّرٌ لأدقهم» (١/٤٣ – ٤٤).

وكيف تستمر التجربة البشرية على الأرض وتتطور إذا لم تتبلور في إطار تعاون بشري؟ فلا بد من التواصل بين تجارب البشر على الأرض، ولا بد من حصول التفاهم بين الناس لاستكمال شرط الاجتماع البشري، من هنا كانت أهمية البيان في التواصل بين الأفراد والمجتمعات البشرية. فالله تعالى – كما يرى الجاحظ - جعل البيان سببا فيما بين الخلائق، ومُعبرا عن حقائق وجودهم.

«وجعل آلة البيان التي بها يتعارفون معانيَهم، والتَّرجُمان الذي إليه يرجعون عند اختلافهم في أربعة أشياء وفي خصلة خامسة (...) وهذه الخصال هي: اللفظ، والخط، والإشارة، والعَقْد؛ والخصلة الخامسة ما أوجد من صحة الدلالة، وصدق الشهادة ووضوح البرهان...» (١/٤٥).

(٨) وتتواصل الحضارات بفضل الكتابة

فهو يرى أنه بالكتابة تصان التجربة الإنسانية من الاندثار، ويصان العلم ويُحفظ، وبها تتقدم المعارف وتترقى وتتطور، وتتواصل الحضارات. فالأسباب بين الأزمنة، كما يرى متصلة، والحبال منعقدة، ومن هنا «جعَلَ (اللّه تعالى) حاجتَنا إلى معرفة أخبار مَن كان قبلَنا، كحاجة مَن كان قبلنا إلى أخبار مَن كان قبلهم، وحاجةِ مَن يكونُ بعدنا إلى أخبارنا» (٤٣/١).

وأكَّد الجاحظ هذه الحقيقة في مجال تطور التجربة الإنسانية بقوله: «ولولا ما أودعَتْ لنا الأوائلُ في كتبها، وخلَّدتْ من عجيب حكمتها، ودوَّنتْ من أنواع سِيَرِها، حتى شاهدنا بها ما غاب عنَّا، وفتحنا بها كلَّ مُستَغلقٍ كان علينا، فجمعْنا إلى قليلِنا كثيرَهم، وأدركنا ما لم نكن نُدركُ إلاَّ بهم؛ لقد خَسَّ حظُّنا من الحكمة، ولضعُفَ سببُنا إلى المعرفة.

ولو لجأنا إلى قدْرِ قوتنا، ومبلغ خواطرنا، ومنتهى تجاربنا لما تُدركُه حواسُّنا، وتُشاهده نفوسُنا؛ لَقَلَّتْ المعرفةُ، وسقَطَتْ الهمَّةُ، وعاد الرأيُ عقيماً، والخاطرُ فاسداً، ولكَلَّ الحَدُّ، وتبلَّدَ العقلُ» (٨٥/١– ٨٦) .

وأكد هذه الحقيقة في مكان آخر من كتابه الحيوان فقال: «ولولا الكتب المدوَّنة، والأخبار المخلَّدة، والحِكم المخطوطة التي تُحصِّن الحسابَ وغيرَ الحسابِ، لبطَلَ أكثرُ العلم، ولغلب سلطانُ النسيان سلطانَ الذكرِ، ولما كان للناس مَفْزَعٌ إلى موضِع استذكار. ولو تمَّ ذلك لحُرِمنا أكثرَ النفع؛ إذ كنا قد علمنا أن مقدار حفظ الناس لعواجل حاجاتهم وأوائلها، لا يبلغ من ذلك مبلغا مذكورا، ولا يُغني فيه غَناءً محموداً. ولو كُلِّفَ عامَّةُ من يطلب العلمَ ويصطنِعُ الكتبَ، ألاَّ يزالَ حافظاً لفهرست كتبه لأعجزه ذلك، ولكُلِّفَ شطَطاً، ولشغله ذلك عن كثير مما هو أولى به. وفهمك لمعاني كلام الناس، يَنْقَطِعُ قبل انقطاع فهم عيْنِ الصوت مجرَّدا (...) فأيُّ نفعٍ أعظمُ، وأيُّ مِرْفَقٍ أعوَنُ مِنَ الخط» (٤٧/١ – ٤٨).

وهكذا يكشف الجاحظ عن أهمية الكتابة في الاجتماع البشري، وعن فعاليتها في نقل الخبرة البشرية، وتداول المعارف على امتداد التاريخ. فعن طريق الكتابة تُنشر الأخبار، وتسير في الآفاق، ويتم التواصل بين الأفراد والمجتمعات.

«ومما يدل على نفع الكتاب، أنه لولا الكتاب لم يَجُز أن يَعْلَمَ أهل الرَّقَّة والموصِل وبغدادَ وواسط، ما كان بالبصرة، وما يحدث بالكوفة في بياض يوم، حتى تكون الحادثة بالكوفة غُدوة، فتَعلَمُ بها أهلُ البصرة قبل المساء» (١/٩٦ – ٩٧).

وكأن الجاحظ يتحدث عمّا تقوم به الصحف في العصور الحديثة، وما تؤديه من وظائف الإخبار والتواصل وقضاء المصالح داخل الجماعات والأمم.

وتحدث عن المراسلات في شؤون الحياة عامة، وعن كتب النبي عليه السلام إلى كسرى وقيصر والنجاشي والمُقوقس (...) كما أشار إلى دور الحَمَام في نقل الرسائل، ونقل الهدهد لرسالة سليمان إلى ملكة سبأ. وعدد أفضال الكتاب على قارئيه، ومن ذلك أن الدِّين والدنيا يقومان عليه؛ فهو«يؤدي إلى الناس كتبَ الدين، وحساب الدواوين (١/ ٥٠)».

ولاحظ د. يوسف العش أنه «عندما شرع المسلمون في فتوحاتهم ، لم يكن معهم من الكتب المخطوطة سوى القرآن الكريم، ثم وجدوا أنفسهم على مدار هذه الفتوحات تجاه شعوب مثقفة في أيديها كتب تَسترشدُ بها في حياتها العلمية والعملية والأخلاقية على السواء؛ ما أعار الفاتحون هذه الكتب اهتمامهم باديَ الأمر، لكنهم شعروا فيما بعد بالحاجة إلى العناية بها على الطريقة التي سلكوها في الحديث الشريف والشعر والحكم والأمثال،

والتي بدأ النابهون منهم بإملائها على طلابهم»[1]. ولا يشك باحث في تاريخ الفكر العربي في القديم أن الجاحظ كانت له الريادة بفضل الآراء التي سَبق بها عصَره.

(٩) الترجمة: أهميتها وصعوبتها

وتواصل الحضارات يقتضي التفاعل بينها وانفتاح اللاحق منها على السابق؛ ممّا يستدعي قيام حركة ترجمة تنقل تجارب السابقين في مجالات المعرفة، تبَعاً لاختلاف الألسن بين الأمم والشعوب. وقضية الترجمة تعترضها خمس صعوبات يُمكن استخلاصها من كلام الجاحظ في كتابه الحيوان.

أولها:صعوبة الترجمة وتتمثل في أداء المنقول أو المُتَرجَم على خصائص معاني الأصل.

«وكيف يقدِر على أدائها وتسليم معانيها، واستعمال تصاريف ألفاظها، وتأويلات مخارجها، مثل مؤلف الكتاب وواضعه؟ فمتى كان رحمه الله تعالى ابن البطريق، وابن ناعمة، وابن قرة (...) وابن المقفع، مثل أرسطو ومتى كان خالد (بن يزيد بن معاوية) مثل أفلاطون؟!» (١/٧٦).

وثانيها: صعوبة توافر شروط المترجم الحق لأن ما يُشتَرطُ في الترجمان هو «أن يكون بيانُه في نفس الترجمة في وزن علمه في نفس المعرفة، وينبغي أن يكون أعلمَ الناس باللغة المنقولة والمنقول إليها، حتى يكون فيهما سواءً وغايةً» (١/٧٦).

فالمترجم يعترضه أمران: تجاذب اللغتين في فكره ونفسه لأنه متى تكلم بلسانين،«أدخل الضيم عليهما؛ لأن كل واحدة من اللغتين تجذِب الأخرى

١- دور الكتب العربية العامة وشبه العامة لبلاد الشام ومصر في العصر الوسيط: د. يوسف العش، ترجمه عن الفرنسية: نزار أباظة - د. محمد صباغ - ط١ (بيروت، دار الفكر، ١٩٩١)، ص ٤٢ - ٤٣.

وتأخذُ منها، وتعترض عليها». وقد قال في البيان والتبيين:«واللغتان إذا التقتا في اللسان الواحد أدخلتْ كل واحدة منها الضيمَ على صاحبتها»[1].

والمترجم له قوة واحدة لا يمكنه أن يستفرغها في وجهتين. والأمر الثاني حين يكون «الباب من العلم أعسر وأضيق، والعلماء به أقل»، وكلما كان كذلك «كان أشدَّ على المترجم، وأجدرَ أن يخطيء فيه» (١/٧٦ – ٧٧) .

أما الصعوبة الثالثة فتتمثل في مواجهة النصوص الدينية، وذلك حين يُنقَل ما يجوز على الله تعالى مما لا يجوز عليه، «ويكون ذلك معقوداً بالتوحيد»، ويدخل المُترجمُ في معترك الأساليب ليعرف العام والخاص، ويعرف ما يحتمل الصدق وما يحتمل الكذب، ويعرف المحال من الصحيح. «وأي شيء تأويل المحال؛ وهل يُسمى المحال كذباً أم لا يجوز ذلك، وأي القولين أفحش: المُحال أم الكذب، وفي أي موضع يكون المحال أفظع، والكذب أشنع، وحتى يعرف المَثَلَ والبديع، والوحي والكناية، وفصْل ما بين الخَطَل والهَذَر، والمقصور والمبسوط والاختصار، وحتى يعرف أبنيةَ الكلام، وعادات القوم، وأسباب تفاهمهم، والذي ذكرنا قليل من كثير.

ومتى لم يعرف ذلك المترجم أخطأ في تأويل كلام الدين. والخطأ في الدين أضر من الخطأ في الرياضة والصناعة، والفلسفة والكيمياء، وفي بعض المعيشة التي يعيش بها بنو آدم» (١/٧٧ – ٧٨) .

والصعوبة الرابعة: هي ما يعتري الإنسان من نقص في الإحاطة بالمعارف كلها وإلا «ما علْمُ المترجم بالدليل عن شُبه الدليل؟ وما عِلْمُهُ بالأخبار النجومية؟ وما علمُه بالحدود الخفية؟» (١/٧٨).

أما الصعوبة الخامسة: فهي صعوبة التعامل مع أثر تداولته اللغات، واختلفت عليه أقلام النُّساخ من أمم مختلفة وخطوط مختلفة، وما عِلْمُ

١– البيان والتبيين: ١/٣٦٨.

المترجم «بإصلاح سقطات الكلام، وأسقاط الناسخين للكتب؟» (٧٨/١).
فما للمترجمين علم بكل ذلك، كما هو واضح من تجربتهم.

جاء في معجم الأدباء:«وقال الجاحظ: عيوب المنطق التصحيف وسوء التأويل والخطأ في الترجمة، فالتصحيف يكون من وجوه من التخفيف والتثقيل ومن قبل الإعراب ومن تشابه صور الحروف، وسوء التأويل من الأسماء المتواطئة؛ أي أنك تجد اسماً لمعانٍ فتتأولُ على غير المراد، وكذلك سوء الترجمة»[١].

ونجد الجاحظ لا يطمئن إلى أعمال المترجمين، إن لم أقل إنه يشك في قيمة ما يُترجم، فهو يقول ساخراً ممن لا يحترم شروط الترجمة؛ أن صاحب الكتاب المترجَم «لو وجد هذا المُترجِم أن يُقيمَه على المصطبَة، ويبرَأ إلى الناس من كذبه، ومن إفساد معانيه بسوء ترجمته» (١٩/٦). فهو لا يكتفي أن يرميَه بالكذب وإفساد المعاني، بل يُقيمه على مكان مرتفع من الأرض ، قصد التشهير به !

ويدعو الجاحظ القراء أن يتنبَّهوا إلى«كذِبِ التراجمة وزياداتهم، ومن فساد الكتاب، ومن جهة تأويل الكلام، ومن جهة جهل المترجم بنقل لغة إلى لغة» (٢٨٠/٦).

وإذا كان الشعر العربي هو ديوان العرب ومستودعُ معارِفهم وتجاربهم، فكيف يستطيعُ أن يُواجه ما جدَّ في الحياة من معارف، أي كيف يُواجِه تحديات التواصل مع الأمم الأخرى؟

١- معجم الأدباء: ٢٤/١

(١٠) الشعر العربي في مواجهة التحديات

للجاحظ من الشعر العربي موقفان:

الموقف الأول: موقف اعتداد واعتزاز ومباهاة.

الشعر عند الجاحظ علم من علوم العرب، ومصدر من مصادر ضبط المعارف في تراثهم. ولا غرابة أن يتخذ من شواهده ما يستدل به على الحقائق العلمية في كتابه الحيوان. وهو يرى أن نظم الشعر على البديهة والسليقة مقصورٌ على العرب. ومن المعروف أن الجاحظ كان يُدافع عن العرب في لحظة كانت الكلمة النافذة للفُرْس في المرحلة الأولى من حياته، والترك في المرحلة الثانية منها.

واعتدادُه بالشعر العربي جَعَلَه يُعرِضُ عن أشعار الأمم الأخرى. وموقفه هذا «انعكس على طبيعة تعامله مع الشعر اليوناني الذي استشهد به أرسطو في كتابه (الحيوان). فالجاحظ يضرب صفْحاً عن كل ما ورَدَ من شواهد شعرية في كتاب أرسطو، حتى وإن نقل النص نقلا حرفيا من كتاب أرسطو (...) يتجاهل الشاهد الشعري، كما يتجاهل اسمَ الشاعر على أية حال»[١].

فإذا كان أرسطو يستعين أحيانا على تثبيت بعض الحقائق بأقوال شعراء أو حكماء يونانيين تتعلق بالبيئة اليونانية؛ فإن الجاحظ ينقل عن الأعراب وعن البيئة العربية، ويجعل من الأمثال العربية، ومن الشعر العربي عِماداً لكتابه.

الموقف الثاني: عجز ديوان العرب عن التفاعل مع الثقافات الأخرى

هل يستطيع الشعر العربي أن يظل مُستودعاً للثقافة العربية، وأن يظل ديواناً للعرب؟ هل يستطيع أن يستوعب ضروب المعرفة، وما جدَّ من معارف؟

١- منقولات الجاحظ عن أرسطو في كتاب الحيوان ، نصوص ودراسة: د. وديعة طه النجم – ط١ (الكويت، منشورات معهد المخطوطات العربية، ١٩٨٥)، ص٨٤ – ٨٥ .

هل يقوى الشعر العربي على مواجهة الثقافات الأخرى؟ يُقدم الجاحظ هنا مجموعة ملاحظات أهمها:

الملاحظة الأولى أن الشعر العربي حديث الميلاد، «صغير السن»، لا يتجاوز ميلاده مائتي عام قبل مجيء الإسلام، إذا استظهرنا بغاية الاستظهار (١/ ٧٤).

الملاحظة الثانية أن الشعر العربي من الأدب المقصور أي أن فضيلة الشعر مقصورة على العرب، وعلى من تكلم بلسان العرب (١/ ٧٥). وكأن هذا الشعرالعربي لا يسمح بالتواصل مع الشعوب الأخرى، والانفتاح على الثقافات الأخرى. فقد وجد الجاحظ أن نفعَه مقصورٌ على أهله، وكأنه يُعدُّ من الأدب المقصور الذي لا يتجاوز المجالات المعرفية لذويه؛ وهذا يجعله مشوباً بنقص في عمقه الإنساني؛ إذ لا يتحقّق من خلاله التواصل المنشود.

الملاحظة الثالثة: أن الشعر العربي «لا يُستطاعُ أن يُترجم، ولا يجوز عليه النقل؛ ومتى حُوِّل تقطَّعَ نظمُه، وبَطَلَ وزنُه، وذهب حُسنُه، وسَقَطَ موضِعُ التعجُّب، لا كالكلام المنثور. والكلام المنثور المبتدأ على ذلك أحسنُ وأوقعُ من المنثور الذي تحوَّل من موزون الشعر» (١/ ٧٥). فالجاحظ يُقِرُّ هنا بالخلل الذي يعتري بنية الشعر العربي حين يُنقل إلى لغات أخرى؛ وهذا يُعرِّضُه لمحدودية الانتشار وصعوبة الاستمرار.

الملاحظة الرابعة: لا يُمكن مواجهة الثقافات الوافدة بشعرنا العربي؛ إذ أنها تستوعبنا وتتجاوزنا، وشعرُنا إن تُرجم وحُوِّلَ تهافت. «وقد نُقلت كتُبُ الهند، وتُرجمت حِكم اليونانية، وحُوِّلت آداب الفرس، فبعضها ازداد حُسناً، وبعضُها ما انتقص شيئا، ولو حُوِّلت حِكمة العرب؛ لبَطَل ذلك المُعجز الذي هو الوزن مع أنهم لو حوَّلوها لم يجدوا في معانيها شيئا لم تذكره العجم في كتبهم، التي وُضعت لمعاشهم وفِطَنِهم وحِكَمِهم. وقد نُقلت هذه الكتب من أمة إلى أمة، ومن قرن إلى قرن، ومن لسان إلى لسان، حتى انتهت إلينا،

وكنا آخر مَن ورِثها ونظر فيها. فقد صحَّ أن الكتُبَ أبلغُ في تقييد المآثر، من البنيان والشعر»(١/ ٧٥).

إن ما يقوله الجاحظ هنا ينفي عنه كلَّ تعصب للعرب، يُمكن أن يُرمَى به. ألا يقول – وهو من أكبر العارفين بالشعر العربي– إن معاني الشعر العربي لو تُرجمت إلى لغات الأمم الأخرى لما وُجِدَ فيه شيء لم تذكره العجم؟

الملاحظة الخامسة : لا يستطيع هذا الشعر أن يستوعب ما يصطلح عليه الناس من منافع في مرافق الحياة، وليس من مقاصد الشعرووظائفه أن يُعنى بما تتطلبه الحياة من صناعات وتغييرات، وما تستوعبه من أفكار «وكل شيء في العالم من الصناعات والأرفاق والآلات، فهي موجودات في هذه الكتب دون الأشعار(...) مثل كتاب أقليدس، ومثل كتاب جالينوس، ومثل المجسطي (...) وكتب كثيرة لا تُحصى، فيها بلاغ للناس» (١/ ٨٠).

فالشعر العربي لا يُمكنه أن يُخَلِّد بمفرده مآثر العرب، والحِكمة فيه إذا حُوِّلت بطل المعجز فيه الذي هو الوزن. وما فيه من حكمة لا يختلف عما ورد في حكمة العجم. وهذا الشعر لا يُقدم كل مقومات الحضارة؛ مما يحتاجه الناس في معترك حياتهم. والعرب شأن «جميع الأمم يحتاجون إلى الحِكم في الدين، والحكم في الصناعات، وإلى كل ما أقام لهم المعاش، وبوَّب لهم أبواب الفِطن، وعرَّفهم وجوه المرافق» (١/ ٧٥).

فالشعر لا يُمكنه أن يُقدم كلَّ ما تحتاجه الشعوب في تطوراتها المادية والفكرية.

وبالرغم من قول من ينتصر للشعر ويرى صعوبة ترجمته، فإن الجاحظ يدعو ألا تظل فضيلة الشعر مقصورة على العرب؛ حتى تكون له الصيرورة والبقاء، وألا يُعتمد بمفرده في تخليد المآثر، وأن الأمة يجب أن تتجه إلى ما به تُقيم كيانها الحضاري، وإلى ما تُقيم به معاشها، وتتعرَّف به على أوجه المرافق والمصالح في الحياة، وتفتح به أبواب الفكر. ولم يكن الجاحظ

يُدافع عن الشعر العربي، كما فهم كثير من الباحثين؛ بل كان بصدد الكشف عن عيوبه للدفع بالأمة إلى مدارج الرقي ومواجهة الثقافات الوافدة. وموقفه هذا لا يتنافى مع مكانة الشعر العربي في نفسه، وعن قيمة ذلك الشعر في مجالات المعرفة. وكيف وهو عُمدته في تأليف كتاب الحيوان، وفي مجمل ما بقي من آثاره وهو القائل فيه: «وقلَّ معنىً سمعناه في باب معرفة الحيوان من الفلاسفة وقرأناه في كتب الأطباء والمتكلمين إلاَّ ونحن قد وجدناه أو قريباً منه في شعر العرب والأعراب» (٢٦٨/٣).

ولاحظ عبد السلام هارون، في مقدمة تحقيقه لكتاب الحيوان أن الكتاب موشَّحٌ بعيون ما نظم العرب والأعراب في الحيوان من شعر. «وللجاحظ ثقة تامَّة في الشعر العربي، فهو يُصدِّره في الرد على أرسطو، ويحتجُّ به عليه» (٢٠/١).

ولاحظ طه الحاجري أن الجاحظ كان رجلا مُعتدا بنفسه تجاه أرسطو؛ يعرض قدرتَه على فهم الأمور والحكم عليها حكماً دقيقاً، وهو يعتز بالثقافة العربية ويعتبرها مرجعه الأول، وعُمدته في صفة الحيوان؛ فهو يضع نفسه بإزاء أرسطو على أنه نظير له، «ويضع الثقافة العربية بإزاء المعارف التي أوردها في كتابه على أنها حُكمٌ يُحتكم إليه، ومصدرٌ أجدر بالثقة من مصادره»[1].

وما رأيُك في رجل يقول: «وقد سمعنا ما قال صاحب المنطق من قبل. وما يليق بمثله أن يُخلِّد على نفسه في الكتب شهاداتٍ لا يُحقِّقُها الامتحانُ، ولا يُعرف صدقَها أشباهُه من العلماء» (١٨٥/١).

فليس مثل الجاحظ مَن يُصاب بالشلل الفكري أمام الثقافة الوافدة، ولو كانت من فيلسوف في حجم أرسطو. أما حالُنا اليوم فإننا نطأطئ بفكرنا لمن هم دون أرسطو بملايين الأميال، ولا نخجل. وأنَّى لنا أن نتعلَّمَ من

١- الجاحظ حياته وآثاره: د.طه الحاجري ، ص٤١٩.

الجاحظ كيف نتفتَّح على ثقافة الآخر، دون أن نكون مقلدين لها، خاضعين لمقولاتها لدرجة تتشكل منها ذاكرتُنا.

لقد حَظِيَ الكتابُ بأهمية خاصة في مرحلة شهدت انصهار الأجناس والثقافات داخل الكيان الإسلامي العربي، وكانت مرحلة تفجّرت فيها المعارف وتعمقت، واتسعت وامتدت، ودعت الحاجة إلى تدوينها وحفظها وضبطها، وتهيأت وسائل الكتابة في الحواضر العباسية؛ فكان الانتقال من شيوع المشافهة في التواصل إلى شيوع الكتابة وانتشارها. فعبَّر الكِتَاب بحضوره عمّا حدث من تحولات، ونقل أصداءَها في المجال التداولي الإسلامي العربي. وساعد على انتشاره «رخص ثمنه، ومكان وجوده» (١/٤٢) وبهذا خرجت الثقافة العربية من المحلية إلى العالمية فاخترقت الأصقاع والأجناس. وهكذا كشف الجاحظ أهمية الانتقال من المرحلة الشفهية إلى طور الكتابة داخل معترك الثقافة الإسلامية العربية خلال مرحلة تدوين التراث الإسلامي.



المبحث الثالث

العلم والمعرفة عند الجاحظ

تمهيد:

إن الجاحظ وإن لم يُصنَّف في خانة العلماء أهل الاختصاص؛ فإنه تميز بكثير من صفات العلماء؛ لما تحَقَّقَ في آثاره من فضول علمي ومن اعتماد الملاحظة والتجربة والشك المنهجي، وما أتى به من آراء علمية شهد له التاريخ بصحتها. ومن كتب الجاحظ؛ التي لها اتصال بالعلم، ذكر له ياقوت الحموي (٦٢٦هـ): كتاب المعرفة، كتاب مسائل المعرفة، كتاب جوابات كتاب المعرفة، وكتاب فضل العلم، وكتاب أُحدوثة العالم[١]، وحقق له شارل بيلا رسالة بعنوان ذم العلوم ومدحها (مجلة المشرق، بيروت، المجلد ٥٥، ١٩٥٦، ص٧٠ – ٧٨)[٢].

وللجاحظ آراء تتعلق بنظرية المعرفة نجدها مبثوثة في آثاره. فهو يؤمن بالترقِّي في آفاق العلم، والتنامي في تطور المعارف، ويدعو إلى التحرُّر من المألوف، وفتح أبواب التجديد، وهو القائل في رسالة الوكلاء: «وقد قالوا: ما يَستعمِلُ الناسُ كلمةً أضرَّ بالعلم والعلماء، ولا أضر بالخاصة والعامة، من قولهم: «ما ترك الأول للآخر شيئا»[٣].

(١) العلم ضرورة وجود كالماء بالنسبة للكائن الحي

العلم عند الجاحظ أساس الوجود الإنساني على الأرض، لا تقوم حياة بدونه؛ فهو كالماء لا يُمكن الاستغناء عنه. قال في كتاب الفتيا: «والعلم وإن كان حياة العقل، كما أن العقل حياة الروح، والروح حياة البدن، فإن حُكمَه حكمُ الماء وجميع الغذاء، الذي إذا فَضَلَ عن مقدار الحاجة عاد ذلك ضرراً. وإنما يَسُوغُ الشراب، ويُستمرَأُ الطعام الأولَ فالأولَ. فكذلك العلم يجري مجراه، ويذهب مذهبه»[٤].

١- معجم الأدباء: ٢١١٨/٥ – ٢١١٩.

٢- ذخائر التراث العربي الإسلامي: عبد الجبار عبد الرحمن:٤١٤/١ (ولم أتمكن من الاطلاع على هذه الرسالة).

٣- رسالة الوكلاء : ١٠٣/٤.

٤- كتاب الفتيا :٣١٨/١.

ولكن أي علم؟ إنه العلم الذي يستجيب لمنهج اللّه، وتستقيم به حركة الحياة. قال في البرصان والعرجان والعُميان والحُولان: «وليَكُنْ أحَبُّ العلم إليك أطوَعه للّه، فإن لم تَفْعَلْ فأكْسَبُهُ للحال الجميلة»[1].

ويبدو أن عِلْمنا حاد عن منهج اللّه، وأن العلم في العصور الحديثة لم تُكتسَبُ منه الحال الجميلة. والجاحظ يُلِحّ على ضرورة التثبت في طلب الحقيقة؛ لأن العلم ينشد الحقيقة عنده لتستقيم حركة الحياة. فهو يدعو أن يكون الحق هو ضالة الإنسان، وأن يكون الصدق بغيته.

(٢) العلم تضحية: لا يُعطيك خالص الحكمة حتى تُعطيَه خالص المحبة

أحب الجاحظ العلم لذاته، وتفانى في حبه وطلبه، وأدرك أن العلم لا يستجيب إلا لمن عانى في طلبه، ومنحه خالص حبه، وبذل من أجله كل ما في وُسعه، ووضعه من نفسه موضعاً كريما شريفاً.

قال في رسالة التربيع والتدوير «العلم لا يجود بمكنونه، ولا يسمح بسره ومخزونه، إلا لمن رغب فيه لكرم عنصره، وفضَّله لحقيقة جوهره، ورفَعَه عن التكسب، وصانه عن التبذل، وأنه لا يُعطيك خالص الحكمة حتى تُعطيَه خالص المحبة»[2].

وروى الجاحظ عن بعضهم قولَه: «إنَّ العلمَ لَيُعطيكُم على حسابِ ما تُعطونه، ولو استطعتُ أن أودعَه سُوَيْداءَ قلبي، أو أجعَلَه محفوظاً على ناظري، لفعلْتُ» (١٦١).

١- البرصان والعرجان والعُميان والحُولان، تحقيق: عبد السلام هارون، ص٣٤.

٢- التربيع والتدوير (ضمن رسائل الجاحظ): ٣/ ١٠٥.

(٣) صيانة العلم في نَشره

من المُقرّر في حضارة الإسلام أن حَمْلَ العلم أمانةٌ تؤَدَّى إلى مَن يَستَحِثُّ همَّتَه في طلَبِها. وأداءُ أمانةِ العلم تبليغُها عَن طريق التدريس والتأليف. والجاحظ يرى أن صيانته لا تتحققَ إلاَّ بِبذْله وتبليغه ونشره بين الناس. «فلن يُصانَ العلمُ بمثل بذله، ولن تُستَبْقى النعمةُ فيه بمثل نشره» (١/ ٨٤) [١].

وقبل بذلِ العلم ونشره لا بد من بذل الجهد في تحصيله، وإقامته على أسس صحيحة، ومنطلقات سليمة. يقول الجاحظ في مقدمة كتابه البُرصان والعُرجان والعُميان والحُولان: «فاطلب العلمَ على تنزيل المراتب، وعلى ترتيب المقدمات، ولَيكنْ لتدبيرِكَ نِطاقٌ، فإنَّهُ أمانٌ من الخطأ، ولِلَّذي تعتقدُ رِباطٌ فإنَّه لا بد للبُنْيانِ من قواعد» [٢]. فلا بد من تحديد الأسس المعرفية والمنطلقات المنهجية في بناء كل معرفة؛ لمحاصرة نطاق الفكر بواسطتها، وتحقيق الصواب أو وِجهة النظر بها.

(٤) البدء في العلم بما تتعلق به الهِمَّة، وتهفو إليه النفس

تنبَّه الجاحظ إلى ضرورة خُلوص المحبة للعلم، وإلى ضرورة التدرج في طلبه، وإلى ما ينبغي أن يَبدأ به طالب العلم، وما يختاره من صنوفه، وإلى ضرورة الاستعداد النفسي للإقبال عليه بحيوية ونشاط؛ وذلك لا يكون إلاَّ بالعناية بما تتطلع إليه النفس، وتهتزله، وقال: «وخصلة ينبغي أن تَعْرِفَها وتَقِفَ عندها، وهو أن تبدأ من العلم بالمهم، وتختار من صنوفه ما أنت أنشط له، والطبيعة به أعنى؛ فإن القبول على قدر النشاط، والبلوغَ فيه على قدر العناية» [٣].

وكيف يكون الإقبال على علم الكلام – وهو أحد أعلامه – يشترط الجاحظ

١– وعبارته في كتاب الفتيا: « ولم يُصَنِ العلمُ بمثل بذله، ولم يُستَبْقَ بمثل نشره» :١/ ٣١٥.

٢– البُرصان والعُرجان والعُميان والحُولان: ص٣٤ .

٣– نفسه: ١/١٠٥ – ١٠٦.

«النظر في الكلام بعقل صحيح، وقريحة جيدة، وطبيعة مناسبة، وعناية تامة، وأعوانِ صدق، وقلة شواغل، وشهوة العلم، ويقين بالإصابة»[1].

والإقبال على العلم يحتاج من صاحبه إلى رغبة في العلم ذاته، وأن يتسم صاحبُه بالحيوية والنشاط في تحصيله دون أن يتخذه وسيلة للكسب. يقول: «وليس مَن نظَرَ في العلم على الرغبة والشهوة له كمن نظر فيه على المكسبة به والهرَب إليه؛ لأنَّ النفسَ لا تُسمِحُ بكل قواها إلاَّ مع النشاط والشهوة، وهي في ذلك لنفسها مُستكرِهة ولها مُكابِدة. والسآمة إلى مَن كانت هذه صفَتَه أقربُ، وإليه ألزمُ»[2].

وما قدَّمه الجاحظ هنا يُعدُّ من الشروط التي يحتاج إليها طالب العلم عامة.

(٥) العالم يظل في صورة متعلم

لما كان العلم مِمَّا يُحَبُّ ويُشتهى ويُطلَبُ من المهد إلى اللحد، وأنه لا يُمكن الإحاطة بمجالاته؛ فإن طالب العلم يظل مُتعلماً أبدا. ومتى أحسَّ المرءُ أنه أصبح عالما، فإن الغرور يُدَمِّرُ ما عنده من علم. فالعالم الحق مَن ظلَّ طيلة حياته في صورة مُتعلِّم؛ لا يَمَل السؤال والبحثَ وتلك حالة العلماء في تاريخنا الثقافي. ولا يُختَبَرُ تَعلُّقُ العالم بعلمه إلاَّ أن تراه في صورةَ مُتعلِّم؛ لا يفتُر عن ذكر قول الله تعالى:(وقلْ رَبِّي زِدني علم) . ويروي الجاحظ عن شيخه أبي إسحاق النظام (إبراهيم بن سيار ٢٣١هـ) قولَه: «إذا أردت أن تعرف مقدار الرجل العالم، وفي أي طبقة هو، وأردت أن تُدخل الكور(مجمرة الحداد المبنية من الطين) ليظهر لك فيه الصحةُ من الفساد، أو مقدارُه من الصحة والفساد، فكُنْ عالماً في صورة متعلم، ثم اسأل سؤالَ مَن يطمع في بلوغ حاجته منه» (٣٦/٢).

١- مجلة المورد، العدد الخاص بالجاحظ، ص٢١٩ .

٢- رسالة في نفي التشبيه :٢٩٦/١.

ونجد الجاحظ يدعو لِمَن يكتُبُ له، بقوله:«لا زلتَ في عِداد مَن يسأل ويبحثُ، ولا زِلْنا في محل مَن يَشرح ويُوضِّح»[1].

(٦) حاجة العقل إلى الشحذ والتعهد

وليظل العالم في صورة متعلم، يَطلبُ العلم ولا يفتر عن السؤال؛ لا بد أن يتعهَّد عقله بالمراقبة والشحذ، وألاَّ يغفل عنه فيحيق به التغير والتحيُّر والتيه، فيتسبَّبُ ذلك في ضياع صاحبه. يقول الجاحظ: «والعقل – حفظك الله – أطولُ رقدةً من العين، وأحوج إلى الشحذ من السيف، وأفقر إلى التعاهد، وأسرع إلى التغير، وأدواؤه أقتل، وأطباؤه أقل. فمن تداركه قبل التفاقم أدرك أكبر حاجته، ومن رامه بعد التفاقم لم يُدركْ شيئاً من حاجته» [2].

فالجاحظ هنا يُنبه إلى ضرورة رعاية العقل من الأمراض؛ لأن أطباءه قليلون، وإذا تفاقمت أدواؤه، عزَّ دواؤه ، فأصبح صاحبهُ عاجزاً، أقرب إلى الموت منه إلى الحياة. والجاحظ يحتكم في مواجهة الحقائق إلى نزعته العقلية التي وجَّهت مسارَه الفكري؛ فجعلته ميَّالاً إلى الواقعية، عدوا للخرافة، مُحبا لحرية الرأي. وهي نزعة طبعت آثاره، ولعل هذا ما أدركه ابن العميد حين قال عن آثار الجاحظ: «كتب الجاحظ تُعلِّمُ العقلَ أولاً والأدب ثانياً»[3].

ولا تزدهر الأفكار في مجالات المعرفة – في تصور الجاحظ – إلاَّ بصحة عقل ومنهج؛ إذ امتلاك المنهج في العلم ضرورة. يقول: «ومن أكبر أسباب العلم كثرةُ الخواطر، ثم معرفة وجوه المطالب، ثم في الخواطر الغثُّ والسمين، والفاسد والصحيح، والمُسرع إليك والبطيء عنك، والدقيق الذي لا يكاد يُفهَم، والجليل الذي لا يَلقَى الفهمَ (...) وللمطالب طرق،

١- البصائر والذخائر، تحقيق: د. وداد القاضي:١٦٧/٨.

٢- التربيع والتدوير: ١٠٤/١ – ١٠٥.

٣- معجم الأدباء :٢١١٧/٥

ولدرْك الحقائق أبواب فمَن أخطأها وانتظر كان أسوأ حالا مِمَّن لم يُخطئها ولم ينتظر. وعلى قدر صحة العقل يصح الخاطر، وعلى قدر التفرغ يكون التنبه»[1].

ونسب الجاحظ إلى الهنود قولهم: «ما من شيء كثُر إلا رخُص ما خلا العقل فإنه كلما كثر غلا»[2].

والجاحظ – كما قال شارل بيلا – «معتزلي عاشرً أهل الاعتزال وذهب مذهبهم فتعلم استعمال العقل وكيفية تحكيمه في أحوال الحياة قبل أن يُعلمه غيره»[3].

(٧) الإقبال على أصناف العلوم يختلف باختلاف القاصدين إليها

تتنوع العلوم ويتنوَّعُ الإقبال عليها في العادة؛ فتتجاذب النفوس مع علوم دون أخرى. ويرى الجاحظ أن من تعوَّد على التنقيب في مجالات المعرفة، وألِف البحثَ والتفكير فيها، وكان له المِراس والجرأة على اقتحام مجاهلها؛ استطاع أن يُقبل على صنوف المعرفة دون ملَلٍ أو كَلَلٍ. والنفوس البشرية تنشد التغيير. ولكن هذا لا يَعني الإحاطة بضروب المعرفة.

يقول في كتاب مفاخر الجواري والغلمان: «إن لكل نوع من العلم أهلاً يَقصدونه ويُؤثرونه، وأصناف العلم لا تُحصى، منها الجزل ومنها السخيف(...). ومن كان صاحب علم مُمَرَّناً موَقَّحاً، إلْفَ تفكير وتنقيب ودراسة، وحِلْفَ تبيُّن، وكان ذلك عادة، لم يَضره النظر في كل فن من الجد والهزل؛ ليخرج بذلك من شكل إلى شكل. فإن الأسماع قد تمل الأصوات المُطربة، والأوتار الفصيحة، والأغانيَّ الحسنة، إذا طال ذلك عليها (...).

١- التربيع والتدوير: ٣/ ١٠٤.

٢- كتاب التبصرة بالتجارة: الجاحظ ، تحقيق : حسن حسني عبد الوهاب- ط٣ القاهرة، مكتبة الخانجي، (١٩٩٤)، ص٩.

٣- الجاحظ: شارل بيلا ، ترجمة: د. إبراهيم الكيلاني، ص ٣٧٨.

وقد روي عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال: «العلم أكثرُ مِن أن يُحصى ، فخذوا من كل شيء أحسنَه» [١]. ونفْسُ طالب العلم لا تقبَلُ إلاّ ما كان قريباً منها، خفيفاً عليها؛ وإلاّ زهِدَ في الطلب. ويدعو الجاحظ أن يكون الدرس خفيفاً على النفس، قريباً منها. يقول: «ومتى ثقُلَ الدرسُ تثاقلت النفسُ، وتقاعست الطبيعةُ. وإذا تطاول الكدُّ رسَخَ الزهدُ. وفي ترك النظر عمى البَصَر، وفي إهمال الطبيعة كَلالُ حدِّ الطبيعة» [٢].

ويقول في كتاب الفتيا: ومن شأن النفوس الملالة لما طال عليها، وكثُر عندها» [٣].

ولا يخفى ما في أقوال الجاحظ من أمور تتعلق بشؤون التربية وتعليم النشء. فهو من رواد هذا الشأن في الثقافة العربية.

ويبدو أن الجاحظ أقبل على أصناف العلوم يأخذُ منها ما يتفِقُ مع ميوله، ورغبته في المعرفة. ويذكر شارل بيلا أن الجاحظ اكتسب «من العلوم والمعارف ومعانيَ الأدب ما زهَّدَه في التخصص، وحال دون اندماجه في طبقة معينة من طبقات العلماء كالمحدثين والفقهاء والنحويين وغيرهم، فاقتصر على ناحية ضيقة من العلم، وكان التخصص الصرف نادرا في البصرة» [٤].

ولاحظ الجاحظ، وهو المثقف الموسوعي، استحالة أن يُحيط الإنسان بضروب من المعرفة، فقال: «ومَن أراد أن يعلَم كلَّ شيء، فينبغي لأهله أن يُداووه! فإن ذلك إنما تَصوَّرَ له بشيء اعتراه !! فمَن كان حافظاً ذكيا فلْيقصِد إلى شيئين، وإلى ثلاثة أشياء، ولا ينزع عن الدرس والمطارحة،

١- مفاخر الجواري والغلمان :٢/٩١ .

٢- رسالة في الجد والهزل :١/٢٥٠ .

٣- كتاب الفتيا :١/٣١٨ .

٤- الجاحظ في البصرة وبغداد وسامراء : شارل بيلا ، ترجمة د. إبراهيم الكيلاني– ط١ (دمشق، دار الفكر، ١٩٨٥)، ص ٣٧٧ .

ولا يَدَعُ أن يمرَّعلى سمعه وعلى بصره وعلى ذهنه، ما قدَر عليه من سائر الأصناف؛ فيكون عالماً بخواص، ويكون غير غافل من سائر ما يجري فيه الناس ويخوضون فيه» (١/٥٩ – ٦٠). فكأن الجاحظ هنا لا يدعو إلى التخصص الضيق، ولا يترك للنفس أن تتوهم أن تُحيط بكل شيء علماً ويدعو المتعلم إلى طلب العلم والاستزادة منه، وألا ينزِع عن الدرس والمطارحة، أي عن المشاركة الفعلية في معترك الثقافة، وأن يكون صاحب إلمام بما يصل إليه من سائر أصناف المعرفة.

(٨) لا تتأتَّى الإحاطة بضروب العلم؛ إذ العلم أوسع من أن يُحاط به:

يقول في رسالة كتمان السر وحفظ اللسان «وأما العلم فإنه أوسع من أن يُحاط به، فمن طلبه لشرفه وفخره فإنه لا حَدَّ له ولا نهاية، ولم يزدد له طلبا إلا ازداد فيه رغبة. ومَن طلب فيه مقدار كفايته كفاه منه اليسير. على أنه لا يملك من كثر علمه أن يرى فيه الغنى والكبرياء أيضا. وقد يُمل كما يُمل كلُّ شيء. وتمل العين أيضا منه ومن المال. وقيل اثنان منهومان: طالب علم وطالب دنيا. وهذه القضية تدل على الخروج على العقل؛ لأن النَّهَمَ تَجاوُزُ القدر»[١].

والعلم لا يُحاط به: «لأن الإنسان، وإن أُضيفَ إلى الكمال وعُرف بالبراعة، وغَمَر العلماء؛ فإنه لا يكمُل أن يُحيط علمُه بكل ما في جناح بعوضة، أيام الدنيا، ولو استمدَّ بقوة كل نَظَّار حكيم، واستعار حفْظَ كل بحَّاث واعٍ، وكلِّ نقَّابٍ في البلاد، ودرَّسة للكتب ... وإنما علّم الله كَلَّ طبقة من خلقهً بقدر احتمالِ فِطَرِهم، ومِقداراً مَصلحتهم» (٥/٢٠٠ – ٢٠١).

(٩) إحكام الأصول قبل الفروع :

يدعو الجاحظ إلى إحكام الأصول في المعرفة، بدل الانشغال بالقضايا الجزئية، والموضوعات السخيفة التي تشغل أوقات أهل الفراغ. يقول في البرصان والعرجان: «ولا تلتمس الفروع إلا بعد إحكام الأصول، ولا تنظر

١– رسالة كتمان السر وحفظ اللسان: ١/١٥٧ .

في الطُّرَف والغرائب، وتُؤْثِر روايةَ المُلَح والنوادر، وكلَّ ما خفَّ على قلوب وراقَ أسماع الأغمار، إلا بعد إقامة العمود، والبَصَر بما يُثلِم من ذلك العمود (...).

وناسٌ من أصحاب الفُتيا، نظروا في العَيْن(الذهب) والدِّين قبل أن يَرَوْا الاختلاف في طلاق السنة.

وناسٌ من أهل الكلام نظروا في الجزْء والطفرة والمداخلة والمحاورة، قبل أن ينظروا في التوحيد والعدل والآجال والأرزاق.

وسئل بعضُ العلماء عن بعض أهل البلدان، فقال: أبحث الناس عن صغير وأتركُهُم لكبير. وسُئل عن بعض الفقهاء فقال: أعلمُ الناس بما لم يكن، وأجهلُهم بما كان»[1].

والجاحظ يدعو أن تُعتمد أصول المعارف التي هي الأسس في فهم كليات الوجود؛ لأنها هي الثوابت والمنطلقات في كل تفكير علمي. ففي كتاب الحيوان أن حفص بن غياث سئل عن فقه أبي حنيفة فقال: كان أجهل الناس بما يكون وأعرفهم بما لا يكون (٣/١٩).

فالعالِمُ عند الجاحظ مَن أحْكَمَ أصول المعرفة، وأقام عمودها، ولم ينشغل عنها بالتماس الفروع، وإيثار الطرائف والنوادر والغرائب؛ ممّا يُعرض طالب العلم إلى السقوط والانهيار.

(١٠) حَمْلُ العلم مسؤولية يُحاسَبُ عليها العالم:

لقد أضاعت الإنسانية العلم النافع في العصور الحديثة حينما صرفت جهودها فيما يقوم عليه دمار الإنسان. فالعلم هِبةٌ من الله تعالى ينبغي أن تُصرَف فيما ينفعُ الناس، وما يمكث في الأرض، أي أن توضَعَ نتائجُ العلوم مواضع النفع في الدين والدنيا. فالعلم مسؤوليةٌ تحمُّلُها في أدائها، وأداء

١- البرصان والعرجان، ص٣٠ – شرح هارون المداخلة كالآتي: مقالة كلامية لقوم زعموا أن الألوان، والطُّعوم، والروائح، والأصوات، والخواطر؛ أجسامٌ، وأن تلك الأجسام بزعمهم تتداخل في حيّز واحد، هامش ص٢٩ – ٣٠ .

العلم صرْفُه في وجوه النفع، لا في وجوه الشر والمعصية، وعدمُ تعطيله عن تبليغ رسالته. يقول في رسالة كتمان السر وحفظ اللسان: «ولا شيءَ أعجب من أن المنطق (تبليغ العلم) أحد مواهب الله العظام، ونِعَمه الجِسام، وأن صاحبَها مسؤولٌ عنها، ومُحَاسَبٌ على ما خُوِّلَ منها، أَوْجَبَ اللّهُ عليه استعمالَها في ذكره وطاعته، والقيامَ بقسْطِه وحُجَّته، ووَضْعَها مواضِعَ النفْع في الدنيا والدين، والإنفاق منها بالمعروف لفْظَةً لفظةً، وصَرْفَها عن أضدَادها. فلم يرْضَ الإنسانُ أن عطَّلَها عما خُلقتْ له مما ينفَعُه حتى استعملها في ضدِّ ذلك مما يَضُرُّه، فاجتمع عليه الإثْمانِ اللذان اجتمعا على صاحب المال الذي كَنَزَهُ ومَنَعَه من حقِّه، فوَجَبَ عليه إثْمُ المَنْع وإن كان لم يَصْرِفْه في معصية، ثم صَرفُه في أبواب الباطل والفِسْق فوجب عليه إثْمُ الإنفاق فيها. وهذه غاية الغَبْنِ والخُسران»[1].

هذا كلام نفيسٌ يُذكِّرُنا بمجموعة حقائق: - العلم موهِبَةٌ ونِعمةٌ — وهو مسؤوليةٌ يُحاسَبُ عليها مَن خوَّلها الله إياه — وجوب استعمال العِلم في طاعة الله — وضْعُه مواضع النَّفْع في الدين والدنيا — العلمُ وَهبُه الله تعالى ليُنفَق منه وتخرجَ زكاتُه، لا أن يُكنَزَ ويُمنَعَ من طالِبيه — ثم هو لا يُصرَف إلاّ فيما ينفع.

وذهب الجاحظ إلى أن العلم ينبغي أن يُتبادل بين المتعلمين، فيتولى قليل العلم تعليمَ مَن هو أقل منه معرفةً. يقول الجاحظ : «لا ينبغي لمن قلَّ علمُه أن يدَعَ تعليم مَن هو أقلُّ منه علما» (٦/٣٢).

(١١) العصبية في العلم انسدادٌ في الأفق

أقام الجاحظ معرفته التي سطرها في كتبه ورسائله على منهج وطريقة في الجدل لا تعرفان التعصب. ومن خلالها دافع عن هوية الأمة التي ينتمي إليها في المعترك الحضاري. واستنكر الجاحظ انسداد الأفق الذي يُؤدي إليه التعصب، ووجد أن الناس قد«انتظموا معانيَ الفساد أجمع، وبلغوا غايات

١- رسالة كتمان السر وحفظ اللسان:١٤٢/١ .

البِدع، ثم قَرَنوا العصبية التي هلك بها عالم بعد عالم، والحمية التي لا تُبقي ديناً إلا أفسدته، ولا دنيا إلا أهلكتها، وهو ما صارت إليه العجم من مذهب الشعوبية، وما قد صار إليه الموالي من الفخر على العجم والعرب»[1].

ويدعو الجاحظ إلى اعتماد الحجة في الدفاع عن الرأي، واستيعاب وِجهات النظر الأخرى، قبل مناقشتها؛ حفاظاً على النزاهة الفكرية، وصيانةً للموضوعية، وهو يشترط أن يكون الشاهد في الكتاب حاضراً، والبرهان على ما يدعيه المدعي قائماً، وهو القائل لمن جهل شرط الموضوعية فيما أتى به في بعض كتبه. «بَهَرَكَ ما سمِعْتَ، وملأتَ صدرَكَ الذي قرأتَ، وأبعلَكَ وأبطرَكَ ، فلم تتجِّه للحجة وهي لك مُعَرَّضَة، ولم تعرف المقاتل وهي لك بادية، ولم تعرف المصادر إذا جهِلتَ الموارد (...) ورأيْتَ أن إرسالَ اللسان أحضَرُ لذَّةً، وأبعَدُ مِن النَّصَب، ومن إطالة الفكرة، ومن الاختلاف إلى أرباب هذه الصناعة» (١٢/١).

والعالم وإن ظلَّ يستزيد من العلم مدى حياته؛ فإنّ هذا لا يمنحه القدرة أن يُجيب عن كلِّ ما يُسألُ عنه، فما يكون له أن يدعيَ الإحاطة بالعلم، وعمر طلبه قصير، والنسيان ممّا يعتري الإنسان. جاء في معجم الأدباء: «وقال الجاحظ: «واعلم أن مذاكرةَ العلم عوْنٌ على أدائه وزيادةٌ في الفهم، ولا بد للعالم من جهْلٍ أي أن يَجهَلَ كثيراً مما يُسأَلُ عنه؛ إما لأنه ما سمِعَه أو نسِيَه»[2].

(١٢) الحقُّ هو ضالة العلِم

يرسم لنا الجاحظ المنهج في استقبال ما يُعرَضُ على أسماعنا من أخبار وروايات؛ ماذا نُكذِّبُ منها وماذا نُصدِّق؟ كيف نتبيَّنُ الحقائق ولا ننساق مع الأكاذيب والغرائب؟ يقول: «والحقُّ الذي أمرَ الله تعالى به ورغَّبَ فيه، وحثَّ

١- رسائل الجاحظ،: ٢٠/٢

٢- معجم الأدباء: ١ /٢٤ .

عليه؛ أن نُنكِرَ من الخبر ضربيْن: أحدهما ما تناقضَ واستحالَ، والآخر ما امتنعَ في الطبيعة، وخرج من طاقة الخِلْقة. فإذا خرج الخبرُ من هذين البابين، وجرى عليه حكمُ الجواز، فالتدبير في ذلك التثبت، وأن يكون الحقُّ في ذلك هو ضالَّتُكَ، والصّدقُ هو بُغيَتُك، كائناً ما كان، وقعَ منك بالموافقة، أو وقع منك بالمكروه. ومتى لم تعلم أن ثوابَ الحق وثمرةَ الصدق أجدى عليك من تلك الموافقة لم تَقَعْ على أن تُعطيَ التثبُّتَ حقَّه» (٣/٢٣٨–٢٣٩).

(١٣) الالتزام بالحقيقة والبعد عن التلون

وممّا يُفسد تداوُلَ العلم بين أهله أن يركب المتحاورون فيه اللجاج والتزيُّد والتكلُّف، وذلك لا يكون إلاَّ من ضَعف وعجز؛ فحين لا يتمكَّنُ بعضُ الناس من العلم الصحيح، يلجأ أهل النفوس الضعيفة منهم إلى المُهاترات والمماحكات اللفظية. يقول في البُرصان والعرجان: «وأنا أحذِّرُك اللجاجَ والتَّتايُع (الوقوع في الشر)، وأرغبُ إلى الله في السلامة من التلون والتزيُّد، وفي الاستطراف والتكلُّف، فإن اللجاج لا يكون إلاَّ من خَلَل القوة، وإلا من نُقصان قد دخل على التمكين(...) ولا يكون إلاَّ والعُقدة منحَلَّة والنفس منقوصة»[1].

والجاحظ لا يَرضى لأهل العلم أن يكونوا بهذه الصفات، في تبادل العلوم والمعارف، ولا أن ينهجوا هذه الأساليب في الحوار والمذاكرات العلمية.

والتأليف مسؤولية اتجاه الآخرين واتجاه الذات، قبل ذلك. يقول: «وقد رأينا أقواما يدَّعون في كتبهم الغرائبَ الكثيرة، والأمور البديعة، ويُخاطرون من أجل ذلك بمروءاتهم، ويُعرِّضون أقدرَهم، ويُسلِّطون السُّفهاء على أعراضهم، ويجترون (يجرُّون) سوء الظن إلى أخبارهم «(١٣/٦).

١– البُرصان والعرجان، ص٣١ .

(١٤) العلم يقوم على قوة الاستنباط وجودة الحفظ

يدعو الجاحظ طالب العلم إلى إعمال فكره، وأن تكون له ملكة الاستنباط، وأن لا يكتفيَ بالحفظ فيُعطل عقلَه. «ولأن مُستعمل الحفظ لا يكون إلا مُقلِّداً، والاستنباط هو الذي يُفضي بصاحبه إلى برد اليقين، وعز الثقة. والقضية الصحيحة والحُكم المحمود: أنه متى أدامَ الحفظَ أضرَّ ذلك بالاستنباط، ومتى أدام الاستنباط أضر ذلك بالحفظ، وإن كان الحِفْظُ أشرَفَ منزلةً منه. ومتى أهمل النظرَ لم تُسرع إليه المعاني، ومتى أهمل الحفظَ لم تعلَقْ بقلبه، وقَلَّ مُكثُها في صدره»[1].

ولكل من إعمال الفكر وجودة الحفظ موضع خاص به ووقت مناسب له. وذهب الجاحظ إلى أن الوقت المناسب للاستنباط وجودة الحِفظ هو الفترة الفاصلة بين نهاية شغل النهار ونهاية راحة النوم؛ فجعل الوقت ساعات الأسحار«دون سائر الأوقات؛ لأن ذلك الوقت قبل وقت الاشتغال، وبِعَقِب تَمام الراحة والجَمام (الراحة)»[2].

(١٥) حذق اللغة أساس العلم

لقد أدرك الجاحظ بعقله الثاقب في محيطه الثقافي أن المعرفة باللغة العربية هي آلة العلم، وأن الجهل بأساليب العربية يقود إلى سوء الفهم وفساد العقيدة. فهو يرى أن للعرب أمثالاً واشتقاقات وأبنيةً، و«من لم يعرفها جهِلَ تأويلَ الكتاب والسنة، والشاهد والمثل، فإذا نظر في الكلام وفي ضروب العلم، وليس من أهل هذا الشأن، هلَكَ وأهلكَ» (١/١٠٣ –١٠٤).

١– فصل من صدر كتابه في المعلمين: ٣/٢٩– ٣٠ .

٢– نفسه: ٣/٣٠ .

(١٦) إحساس الجاحظ بازدهار مرحلته

عادة ما يتأفّفُ العلماء من تراجع العلم في زمانهم، ويشكون من تنكُّب طرُق طلبه؛ غير أن الجاحظ نجده يفخر بازدهار العلم في زمانه، وشيوع الحرية فيه، فيقول: «فما يَنتظر العالمُ بإظهار ما عنده؟ وما يمنَعُ الناصرَ للحق من القيام بما يلزَمُه؟ وقد أُمكِنَ القولُ، وصلَح الدهرُ، وخوى نجمُ التَّقِيَّة، وهبَّت ريحُ العلماء، وكَسدَ العِيّ والجهلُ، وقامت سوق البيان والعلم» (١/٨٦–٨٧).

(١٧) غاية العلم الاعتبار

ليس هناك من وسيلة للاعتبار والتدبر إلا وسيلة العلم، وحين يتوقَّف البحث العلمي في مسار البشرية؛ تتوقف العبرة في الوجود. وكل علم لا يهتمُّ بالعِبرة منه، فهو علم في غير مصلحة البشرية. يقول الجاحظ: «ومَن قلَّ اعتبارُه قلَّ علمُه، ومَن قلَّ علمُه قلّ فضلُه، ومَن قلّ فضلُه كثُر نقصُه،، ومَن قل علمُه وفضلُه وكثُر نقصُه لم يُحمَد على خير أتاه، ولم يُذم على شر جناه، ولم يجد طعْمَ الجد، ولا سرورَ الظَّفَر، ولا رَوْحَ الرجاء، ولا برْد اليقين، ولا راحة الأمن»[١] .

فطعم العز لا يُذاق في الأرض لمن اختار غباوة البهائم، على حد قول الجاحظ، و«لم يُعطَ الآلة التي بها يستطيع التفرقة بين ما له وما عليه، والعلم بمصالحه ومفاسده، فيَقوَى بها على عصيان طبائعه، ومخالفة شهواته، وبها يعرف عواقب الأمور، وما تأتي به الدهور، وفضل لذة القلب على لذة البدن. وإن سرور الجاهل لا يحسُن في جنْب سرور العالم، وإن لذة البهائم لا تعْشُرُ (تبلُغ عُشْرَها) لذةَ الحكيم العالم»[٢].

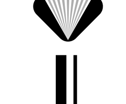
١– حجج النبوة : ٣/٢٣٦

٢– نفسه: ٢٣٦ – ٢٣٧

يدعو الجاحظ إلى ضرورة اتساع المعرفة، وإلى ضرورة العلم بالله وحده. «وهذا كلُّه لا يُنالُ إلا بغريزة العقل. على أن الغريزة لا تَنالُ ذلك بنفسها، بما باشرته حواسُّها، دون النظر والتفكُّر، والبحث والتصفُّح»[1].

إن ما أتى به الجاحظ في موضوع أهمية العلم وضرورة المعرفة مما لا يسعه هذا الحيز، ويحتاج إلى معالجة واسعة، حسبي الإشارة إلى بعض أقواله.

١- نفسه: ٢٣٧



المبحث الرابع

الكتاب صدى الوجود الإنساني

تمهيد:

ارتبطت حياة الجاحظ بطلب العلم على امتداد حياته، وتحدثت الأخبار – كما رأينا – عن شغفه بالقراءة، وصداقته الدائمة للكتاب. وقد قال المبرد (٣٨٥هـ) إنه لم يَرَ أحرصَ على العلم من ثلاثة؛ كان الجاحظ أولهم؛ لأَنّه «كان إذا وقع في يده كتابٌ قرأه من أوَّلِه إلى آخره، أيَّ كتابٍ كان»[1].

فكيف أبرز الجاحظ دوْرالكتاب في حياة الإنسان، وَأهميتَه في تخليد التراث الإسلامي العربي؟ وكيف ألحَّ على ضرورة العناية به، والمعاشرة له؟

لقد تبين من خلال المبحث الثاني أن الجاحظ قد أدرك أن ما يُلفظ باللسان بين المتكلمين يعتريه التغيير وتلحقه آفة النسيان، ولا يمكنه أن يُحقق التواصل المعرفي إلا في طور المشافهة؛ أي في حالة مواجهة المتلقي لما يصدر عن المتكلم؛ أما ما يُكتَبُ فإنه يُخلِّد المآثر، ويَصون العلم من الاندثار ويُحقق التواصل الثقافي والمعرفي على امتداد الزمان والمكان.

وتبيَّنَ في المبحث الثالث ما للعلم من قيمة في حياة الناس، وما له من فضل في خلق التواصل والتعايش بينهم. والجاحظ، كانت لحظته التاريخية، كما لاحظ الصديق العزيز د. حمادي صمود، تُشكل وعيا حادّاً بضرورة أن تقوم الكتابة والكتاب بديلا حضاريا عن اللفظ والذاكرة [2].

ومن هنا أبرز الجاحظ فضل الكتابة على المشافهة، ووضع الكتاب في أرقى منزلة في الوجود البشري، في صدر كتابه الحيوان، كما سيتضح من خلال إحالات هذا المبحث بشكل خاص. وقد ذهب د. حمادي صمود إلى أن إطناب الجاحظ في بيان أهمية الكتاب، جاء نتيجة انتقال التراث

١- تقييد العلم: الخطيب البغدادي (٤٦٣هـ)، تحقيق: د. يوسف العش، ص ١٣٩ .

٢- التفكير البلاغي عند العرب أسسه وتطوره إلى القرن السادس : د.حمادي صمود – ط١ (تونس، منشورات الجامعة التونسية، ١٩٨١) ، ص١٤١ .

الأجنبي، وخاصة اليوناني منه، إلى أمة العرب. وقال: «ويغلب على الظن أن اطلاع العرب عليه كان بمثابة القادح الذي مكَّن الجاحظ من صياغة تصوره ذلك صياغةً نظريةً تَوَّجَ بها مجهود العلمي (الحيوان)» .

وبالرغم من أن الصديق العزيز يعتبر تمازج الحضارات وتلاقحها هما الفيصل في مسألة التأثر والتأثير، وأنه يرفض تعاقب الفكرة الشاردة بين الأنا والآخر؛ فإن إطناب الجاحظ في بيان أهمية الكتاب ترجع في أصلها إلى انطلاقة أمة تحمل كتابا سماويا إلى شعوب الأرض قاطبة، وحول ذلك الكتاب؛ الحامِل للوحي تفجرت قرائحُ، مَن آمن به، في مجالات البحث والفهم والتدبر والتأليف. فالقادح انفجار ثقافة تنشد لها السيادة في الأرض، وهي ثقافة وجدت نفسها في مواجهة ملل ونحَل وثقافات من أصول مختلفة؛ وكانت مدعوة بحكم الصيرورة الحضارية أن تتفاعل مع كل الثقافات السابقة؛ على أن يكون الانقداح من داخلها؛ وما كان هذا يعني انغلاقها على نفسها؛ لأنها تنشد الحقيقة أنى كان مصدرها، وشرْطُها في ذلك أن تكون حقيقة فِعلاً.

(١) الكتاب يَختزِلُ العالَم وعليه مَدارُ عِلْمِ ما في العالَم

عندما يُطلق لفظ كتاب ينصرف عادة إلى وعاء المعرفة.وإذا كانت حركة الحياة تنتَظِمُ بالعلم؛ فإن مُجمل ما أنجزته الإنسانية في تاريخها الطويل من جهود في مجالات العلم؛ تمَّ تخزينهُ وتدوينُه في الكتب؛ إلا ما لم يُنقل من الذاكرة، أو اندثر فيما ضاع من الآثار المكتوبة بفعل عوامل الزمن وعوادِيه. «ومدلول الكتاب ينصرف إلى العلم والمعرفة والفكر المُدوَّن بالكتابة، أياً كان نوع الكتابة»[١].

باكتشاف الكتابة انتصر الإنسان على فاعلية الزمن التي تمحو كل شيء، وتجعله آئلاً للزوال والفناء، مُعَرَّضاً للاندثار. ويُصبح الكتاب حافظا

١- الكتاب في الحضارة الإسلامية: د. يحيى وهيب الجبوري – ط١ (بيروت، دار الغرب الإسلامي١٩٩٨) ، ص٧ .

لجوانب من تجربة الإنسان على الأرض. وهل كان بالإمكان أن تقوم حضارة على الأرض دون أن تُخلَّد في كتاب؛ أي دون أن يُوجد كتاب؟

يقول الجاحظ: «والكتاب هو القطب الذي عليه مدارُ علم ما في العالم، وآداب الملوك، وتلخيص الألفاظ، والغوص على المعاني للسداد، والتخلص إلى إظهار ما في الضمائر بأسهل القول» [1].

وقراءة الكُتب هي اطلاع على ما خلفتّه عقول العلماء على امتداد التاريخ. يقول: «ومعلوم أن طول دراستها إنما هو تصفُّحُ عقولِ العالمين، والعلمُ بأخلاق النبيين، وذوي الحكمة من الماضين والباقين من جميع الأمم، وكُتُب أهل المِلل» [2].

وقال في كتابه فصل ما بين العداوة والحسد: «إن الكُتُبَ عقولُ قومٍ» [3].

(٢) حقيقة الكتاب: نعوته وصفاته

ما قاله الجاحظ في وصف الكتاب في صدر كتاب الحيوان، ظل غُرَّةً في جبين الأيام، حام الناس حوْلَه وما أتوا بما يُضاهيه. ومَن قال شيئا عن الكتاب إمّا أنه كان عالةً على الجاحظ أو أنه أتى بما هو دونه.

فالكتاب عنده «نعم الجليس والعُدة (...)، ونعم المعرفة ببلاد الغربة (...)، والكتاب وعاءٌ ملئَ علماً (...) ومن لك بشيء يجمع لك الأول والآخر(...)! فمتى رأيتَ (...) ناطقاً ينطقُ عن الموتى، ويُترجم عن الأحياء (...)، وأحفظ لما استُحفظَ من الآدميين (...). والكتاب لا يَنسى ولا يُبدِّلُ كلاماً بكلام (...). ولا أعلمُ نتاجاً في حداثة سنِّه، وقُرْبِ ميلاده، ورُخْصِ ثمنِه، وإمكانِ وُجودِه، يَجمَعُ من التدابير العجيبة والعلوم الغريبة، ومن آثار العقول الصحيحة، ومحمود الأذهان اللطيفة،

١- فصل من رسالة إلى أبي الفرج الكاتب في المودة والخلطة، ضمن فصول مختارة من كتب الجاحظ، تحقيق: د. حاتم صالح الضامن (مجلة المورد، عدد خاص بالجاحظ، مجلد ٧، عدد ٤، ١٩٧٨)، ص١٩٢.

٢- رسالة المعاش والمعاد: ١/٩٥.

٣- كتاب فصل ما بين العداوة والحسد: ١/٣٤٤.

ومن الحِكم الرفيعة، والمذاهب القويمة، والتجارب الحكيمة، ومن الإخبار عن القرون الماضية، والبلاد المتنازحة ، والأمثال السائرة، والأمم البائدة، ما يجمَعُ لك الكتاب.»(١/٣٨ – ٤٢).

هذا شيء أقل من القليل مما قاله الجاحظ عن الكتاب، وما قاله – كما أشرتُ – لم يَجُد الزمان بمثله على امتداد تاريخ الثقافة العربية، حسب علمي. فقد جعل الكتاب جزءاً من ذات الإنسان، حين قال:«وكان منك مكانَ بعضِك» (١/٥٠).

ولعله أول من شبه الكتاب بالبستان والروضة والشجرة، حيث قال: «فمتى رأيتَ بستانا يُحمَلُ في رُدْن (كُمّ)، وروضة تُقَلُّ في حِجْر... ولا شجرة أطول عمراً «(١/٣٩ – ٤٠). وتشبيه الكتاب بالبستان والروضة تردد في مقدمات بعض الكتب في لحظات الإعجاب بها[1].

فالكتاب يتوزَّعُ بفضله تداوُل الفكر بين أبناء البشر على امتداد التاريخ. فهو يخترق الزمان، ويربط بما كان وما هو كائن؛ في حين لا يتجاوز اللفظة الراهنة بين المتكلمين في مكان وزمان خاصَّيْن. جاء في البيان والتبيين: «اللسان مقصور على القريب الحاضر، والقلم مطلق في الشاهد والغائب، وهو مثله للغابر الحائل(الهالك)، مثلُه للقائم الراهن. والكتاب يُقرأ بكل مكان، ويُدرَسُ في كل زمان؛ واللسان لا يعدو جامعَه، ولا يتجاوز إلى غيره»[2].

ويرى أن ما يُكتَبُ يُمكن أن يُصحَّح، أما ما يُلقى ويُلفظ به لا يُستطاع تصحيحُه. وأتى في البيان والتبيين بقول عبد الرحمن بن كيسان: «استعمال القلم أجدرُ أن يحُضَّ الذهن على تصحيح الكتاب، من استعمال اللسان على تصحيح الكلام» [3].

١– ينظر: مقدمة الكتاب في التراث الإسلامي وهاجس الإبداع: عباس أرحيلة، ١٤٦ – ١٥٠ .

٢– البيان والتبيين: ١/٨٠

٣– نفسه :١/٨٠.

(٣) الكتاب هو الصديق النموذجي في الحياة

ووصف الجاحظ الكتاب بالصديق والرفيق والجار والصاحب والمعلِّم، وقارن بين صفات الكتاب وصفات الصديق، وتناول ملامح الصديق من خلال نعته للكتاب، وكأني به ينظر في الصفات المحمودة التي ينبغي أن يتحلى بها الصديق، وما ينبغي أن يَحيدَ عنه في سلوكه. ولعل ما افتقده الجاحظ في الصديق من الخصال الحميدة وجده في الكتاب، أو لعله أضفاه بقلمه على الكتاب.

فالكتاب كالصديق؛ يطيب إليه الجلوس، ويحلو معه الأنس، وإليه يُستودَعُ السر، وهو حسب ما قال الجاحظ: نعم الأنيس، ونعم الجليس لساعة الوحدة، ونعم القرين، آمَنُ من الأرض، وأكْتَمُ للسر من صاحب السر، وأحفظ للوديعة من أرباب الوديعة، «ولا أعلمُ جاراً أبر، ولا خليطاً أنصف، ولا رفيقاً أطوع، ولا صاحباً أظهر كفايةً، ولا أقلَّ إملالاً وإبراماً، ولا أحفل أخلاقا، ولا أقل خلافاً وإجراماً، ولا أقل غيبةً، ولا أبعد عن عضيهة (كذب وبهتان)، ولا أكثر أعجوبةً وتصرفاً، ولا أقل تصلُّفاً وتكلفاً، ولا أبعد من مِراء، ولا أترك لشَغَب، ولا أزهد في جدال (...) من كتاب» (١/٤١ – ٤٢).

أي صديق هذا أيكون الصديق بهذه الصفات في دنيا الناس؟ ألا يَجد الجاحظ في الكتاب سلوتَه في الحياة؟ هل نستوحي من هذا تبرُّمَه مِمّا لحِقَه من أصدقائه؟

يقول: «والكتاب هو الجليس الذي لا يطُريك، والصديق الذي لا يُغريك، والرفيق الذي لا يمَلُّك، والجار الذي لا يستبطيك، والصاحب الذي لا يُريد استخراج ما عندك بالمَلَق، ولا يُعاملُك بالمكر، ولا يَخدعُك بالنفاق، ولا يَحتالُ لك بالكذِب (...) وإن عُزِلت لمْ يَدَعْ طاعتَك، وإن هبَّت ريحُ أعاديك لم ينقلب عليك» (١/٥٠ – ٥١).

لا أشك أن ما وصف به الجاحظ الكتاب كان يُخفي حقائق كثيرة، افتقدها

الجاحظ في حياته الخاصة، وقد تكون مما افتقده الناس عامة في علاقاتهم الاجتماعية.

والكتاب – عنده – «صامت ما أسكَتَّه، وبليغ ما استنطقته، ومَن لك بمسامر لا يبتديك في حال شُغلك، ويدعوك في أوقات نشاطك، ولا يُحوجك إلى التجمل له والتذمم منه. ومن لك بزائر إن شئتَ جعل زيارَتَه غِباً (...) وإن شئتَ لزِمك لزومَ ظلك، وكان منك مكان بعضك» (١/٥٠).

ويُستفاد من العبارة الأخيرة أن الكتاب لم يَعُد صديقاً حميماً للجاحظ فقط، بل إنه أصبح جزءاً لا يتجزّأ من كيانه، وبعضاً من كيانه.

وإذا كانت الكتُب هي أصدقاء الجاحظ في رحلة عمره، فإنه كان ضحيتها في نهاية حياته؛ إذ غدَرت به فتهاوت عليه، فخنقته، فأودتْ بحياته، فمات تحت أنقاضها، كما قيل.

(٤) الكتب كنوز، وهي خير ما يورث

في تفسير قوله تعالى: (وَكَانَ تحتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا) (الكهف:٨٣)، قيل: كان الكنز عِلماً وقيل كان الكنز مالا. فقد قال عبد الله بن عباس: كان عِلماً في صُحُف مدفونة، وقال أبو إسحاق (إبراهيم بن السري٣١١هـ): «وجائزٌ أن يكون الكنز كان مالاً مكتوباً فيه علم؛ لأنه قد رُوِيَ أنه كان لوْحاً من ذهب عليه مكتوبٌ: «لا إله إلاَّ الله محمد رسول الله «فهذا مال وعلم عظيم؛ هو توحيد الله عز وجلَّ وإعلامٌ أن محمداً مبعوثٌ»[1].

وقد اعتبر الجاحظ الكُتُب بمثابة كنوز لا تنفَد، يتجدَّد عطاؤها باستمرار؛ وهي تختلف عن كنوز الأرض من حيث التعاملُ معها والاستفادة منها. فالكتاب عند الجاحظ كنزٌ «إلاَّ أنه كنز لا تجب فيه الزكاة، ولا حقَّ

١- معاني القرآن وإعرابُه: الزجاج٣/٣٠٧ – الجامع لأحكام القرآن: القرطبي:١١/٢٧ – وعلَّق بعضهم بقوله: «وأي كنز أفضلُ من العلم»، يُنظر: تقييد العلم للخطيب البغدادي، ص١١٧ – ١١٨ .

السلطان. وإذا كانت الكنوز جامدة، ينقصها ما أخذ منها، كان ذلك الكنز مائعاً يزيدُه ما أُخذ منه» (١/ ١٠٠).

فمن مات وترك كتباً لِوَرثته إنما يدع لهم «الكنز الذي ليس للسلطان فيه حق، والرِّكاز الذي ليس للفقراء فيه نصيب، والنعمة التي ليس للحاسد فيها حيلةٌ، ولا للصوص فيها رغبة، وليس للخصم عليك فيه حجة، ولا على الجار فيه مئونة» (١/ ١٠١).

فمَن يرِثُ كتباً – في تصوُّر الجاحظ – فكأنما يرِثُ كنزاً ومن هنا تتعلَّق بها القلوب، وتتبارى الأذهان في الاستفادة منها؛ ما حملتْ للقلوب والأذهان ما يُفيد.«ولن يزال مِن تعظيمها في القلوب أثر، ما كان من فوائدها على الناس أثر. وقالوا مَن ورَّثْتَه كتاباً، وأودعتَه علماً، فقد ورَّثتَه ما يُغِلُّ ولا يستغِلُّ، وقد ورَّثتَه الضيعة التي لا تحتاج إلى إثارة (حرْث) ، ولا إلى سَقْي (...) ولا إلى شرط، ولا تحتاج إلى أكّار(فلاح) (...) وليس عليها عُشُر، ولا للسلطان عليها خَرْجٌ»(١/ ١٠٠).

فالكتاب ضيعات وحقول وحدائق لا تحتاج محاصيلها إلى عناء من حرْث وسَقْيٍ، ولا يُؤَدَّى عنها خراجٌ أو زكاةٌ. والكتاب كنزٌ وهبَهُ الوهّاب – سبحانه وتعالى – يُدَّخرُ فيه العلم ويُصان، ولا ينبغي أن يُمنعَ هذا الكنز أو يُعَطَّلَ عمَّا خُلِق له؛ فهو أداة لإقامة النفع في الدين والدنيا، تُنفَقُ في وجوه الخير، ولا تُصرَف في وجوه الباطل والفِسق والمعصية، كما رأينا.

(٥) ولكن ما هي أفضل الكتب؟

ما هي الكتُب التي ينبغي أن تتعلَّق بها الهِمم، وتتشوق إليها الأرواح، وتتطلع إليها النفوس، وتستفيد منها الأمم والشعوب في اكتساب تجاربها وتطويرها؟ ما هي الكتب التي ينبغي أن تَنْشَدَّ إليها الأنظار، ويتبارى القراء في اقتنائها وقراءتها إنها – في رأي الجاحظ – تلك التي عطاؤها يتجدّد كلّما عاد قارئُها إليها؛ وما نافَسَتْها كتُبٌ إلاّ كانت دونها في الجوْدَة.

ويرى الجاحظ أن كِرام الكتب النفيسة هي تلك «المشتملة على ينابيع العلم، والجامعة لكنوز الأدب، ومعرفة الصناعات، وفوائد الأرفاق، وحجج الدين؛ الذي بصحته، وعند وضوح برهانه، تسكن النفس، وتثلج الصدور، ويعود القلب معموراً، والعز راسخاً، والأصل فسيحاً»(١/٩٩).

أيِّ كُتُبِ زماننا هذا ما تسكنُ إليه النفسُ، ويُعمِّرُ القلب، ويجعل العز راسخاً ، والأصلَ فسيحاً

ولا قيمة لكتاب – في تصور الجاحظ – «ليس فيه معاش ولا تصحيح دين» (١/٥٨). أي ما لم يكن له ارتباط بالدين أو الدنيا، كقوله:«والكتاب هو الذي يؤدِّي إلى الناس كتب الدين، وحسابَ الدواوين» (١/٥٠) أي أنه يُنظم علاقة العبد بربه، كما يُنظِّم حركة الحياة بين مخلوقاته.

والكتب المعتبرة في تصور الجاحظ ما كان من «كتب حِكَم وكتب فلسفة، وكتب مقاييس وسُنن وتبيُّن وتبيين»، وما كان من الكتب التي تُعرِّف الناس أبوابَ الصناعات، أو سُبُلَ التكسُّب والتجارات، أو كتب ارتفاقات ورياضات، أو بعض ما يتعاطاه الناس من الفِطن والآداب (١/٥٦).

وأهم الكتب عند الجاحظ ما تعتمده مرافق الحياة في منطلقاتها العلمية. وخير الكتب عنده ما كان فيها مثلٌ سائرٌ، أوخبر طريف، أو صنعة أدب، أو حكمة غريبة، أو فلسفة، أو مسألة كلامية، أو تعريف صناعة، أو استخراج آلة، أو تعليم فلاحة، أو تدبير حرب، أو مُقارعة عن دين، أو مُناضلة عن نِحلة. وخير الكتب أيضا ما ترى فيه موعظة حسنة، وحديثا مُونِقاً، وتدبيرَ معاش، وسياسةً عامةً (١/٥٧).

ونستفيد من أقوال الجاحظ هذه أفضلية محتويات الكتب كذلك، وما ينبغي أن تنصرف إليه جهود العلماء واهتمامات المتعلمين. الكتاب الجيِّد عند الجاحظ هو الذي لا تنتهي قيمتُه بانتهاء قراءته؛ فكلما نظرت فيه زادك استفادة، وأضفتَ اكتشافا إلى اكتشافاتك فيه؛ «وخير

الكتب ما إذا أعدت النظر فيه زادك في حسنه، وأوقفك على حده»[1]. على حدِّ تعبير الجاحظ.

ولكن قبل هذه الأفضليات التي تُقدمها كتُب البشر، هناك الكتب المنزَّلة من ربِّ البشر.

(٦) بين الكتب المنزلة وكُتُبِ البشر

إذا كانت كتب السابقين قد حفلت بالمعارف، ونقلت تجارب الأقدمين، ويسرت سُبُلَ المعرفة؛ فإن قيمة تلك الكتب لا ترقى إلى ما جاء عن الله تعالى من كتب. فـ «أكثر من كتبهم نفعاً، وأشرفُ منها خطراً، وأحسنُ موقعاً، كتُبُ الله تعالى، فيها الهُدى والرحمة، والإخبار عن كل حِكمة، وتعريف كل سيئة وحسنة. وما زالت كُتُبُ الله تعالى في الألواح والصحف والمهارق والمصاحف. وقال الله عز وجل (الم ذلك الكتاب لا ريب فيه) وقال: (ما فرطنا في الكتاب من شيء). ويقال لأهل التوراة والإنجيل: «أهل الكتاب» (٨٦/١).

(٧) استيعاب ما في الكتب يُعلي شأن طالب العلم

يرى الجاحظ أن الإقبال على الكتب دراسةً وفهماً واستيعاباً ينقل قارئ تلك الكتب من منزلة إلى أخرى؛ وخاصة ما كان منها محدَّداً برؤية منهجية كما في كتب أبي حنيفة (١٥٠هـ).

يقول: «وقد تجد الرجل يطلب الآثار وتأويل القرآن ويُجالس الفقهاء خمسين عاما، وهو لا يُعَدُّ فقيهاً ولا يُجْعَلُ قاضياً، فما هو إلاَّ أن ينظر في كتب أبي حنيفة، وأشباه أبي حنيفة، ويحفظ كتبَ الشروط في مقدار سنة أو سنتين، حتى تمر ببابه فتظن أنه بعضُ العُمّال، وبالحَرَا ألاّ يمر عليه من الأيام إلاّ اليسير حتى يصير حاكماً على مصرٍ من الأمصار أو بلدٍ من البلدان» (٨٧/١).

١- من كتابه في المعلمين:٤٢/٣ .

وذهب د. طه الحاجري إلى أن تلك الكتب المنتشرة بالكوفة والبصرة ومن ضمنها كتب الجاحظ؛ «كانت من أقوى العوامل التي قرَّبت بين الأمصار المختلفة، وَوَفَّقَتْ إلى حد كبير بين اتجاهاتها المختلفة، وأوجدَتْ أخيراً نوعاً حديثاً من العلم وأسلوب الفكر لا يختلف كثيراً باختلاف الأمصار»[1].

ومما يُشير إلى شيوع الكتب بكثرة في زمن الجاحظ قولُه: «وقد رأيتُ عند داودَ بن محمد الهاشميِّ كتاباً في الحيّات، أكثرَ من عشرة أجلادٍ (مجلدات)، ما يَصِحُّ منها قدرُ جِلْدٍ ونصف» (١٨١/٤).

وصيانةً لما تحمله هذه الكتب من هداية، وما تنطوي عليه من حقائق هي جوهر الدين والدنيا، ودفاعاً على ما أنجزته القرائح من آثار؛ ينبغي حماية الكتب من الأقلام الفاسدة التي تنشر الأوهام والترهات، وما يُدغدغ منها الغرائز في ذوات البشر.

(٨) حماية الكتب من الموضوعات الفاسدة

والجاحظ في مشروعه الفكري دافع عن العقل وحارب الخرافة بجميع أشكالها، ودعا إلى حماية الكتُب من كلِّ ما يجعلها فاسدة مُفسِدة؛ تُشيع الخرافات وتزرع الأوهام والأفكار المُنحرفة في العقول. وهو يرى أنه لا تتمُّ حِمايةُ الكتُب إلاَّ بالبعد عن التطرُّق إلى الأمور التي تشتمل على كل ما هو عجيب وغريب، والتي يلجأ إليها بعض الكتاب الذين «يُفسدون العلمَ ويَتهمون الكُتُبَ وتغرُّهم كثرةُ أتباعهم، ممن تجده مستهتراً بسماع الغريب، ومُغرما بالطرائف والبدائع، ولو أعطوا بدل من هذا الاستهتار نصيباً من التثبت وحظا من التوقي لسَلِمتْ الكتب من كثير من الفساد».

ونجد الجاحظ يستغربُ من «أهل العلم والنظر، وأصحاب الفكر والعِبر، وأرباب النِّحل، والعلماء أهل البَصَر بمخارج الملل، ووَرَثَة الأنبياء، وأعوان الخلفاء؛ يكتبون كُتُبَ الظرفاء والمُلحاء، وكُتُبَ الفُرّاغ والخُلعاء، وكتبَ

١- الجاحظ حياته وآثاره: د. طه الحاجري، ص١٤١ .

المَلاهي والفُكاهات، وكتبَ أصحاب الخصومات، وكتُبَ أصحابِ المِراء، وكتبَ أصحاب العصبيَّة وحمِيَّة الجاهلية» (١/٢٥).

والجاحظ يُشير هنا إلى الكتُب المنحرفة؛ التي تعمَل على تشويه العقول والمشاعر، كما تعمل على إشاعة الفاحشة بين الناس، وما يجُرُّه انسياق العقول الضعيفة وراءها من انحرافات في أخلاق المجتمعات.

(٩) مفعول الكتاب في نفس المتلقي

يستحضر الجاحظ القارئ في أطوار تأليفه للكتاب، ويصف آثار ذلك عليه، من جوانب عِدّة. يقول مُبيناً ما يُميِّزُ الكتب الجيِّدة، وما يكون لها من أثر حسن على القارئ: «والكتاب هو الذي إذا نظرتَ فيه أطال إمتاعَك، وشحَذَ طِباعَك، وبسَطَ لسانك، وجوَّدَ بَنانَك، وفخَّم ألفاظَك، وبجَّح (أفرح) نفسَك، وعمَّر صدرَك، ومنَحك تعظيم العوام وصداقة الملوك، وعرفْتَ في شهر، ما لا تعرفه من أفواه الرجال في دهر» (١/٥١).

وينقل الجاحظ ما وجده علي بن الجهم (٢٤٦هـ) من اهتزاز لفوائد الكتاب أثناء القراءة، وما اعتراه من أريحية حين ظَفِر فيه ببعض حاجته، وجاءت رواية الجاحظ هكذا: «ويقول ابن الجهم: إذا غشيَني النُّعاسُ في غير وقت نوم – وبئس النومُ الشيءُ الفاضل عن الحاجة – فإذا اعتراني ذلك تناولت كتاباً من كتُب الحِكم، فأجد اهتزازي للفوائد، والأريحية التي تعتريني عند الظَّفَر ببعض الحاجة، والذي يغشى قلبي من سرور الاستبانة وعزِّ التبيين، أشدَّ إيقاظاً من نهيق الحمير، وهَدَّةِ الهَدْم» (١/٥٣). وأيُّ كتاب هذا ذلك الذي يطرُدُ النوم عن العيون. ويكون أشدَّ إيقاظاً من وقْعِ النهيق أو سقوط البناء على آذان صاحبه؟

وعن شغف ابن الجهم بالكتاب وتعلقه به أثناء القراءة، يقول: «إذا استحسنتُ الكتاب واستجدتُه، ورجوتُ منه الفائدة، ورأيت ذلك فيه – فلو تراني وأنا ساعةً بعدَ ساعةٍ أنظر كم بقي من ورَقِةٍ مخافةَ استنفادِه،

وانقطاع المادة من قلبه، وإن كان المصحف عظيم الحجم كثير الورق، كثير العدد - فقد تم عيشي وكمُل سروري» (٥٣/١). (ويقصد بالمصحف الكتاب مطلقا).

وكم عاد منا في هذا الزمان مَن ينظر إلى ما تبقى من صفحات الكتاب مخافةَ بلوغ نهايته؟ مَن منا أصبح يخاف أن تنقطِعَ المادَّة من قلب الكتاب؟ ومَن مثل الجاحظ يقول هذه العبارة: «انقطاع المادة من قلب الكتاب» إلاَّ مَن كان يسمعُ نبْضَ قلب الكتاب؟ وكم عدد القراء فينا مَن يتمُّ عيشهم ويكمُل سرورهم، إذا كان الكتاب عظيم الحجم كثير الورق؟

وعن تجربة ابن الجهم مع الكتب من حيث أحجامُها، يقول: «وما قرأتُ قطُّ كتاباً كبيراً فأخلاني من فائدة، وما أُحصي كم قرأتُ من صِغار الكتب فخرجتُ منها كما دخلتُ» (٥٤/١).

ووجد الجاحظ الحسن اللؤلؤي، وهو قاضٍ من أصحاب أبي حنيفة، لا يُفارقه الكتاب إلاَّ وقت النوم، وحين ينام يظلّ الكتاب على صدره، وَسَمِعَهُ يقول: «غبرتُ (مكثْتُ) أربعين عاماً ما قِلْتُ ولا بتُّ ولا اتكأْتُ إلاَّ والكتابُ موضوعٌ على صدري» (٥٣/١).

ولا بد من استعداد نفسي وعلمي لتلقي الكتاب لدى القارئ، فلا مفعول للكتب في أنفس القراء إذ هي لم تصادف قراء يتفاعلون بعفوية خالصة مع ما يقرؤون. فلا ينبغي أن نُكَلِّفَ الكتبَ - كما يقول الجاحظ - «ما ليس عليها. إن الكُتُبَ لا تُحيي الموتى، ولا تُحوِّل الأحمقَ عاقلاً، ولا البليدَ ذكياً ولكن الطبيعة إذا كان فيها أدنى قبول؛ فالكتب تشحذ وتفتِق، وتُرهف وتَشفي» (٥٩/١).

إذا كانت طبيعة الكتاب وحقيقته هما ما وصف الجاحظ؛ فإن على القارئ أن يُقلِّد أمثال ابن الجهم أو الحسن اللؤلؤي في تعاملهما مع الكتاب. فعلى القارئ أن يكون في مستوى التجاوب مع الكتاب فهماً وإدراكاً واستيعاباً واستفادةً.

(١٠) بين الأخذ عن المُعلِّم والأخذ من الكتاب

ويبدو أن الجاحظ لم يتمتع بحلقات الدرس في المراحل الأولى من طلبه العلم، بسبب انشغاله بطلب العيش. ولعه استعاض عن حرمانه هذا باللجوء إلى الكتاب. ونجده يُقارن بين المعلم والكتاب، ويُفضِّل الكتاب – حسب تجربته – على الجلوس إلى المعلم. ولعله في النص الموالي ما يكشف عن تجربة الجاحظ في تلقي العلم أيام حداثة سنه، حين قال: «وليس يجد الإنسان في كل حين إنساناً يُدرِّبُه، ومُقوِّماً يُثَقِّفُه، والصبرُ على إفهام الريِّض شديدٌ، وصرفُ النفس عن مغالبة العالم أشدُّ منه، والمُتعلِّمُ يجدُ في كلِّ مكانٍ الكتابَ عتيداً، وبما يحتاجُ إليه قائماً، وما أكثرَ مَن فرَّط في التعليم أيام خمول ذكره، وأيام حداثة سنِّه ! ولولا جِيادُ الكُتبِ وحسَنها، ومبيَّنُها ومُختصرُها، لَمَا تحرَّكتْ هِممُ هؤلاء لطلب العلم، ونزعتْ إلى حبّ الأدب، وأنفت من حب الجهل، وأن تكون في غِمار الحَشْو، ولَدخل على هؤلاء من الخَلل والمضرة، ومن الجهل وسوء الحال، ما عسى ألا يمكن الإخبارُ عن مقداره، إلاَّ بالكلام الكبير، ولذلك قال عمر رضي الله تعالى عنه: «تفَقَّهوا قبلَ أن تُسَوَّدُوا» (١/٨٧).

فالكتاب عند الجاحظ يتولَّى التدريب والتقويم والتثقيف، مما قد لا يتوافر في معلم مخصوص؛ وتلك مهام تحتاج من صاحبها إلى صبر، أما الكتاب فهو موجود في كل مكان. ولولا جِياد الكتب لما استطاع القارئ أن يسترد ما فرَّط فيه أيام الحداثة. والقارئ عند الجاحظ يستفيد من الكتاب أكثر من استفادته من المعلّم. يقول مخاطباً القارئ: «وعرَفْتَ به في شهر، ما لا تعرفُه من أفواه الرجال في دهر، مع السلامة من الغُرْم، ومن كدِّ الطلب، ومن الوقوف المُكتَسب بالتعلّم، ومن الجلوس بين يديْ مَن أنتَ أفضلُ منه خُلُقاً، وأكرمُ منه عِرْقاً، ومع السلامة مِن مجالسة البُغضاء، ومقارنة الأغبياء، والكتابُ هو الذي يُطيعك بالليل كطاعته بالنهار، ويُطيعك في السفر كطاعته في الحضر، ولا يعتلُّ بنوم، ولا يعتريه كَلال السهر، وهو

المعلِّم الذي إن افتقرتَ إليه لم يُخفِرْك [1]، وإن قطعتَ عنه المادة لم يَقطعْ عنك الفائدة» (١/٥١).

وواضح من هذين النصين أن محيط الجاحظ كان يعُجُّ بالكتب، وأنه وجد في الكتب ما لم يجده من معلمي زمانه.

(١١) أيهما أفضل: قراءة الكتاب أم التلاقي مع صاحبه

هل يكون التحاور مع أصحاب الكتب أفضل من قراءة كتُبِهم؟ أم أن قراءة الكتب أبلغ من التلاقي مع أصحابها؟ وماذا لو أن القارئ أراد أن يأخذ من مؤلِّف الكتاب مباشرة ما وَرَدَ في كتابه؟ وأيُّهما أفيدُ لطالب المعرفة، وأبلغُ في الإرشاد؟ أهو أن تلتقيَ بالعلماء أم أن المرء يكتفي بقراءة كتبهم؟

يرى الجاحظ «أن قراءة الكتب أبلغ في إرشادهم من تلاقيهم، إذ كان مع التلاقي يشتد التصنع، ويكثر التظالم، وتُفرط العصبية، وتَقوى الحمية، وعند المواجهة والمقابلة، يشتد حب الغلبَة، وشهوة المباهاة والرياسة، مع الاستحياء من الرجوع، والأنفة من الخضوع؛ وعن جميع ذلك تحدث الضغائن، ويظهر التبايُن. وإذا كانت القلوب على هذه الصفة وعلى هذه الهيئة، امتنعت عن التعرف، وعميت عن مواضع الدلالة» (٨٤ – ٨٥).

أما حين يجلس القارئ منفرداً بالكتاب، فإنه ينصرف بقواه العقلية إليه، ويظلُّ شخصُ المؤلِّف غائباً عن مشهد القراءة، فلا يكون له حضور إلا في الخيال، هذا إن حضَر، وحينئذ فإن القارئ «لا يُباهي نفسَه ولا يُغالب عقلَه» (١/ ٨٥).

ومن هنا وجد الجاحظ أن الكتاب قد يكون أفضَلَ من صاحبه بأمور، «منها أن الكتاب يُقرأ بكل مكان، ويظهر ما فيه على كل لسان، ويوجد مع كل زمان،

١- أخفرَه: نقض عهده، غدر به. والهمزة للإزالة أي أزلتُ خُفارته أي أمانه. وهو منْ خَفَرْتُ ذِمَّتَه إذا حفِظتُها (اللسان: خفر).

وبُعْدِ ما بين الأمصار، وذلك أمر مستحيل في واضع الكتاب»(١/٨٥)[١].

وقراءة الكتاب على انفراد تضمن لقاء المؤلِّف عن بعد، فلا منازعة ولا خصومة؛ «لأنَّ مَن تفرَّد بكتاب فقرأه ليس كمن نازع صاحِبَه وجاثاه (جالسَه على ركبتيه للخصومة) ... ومع التّلاقي يحدثُ التباهي، وفي المحافل يقِلُّ الخضوع، ويشتدُّ النُّزوع»[٢].

(١٢) مشهد الإنسان وهو بين كتبه

يحدثنا الجاحظ عن مشهديْن لرجل واحد، المشهد الأول يتقلَّدُ فيه الإمارة، والمشهد الثاني يُعزَلُ فيه منها. يقول: «دخلت على إسحاق بن سليمان في إمْرته، فرأيتُ السِّماطيْن والرجالَ مُثولاً كأن على رؤوسهم الطير، ورأيتُ فِرْشَتَه وبِزَّتَه، ثم دخلتُ عليه وهو معزول، وإذا هو في بيت كتبه، وحواليْه الأسفاط والرقوق، والقماطر والدفاتر والمساطر والمحابر، فما رأيته قط أفخَمَ ولا أنبَلَ، ولا أهْيَبَ ولا أجزل منه في ذلك اليوم؛ لأنه جمع مع المهابة المحبَّةَ، ومع الفخامة الحَلاوةَ، ومع السؤدد الحِكمة»(١/٦٢).

فالجاحظ يرى أن هذا الرجل قد ازداد مهابةً وفخامةً بين كتُبه، وأن ما يلقاه من الفخامة والسُّؤْدد بين كتبه فوق ما كان يلقاه وهو أمير يَمْثُلُ بين يديه الرجال. فالسعادة تحُفُّ به من كل جانب، والحكمة تنبعث منه، وقد تعدَّدت فيه أسلحة العلم، وأحاطت به من كل جانب: فهذه الأسفاط والرقوق، والقماطر والدفاتر والمساطر والمحابر.

(١٣) كيف يكون وضع القارئ أثناء قراءة الكتاب؟

يُقدِّم لنا الجاحظ الوضع الذي ينبغي أن يكون عليه القارئ أثناء قراءة الكتاب، ويرسُمُ لنا الحالة التي ينبغي أن يكون عليها وضع الجسد والبصر

١- ينظر: فصل من كتابه الجوابات في الإمامة، ضمن فصول مختارة من كتب الجاحظ، تحقيق: د. حاتم صالح الضامن (مجلة المورد، عدد خاص بالجاحظ، م ٧، عدد ٤، ١٩٧٨م)، ص٢٢٦ .

٢- حجج النبوة (ضمن رسائل الجاحظ):٣/٢٣٥ – ٢٣٦ .

أثناء القراءة؛ لمقاومة التعب، وما قد ينجم عن ذلك الوضع من آثار ومضاعفات... يقول في رسالة الجد والهزل: «رأيت أن أنظر فيها وأنا مُستلقٍ ولا أنظر فيها وأنا منتصب، استظهارا على تعب البدن؛ إذ كانت الأسافل مثقلة بالأعالي، وإذ كان الانتصاب يُسرع في إدخال الوهن على الأصلاب؛ ولأن ذلك أبقى على نور البصر، وأصلح لقوة الناظر؛ إذ كل واحد من هذه المصاحف قد أعجزَ يدي بثِقل جِرمه، وضيق صدري بجفاء حجمه، وأوهَن العظم.

وإذا نظرتُ فيها وأنا جالس سدِرتْ عيني، وتقوس ظهري، واجتمع الدم في وجهي، وأكرهتُ بصري على غير جهته، وأجريتُ شُعاع ناظري في غير مجراه»[1].

لا شك أن هذه الجملة الأخيرة من كلام الجاحظ تكشف عن دقة ملاحظاته وسعة معرفته وتكوينه العلمي، فهو ينظر إلى الجسد برمته أثناء القراءة، بين الاستلقاء والانتصاب، وما لهما من تأثير على أعلى الجسد وأسافله، وخاصة على الظهر والبصر.

(١٤) إيثار الكتب وجمعها والإنفاق عليها

ذكر الجاحظ أن العلم لا يكون إلا بكثرة السماع، ولا بد أن تكون كُتُب الإنسان أكثر من سماعه. ولا بد أ ن يكون إنفاقُه على الكتب أولى من كل إنفاق في مُتَع الدنيا؛ مما تهواه النفسُ وتنقادُ إليه. يقول:«ومَن لم تكن نفقتُه التي تخرج في الكتب ألذَّ عنده من إنفاق عُشاق القيان، والمستهترين بالبنيان؛ لم يَبلُغ في العلم مبلغا رضِيّاً. وليس يَنتفع بإنفاقه، حتى يُؤْثر اتخاذَ الكتب إيثارَ الأعرابي فرَسَه باللبَن على عِياله، وحتى يُؤَمِّل في العلم ما يُؤَمِّل الأعرابي في فرسه» (٥٥/١). فتُصبح قراءة الكتب عشقاً، وفعلُها بناءً وتشييداً ممّا يُباهَى به في المحافل. والقراءة غذاء تُعَدُّ به النفسُ للمجاهدة،

١- رسالة الجد والهزل: ٢٤٨/١ – ٢٤٩ .

وفاعليتُها لا تتحقق إلا بأن يُؤثر عليها الإنسان كل ما عداها، وأن يُؤَمِّلَ فيها ما لا يُؤَمِّلُهُ في غيرها. وهو يرى سخاء النفس بالإنفاق على الكتب،«دليلا على تعظيم العلم، وتعظيم العلم دليل على شرف النفس، وعلى السلامة من سُكر الآفات» (١/٥٥ – ٥٦).

ولا تَفاضل بين الناس – عند الجاحظ - إلا بالعلم وقراءة الكتب. وروى عن أبي عمرو بن العلاء قوله: «ما دخلت على رجل قطُّ ولا مررتُ ببابه، فرأيتُه ينظر في دفتر وجليسه فارغ اليد، إلا اعتقدتُ أنه أفضلُ منه وأعقلُ!»(١/٦٠).

ومع حرص الجاحظ على تدوين العلم، ودعوته إلى جمع الكتب؛ فإنه لا يرى لها فضلاً إذا لم يتحقق مع الجمع والكتابة الوعي بمحتويات تلك الكتب، والاستيعاب لمضامينها والوعي بمقاصدها، كما جاء في أبيات لابن يَسير، منها قوله:

إذا لم تكن حافظاً واعياً فجمْعُكَ للكتب لا ينفعُ

(١٥) عناية الزنادقة بكتبهم

لاحظ الجاحظ عناية الزنادقة بكتبهم، فهم يختارون لها الورق النقي، والحبر المُشرِق البراق، ويستجيدون لها الخطوط الجميلة. قال:» فإني لم أرَ كورق كتبهم ورَقاً، ولا كالخطوط التي فيها خَطّاً !»(١/٥٥).

وبالغوا في تجميل كتب ديانتهم وزخرفتها، والإنفاق عليها، حتى أصبح إنفاقُهم «كإنفاق المجوس على بيت النار، وكإنفاق النصارى على صُلبان الذهب، ولو كانوا أرادوا العلم لكان العلم لهم مُعرَضاً، وكتب الحكمة لهم مبذولة، والطرق إليها سهلة معروفة، فما بالهم لا يصنعون ذلك إلا بكتب ديانتهم، كما يُزخرف النصارى بيوت عبادتهم !»(١/٥٦).

وما في هذه الكتب التي تحظى بهذه العناية المبالَغ فيها، وبأي شيء تميّزت حتى أضحى الزنادقة يَتهَممُّون بها على هذه الصورة

ويلاحظ الجاحظ أن جل ما في كتبهم «ذكرُ النور والظُّلمة، وتناكح الشياطين، وتَسافُدُ العفاريت، وذكرُ الصِّنديد، والتهويل بعمود السِّنخ، والإخبار عن شقلون، وعن الهامة والهامة، وكلُّه هَذْرٌ وعِيٌّ وخُرافة، وسُخرية وتكذبٌ» (١/٥٧).

(٦١) مشقة تصحيح الكتب

تحدث الجاحظ عن مشقة تصحيح الكتب بسبب ما يعتريها من التصحيف والتحريف والسَّقَط، «ولربما أراد مؤلِّف الكتاب أن يُصلح تصحيفاً، أو كلمةً ساقطة، فيكون إنشاءُ عشرِ ورقات من حر اللفظ وشريف المعاني؛ أيْسَرَ عليه من إتمام ذلك النقص، حتى يردَّه إلى موضعه من اتِّصال الكلام (...) ثم يصير هذا الكتاب بعد ذلك نسخةً لإنسان آخر، فيسير فيه الورَّاقُ الثاني سيرةَ الورَّاقِ الأول، ولا يزال الكتابُ تتداوله الأيدي الجانية، والأعراض المُفسدة، حتى يصير غلَطاً صرفا، وكذباً مصَمتا، فما ظنُّكم بكتاب تتعاقبه المُترجمون بالإفساد، وتتعاوره الخُطَّاطُ بشَرٍّ من ذلك أو بمثله، كتابٍ متقادمِ الميلاد، دهْريِّ الصنعة» (١/٧٩).

ويلاحظ أن كثيراً من محققي الكتب في العصور الحديثة قد أثبتوا في مقدمات تحقيقاتهم القسمَ الأول من قولة الجاحظ هذه، وأن هذه القولة لم تزد عليها أعصر الثقافة شيئاً، وستظل جامعة لمعاناة كل مَن يُواجهُ مخطوطاً ويَسعى إلى إخراجه إخراجاً علميَّاً يرقى به إلى شيء قريب من حقيقته الأولى التي ظهر عليها عند صاحبه. وتكشف قولة الجاحظ عن خطريْن يتعرض لهما المخطوط في أثناء استعماله؛ أولهما: تداولُه بين النُّساخ والوراقين، وما قد يُصيبه أثناء ذلك من تصحيفات وتحريفات، وثاني الخطريْن ما يتعرّض له الكتاب من تشويه لأفكار صاحبه نتيجة سوء الترجمة. فكيف يكون حظ الكتاب من الصحة إذا تعاقب عليه الوراقون والمترجمون بالإفساد والتشويه؟ ويختار الجاحظ أن تكون كتُبُه كلها من الورق الصيني ومن الكاغذ الخراساني حتى تتحمَّل أحوال الطقس وظروف

التداول بين مستعمليها والمستعرين لها؛ وهي بهذا تكون «أبقى على تعاور العارية وعلى تقليب الأيدي»[1].

(١٧) إشاعة الكتب بين القراء والدعاية لها

يحتاج الكِتَاب في سيرورته في التاريخ أن يَحظى بعناية القراء؛ فيتمُّ تداوُلُه بينهم فيُصان ويُخلد. ونجد الجاحظ يؤلِّف كتابَه في نفي التشبيه لمحمد بن أحمد بن أبي دواد، فيَحُثُّه على قراءته، وعلى تخليده وتدوينه، ويدعوه أن يُكلِّف مَن يُعين على صيانته «من المُوافقين والإخوان الصالحين» وعلى نشره بين الناس، «وأن يَبُثُّوهُ ويُشيعوه. وقد كنتُ على ذلك قادراً، وبه مستوصيا؛ ولكنَّ الرجلَ الرفيعَ إذا رفع الشيءَ ارتفع، كما أنه إذا وضع الشيء اتضع»[2].

وهذا أسلوب من أساليب الدعاية للكتاب؛ لأنه يأتي على يدي أحد الكبراء أصحاب النفوذ، ومَن وافقَه من أهل الصلاح.

(١٨) جمع أوراق الكتاب وتغليفه

ويُعطينا الجاحظ معلومات تُفيد في التأريخ للكتاب العربي، وتتعلَّق بالتكوين المادي للكتاب وذلك بالحديث عن الأوراق والكراريس، وكيفية شدُّها وصيانتها قبل أن تُنظَّم وتوضع بين دفتيِّ الكتاب، مع مراعاة تصنيف المواد وترتيبها وتقسيمها إلى أجزاء. وهذا قولٌ لأحدهم يرويه الجاحظ، ويُقدم من خلاله إفادات قيِّمة حول صناعة الكتاب، وحول التنظيم المادي والفني له. والقول هو: «إني لأعجبُ ممَّن ترك دفاترَ علْمه مفرقة مبثوثَةً، وكراريسَ درسه غير مجموعة ولا منظومة، كيف يُعَرِّضُهَا لِلتَّجرُّم[3]، وكيف لا يمنعها من التفَرُّق.

١- رسالة في الجد والهزل :١/٢٥٣ .

٢- رسالة في نفي التشبيه : ١/٢٩١ .

٣- من الجَرْم وهو القَطع، شجرة جَرِمَة : مقطوعة (اللسان : جرم).

وعلى أن الدفتر إذا انقطعت حزامَتُه، وانحلَّ شَدَّادَه، وتخَرَّمَتْ رُبُطُه، ولم يكن دونه وِقايةٌ ولا جُنَّةٌ، تَفَرَّقَ وَرَقُه؛ وإذا تَفَرَّق ورقُه اشتَدَّ جمعُه، وعسُر نظمُه، وامتنعَ تأليفُه، وربما ضاع أكثره. والدفتان أجمعُ، وضَمُّ الجُلود إليها أَصْوَنُ، والحَزْمُ لها أصلحُ. وينبغي للأشكال أن تُنظَّم وللأشباه أن تُؤَلَّف؛ فإنَّ التأليفَ يزيد الأجزاءَ الحسنةَ حُسنا، والاجتماع يُحدث للمتساوي في الضعف قُوَّةً. فإذا فعلتَ ذلك صرتَ متى وجدت بعضَها فقد وجدتَ كُلَّها، ومتى رأيتَ أدناها فقد رأيتَ أقصاها؛ فإن نشِطتَ لقراءة جميعها مضيتَ فيها»[(١)].

ويقول: «وإذا كانت منظومةً ومعروفةَ المواضع معلومة، لم تحتج إلى تقليب القماطر على كثرتها، ولا تفتيش الصناديق مع تفاوت مواضيعها، وخفت عليك مئونتها وقلت فكرتك فيها، وصرفت تلك العناية إلى بعض أمرك، وادخرت تلك القوة لنوائب غدك.

وعلى أن ذلك أدَلّ على حبك للعلم، واصطناعك للكتب، وعلى حسن السياسة، والتقدم في أحكام الصناعة»[(٢)].

وممّا يُستفاد من أقول الجاحظ هذه:

- أهمية التأليف بين محتويات الكتاب، والربط بين مباحثه وفصوله وأبوابه.

- ضرورة وضع أوراق الكتاب بين دفتين لصيانته من التفتت وضياع الأوراق، والحفاظ على بنائه الداخلي.

- والعناية بالكتاب بالصورة التي قدمها الجاحظ تدل على حبه للعلم.

١- رسالة في الجد والهزل :٢٤٦/١ – ٢٤٧ . (ونشر من هذه الرسالة شذرات بعنوان: الجدِّ والهزل).

٢- رسالة في الجد والهزل :٢٤٦/١-٢٤٧ .

(١٩) الكتاب خيرُ ما يُهدى

وإهداء الكتُبُ وتداولها بين الناس مما يُقوي علاقات المحبة والتوادد بين الناس، ويُشيع العلم بينهم، ويجعلهم يتقاسمون الأفكار بينهم. استشهد الجاحظ بقول الرسول ﷺ:«تَهادَوْا تَحابُّوا». وعلّق عليه بقوله: «فحثَّ على الهديَّة وإن كان كُراعاً وشيئا يسيراً. وإذا دعا إلى اليسير الحقير فهو إلى الثمين الخطير أدعى، وبه أرضى. ولا أعلمُ شيئاً إلى التحابّ، وأوجبَ إلى التهادي، وأعلى منزلة وأشرفَ مرتبةً، من العلم الذي جعلَ اللّه العملَ له تبعاً، والجنةَ له ثواباً»[١].

ومما ساقه في شأن إهداء الكتب قوله: «وعندي – مد اللّه في عمرك – كتُبٌ سوى هذا الكتاب، وليس يمنعني مِن أن أُهديَها إليك معاً إلا ما أعرفه من كثرة شغلك، وكثرة ما يلزمك من التدبير في ليلك ونهارك» [٢]. ونجد الجاحظ في نهاية رسالته فصل ما بين العداوة والحسد يقول لمن كتب إليه هذه الرسالة: «وزادك اللّه شرفاً وفضلاً وعلماً ومعرفةً، ولا زلتَ بالمكان الذي يُهدى إليك فيه الكتب» [٣].

وعندما أراد الجاحظ اللقاء بمحمد بن عبد الملك الزيات وزير المعتصم ، ففكَّر في شيء يُهديه له بتلك المناسبة، قال: «فلم أجِد شيئاً أشرفَ من كتاب سيبويه، فلما وصلتُ إليه قلتُ له: لم أجدْ شيئاً أُهديه لك مثل هذا الكتاب، وقد اشتريتُه من ميراث الفراء، فقال: واللّه ما أهديتَ إليَّ شيئاً أحبَّ إليَّ منه». وقد قيل إن ابن عبد الملك الزيات قال للجاحظ: «أَوَظنَنْتَ أن خزانتَنا خاليةٌ من هذا الكتاب؟ فقال الجاحظ: ما ظنَنْتُ ذلك، ولكنها

١– في كتاب الفتيا : ٣١٥/١ .

٢– نفسه: ٣١٨/١ .

٣– فصل ما بين العداوة والحسد: ١/ ٣٧٣ .

بخط الفراء ومُقابلة الكسائي، وتهذيب عمرو بن بحر الجاحظ، يعني نفسه، فقال ابن الزيات: هذه أجل نسخة توجَدُ وأعزُّها، فأحضرها إليه، فسُرَّ بها ووقعتْ منه أجمل موقِع»[1].

١- وفيات الأعيان: ٣/٤٦٣ .



المبحث الخامس

حول منهجية تأليف الكتاب

تمهيد:

كانت للجاحظ تصورات رصَد من خلالها تكوُّن الكتاب منذ كان بين يديه كومة أوراق، إلى أن أصبح كياناً معرفيا له وضعه التداولي الخاص بين القراء. فكيف تصوَّر الجاحظ وضع المعرفة داخل دفتي كتاب ما وما هو المنهج الذي رسمه للمؤَلِّف في إيصال المعرفة إلى القارئ؟ ما هي الآراء التي حدَّد بها الجاحظ ملامح التأليف في كتبه ورسائله، وأسهم بها في بناء منهج التأليف في حضارة الإسلام. سأتناول – فيما تبقى من مباحث – دور المُؤلِّف، وما ينبغي أن يكون عليه الكتاب في منحاه المنهجي، ودور القارئ في تلقِّي الكتاب. وما ينبغي التنبيه إليه أن مجمل هذه القضايا المنهجية التي تركها لنا الجاحظ لا تنفصل عن تجربته في عالم التأليف، ومعاشرته الدائمة للكتب، وهي في مجملها تُقدم صورة عن طريقة تأليف الكتاب في لحظة تأسيس كيان ثقافي إسلامي عربي، وتُدشِّن مرحلة جديدة في تاريخ المعرفة الإنسانية بشكل عام.

(١) الجاحظ وتاريخ التأليف

عاش الجاحظ في مناخ علمي نشطت فيه حركة التأليف والترجمة، وساعد على ذلك تصنيع الورق وانتشاره؛ فانتشرت الكتابة في كثير من الأقطار. ونجد عند الجاحظ إشارات إلى تاريخ التأليف عند العرب:

أحصى أربعة عشر رجلا ألّفوا في الأنساب، عاش أكثرهم في الجاهلية، وعند ظهور الإسلام (٣/٢٠٩ – ٢١٠)؛

أشاد الجاحظ بمجموعة اشتهرت بالشعر والأخبار والأنساب وأيام العرب، وهم مخرمة بن نوفل وأبو الجهم بن حذيفة، وحويطب بن عبد العوى، وعقيل بن أبي طالب [١].

١– البيان والتبيين:١/٣٢٣ .

ذكر أن خالد بن يزيد بن معاوية، كان أول مَن ترجم كتب النجوم والطب والكيمياء[1].

أشار الجاحظ إلى معاناة الوراقين من انتساخ الكتب وتصحيحها وتجليدها ونشرها بين الناس، وقد ألف رسالتين الأولى في مدح الوراقين والثانية في ذمهم، كما رأينا. ونجده يُشير إلى جلوس الناس إلى دكاكين الوراقين.

(٢) قول «ديمقريط» في تأليف كتب العلم

أورد الجاحظ قول «ديمقريط» في تأليف كتب العلم في كتاب الحيوان: «ينبغي أن يُعرَفَ أنه لا بد من أن يكون لكل كتابِ علم وَضَعَه أحدٌ من الحكماء، ثمانية أوجه: منها الهمة، والمنفعة، والنسبة، والصِّحة، والصنف، والتأليف، والإسناد، والتدبير. فأولها أن تكون لصاحبه هِمة، وأن يكون فيما وضع منفعة، وأن يكون له نسبة يُنسبُ إليها، وأن يكون صحيحاً، وأن يكون على صِنف من أصناف الكتب معروفاً به، وأن يكون مؤتلفا من أجزاء خمسة، وأن يكون مسنداً إلى وجه من وجوه الحكمة، وأن يكون له تدبير موصوف»(١٠١/١).

وهذا القول لم يَلْقَ أدنى عناية لا مِن الجاحظ ولا مِن غيره؛ فلم يتردد عند أهل التأليف في الثقافة العربية، ولم يكن الشرح الذي أورده واضحا لتطبيقه في منهج التأليف عند الجاحظ وعند الذين جاءوا بعده. هل يُمكن القول إن هذه الوجوه الثمانية هي التي تحوَّلت فأصبحت تُسمّى الرؤوس الثمانية؟ ما أبعد هذا عن التصديق!

وأيّ معنى لقوله أن يكون مؤتلِفاً من أجزاء خمسة؟ أتكون هذه إحالة على تقسيم التراجيديا الإغريقية إلى خمسة فصول؟ وهذا أبعد في التقدير!

١- البيان والتبيين:٣٢٨/١.

(٣) بناء الكتاب وتصميمه

يُعنَى المؤلفون عادة، بعد جمع المادة وتحصيلها، بتحديد أبواب الكتاب وفصوله، وكان لهم حِرْصٌ على تنسيق مواد الكتاب وما قد يكون لها من تفريعات حسب ما يقتضيه موضوع البحث وما يُحقق الترابط والانسجام بين عناصره ومباحثه. فترى الجاحظ يرى ضرورة «ضم كل جوهر نفيس إلى شكله، وتأليف كلِّ نادرٍ من الحكمة إلى مثله «على حد تعبيره»[١]. أي أن يقوم الكاتب بضمِّ كلِّ إِلْفٍ إلى إِلفِهِ، وكل صِنْفٍ إلى صنفه؛ فيتحقَّقُ التأليف والتصنيف. «فواضع الكتاب ضامن لتخليصه وتلخيصه، ولتثبيته وإظهاره»(٦/١٤).

وكان الجاحظ على وعي بما يرتضيه من منهج في بناء كتابه، وما تقتضيه طرق الاستدلال لتبليغ مقاصده إلى مَن سيتلقى كتابَه على الوجه المقبول، كقوله في رسالة في نفي التشبيه: «وقد بينتُ ذلك بالوجوه القريبة، والدِّلالات المختصرة، وبالأشعار الصحيحة، والأمثال السائرة، واستشهدْتُ الكلامَ المعروف، والقياسَ على الموجود»[٢].

ووجدت أن إحساس الجاحظ بتبويب كتاب الحيوان ظل يؤرقه طيلة تصنيفه للكتاب، فتراه مثلا يقول :«وسنبدأ بعون الله تعالى وتأييده، بالقول في الحشرات والهَمَج، وصغار السباع، والمجهولات الخاملة الذكر، ونجعل ذلك بابا واحداً» (٦/٩)، ويُنبه قارئه أن ذلك الباب يشمل أبوابا كثيرة، ثم يعود إلى أحجام أبواب الكتاب بين الطول والقصر، فيقول: «ولعل هذا الجزء الذي نبتدئ فيه بذكر ما في الحشرات والهَمَج، أن يَفضُل من ورقه شيء، ونُتمَّه بجملة القول في الظباء والذئاب؛ فإنهما بابان يقصُران عن الطول، ويزيدان على القِصار.

وقد بقيَ من الأبواب المتوسطة والمُقتصِدة المعتدلة، التي أخذت من القِصَر

١- رسالة في الحنين إلى الأوطان: ٢/٣٨٣ .

٢- رسالة في نفي التشبيه: ١/٢٨٩ .

لمن طلب القِصَر بحظ، ومن الطول لمن طلب الطول بحظ» (١١/٦).

وبعد أن يُحدد موضوعات ما أسماه الأبواب الكبيرة يقول عن الأبواب الأخر إنها «من الأبواب المعتدلة في القِصَر والطول، وليس من الأبواب بابٌ إلا وقد يدخله نُتَفٌ من أبواب أخر على قدر ما يتعلّق بها من الأسباب، ويعرِضُ فيه من التضمين» (١٥/٦).

ونجد الجاحظ يُقدِّمُ تصوُّراً واضحاً لتصميم الكتاب في نص أورده ياقوت في مقدمة معجم البلدان، وهو قولُه:«وقد حُكِيَ عن الجاحظ أنه صنف كتابا وبوَّبَه أبواباً، فأخذه بعض أهل عصره فحذف منه أشياء وجعله أشلاء، فأحضره وقال له: يا هذا إن المصنف كالمصور وإني قد صنفت في تصنيفي صورةً كانت لها عينان فعوَّرْتَهُما، أعمى الله عينيك، وكان لهما أذنان فَصَلَّمْتَهما، صَلَّمَ الله أذنيك، وكان لهما يدان فقطَعْتَهما، قطع الله يديك، حتى عدَّ أعضاء الصورة، فاعتذر إليه الرجل بجهله هذا المقدار، وتاب عليه عن المعاودة إلى مثله»[١].

إن مَن يجعل تصميم الكتاب في شكل صورة إنسانية؛ لها بنيتُها ولكل عضو منها له وظيفتُه الخاصة؛ لا يكون إلاَّ الجاحظ في تاريخ الثقافة العربية.وإن تشبيه تصميم البحث بالكائن الحيّ لِمَّا يُحسَبُ للجاحظ. هذا مع العلم أن الجاحظ هو مَن ظل متهماً بالاستطراد في تاريخ الكتابة عند العرب إلى يومنا هذا، كما سنرى في المبحث السابع.

(٤) مقدمة الكتاب وإعجاب مؤلفه به

تناول الجاحظ جودة الابتداء عامة، جاء في البيان والتبيين:« قال شبيب بن شيبة (نحو ١٧٠هـ): «الناس مُوَكَّلون بتفضيل جودة الابتداء، وبمدح صاحبه (...) وأسموها: جودة الابتداء»[٢].

١- معجم البلدان: ١/١٣ – ١٤ .

٢- البيان والتبيين:١/١١٢ .

ولعله أول مَن استعمل لفظ مقدمة وتوطئة في رسالته المسائل والجوابات في المعرفة، حين قال: «ولولا أن هذا الكلام لم يكن من ذكره بد، لأنه تأسيس لما بعده، ومقدمة لما بين يديه، وتوطئة، لاقتضبتُ الكلام في المعرفة اقتضابا، ولكن يمنعني عجزُ أكثر الناس من فهم غايتي فيه إلا بتنزيله وترتيبه»[1].

لقد أدرك الجاحظ أهمية المقدمة؛ لأنها تُؤسِّسُ وتحدد فيها الغاية من التأليف، وتُوطِّئُ لما بعدها. ولا تخلو مقدمة كتاب – في الأعم – من الإعجاب بالنفس. وقد ذكر فِهرستا لبعض مؤلفاته في مقدمة كتابه الحيوان، وما عابهُ بها أحدهم وقال مُعربا عن إعجابه بكتابه هذا: «وهذا كتاب تستوي فيه رغبةُ الأمم، وتتشابه فيه العُرْبُ والعجم؛ لأنه وإن كان عربياً أعرابياً، وإسلامياً جماعياً، فقد أخذ من طُرَفِ الفلسفة، وجمع بين معرفة السماع وعلم التجربة، وأشرك بين علم الكتاب والسنة، وبين وجدان الحاسة، وإحساس الغريزة. ويشتهيه الفِتيانُ كم يشتهيه الشيوخُ»(١/١١).

كيف يكون الكتاب عربياً أعرابياً ويتجاوب مع أهل الإسلام وإن اختلفت آراؤُهم وتنوّعتْ اجتهاداتهم؟ كيف يكون كتابٌ تتعايش في ثناياه الفلسفة والسماع والتجربة، ويشترك فيه علمُ الكتاب والسنة بما لا يُختلف مع طبيعة الإنسان؟ وأيُّ كتابِ هذا الذي يشتهيه الفتيان والشيوخ؟ قد نتساءل عن صحة هذا الوصف. وهل وُجد كتاب في المكتبة العربية بهذا الوصف، إن لم يكن من كُتُب الجاحظ؟

إنّ الجاحظ هنا لا يتحدث هنا عن مضمون كتابه، وإنما يعرب عن أهمية كتابه وما يتميز به عن سواه، في نغمة لا تخلو من إعجاب.

يقول في كتابه فصل ما بين العداوة والحسد، وما حقَّقَه فيها مِن إبداع لم يُسبَقْ إليه:«هذا كتاب (...) نبيل بارعٌ، فُصِلَ فيه بين الحسد والعداوة، لم يسبقني إليه أحدٌ، ولا إلى كتاب فَضْل الوعْد الذي تقدم

١- المسائل والجوابات في المعرفة :٤/٦٥ .

هذا الكتاب، ولا إلى أخلاق الوزراء الذي تقدم كتاب الوعد. وإنما نَبُلَتْ هذه الكُتُبُ وحسُنت وبرَعَت وبذَّتْ غيرَها، لمُشاكلتها شرفَ الأشراف، بما فيها من الأخبار الأنيقة الغريبة، والآثار الحسنة اللطيفة، والأحاديث الباعثة على الأخلاق المحمودة، والمكارم الباقية المأثورة»[1].

فالجاحظ يذكر هنا ثلاثةً من كتبِه، هي: فصل ما بين العداوة والحسد – فضْل الوعْد – أخلاق الوزراء وكان هاجس الإبداع هو المُوجِّه له في تأليفها؛ ويقول إنه لم يُسبَقْ إلى واحد منها، وإنَّها بذَّتْ غيرَها، وسمتْ عليها بحسنِها. ووصف كتبَه هذه بالبراعة والتفوُّق العلمي على ما كُتِبَ في موضوعها. وكيف لا تكون كذلك وهي التي جمعتْ: الأناقة والحُسن واللطف، وكانت باعثة على ما يُحمَد من مكارم الأخلاق.

والجاحظ يبدأ مقدماته عادة بالدعاء وهو تقليد في الكتابة عنده، كما فعل في كتاب الحيوان، حين بدأه بقوله: «جنَّبَكَ اللّه الشُّبهةَ، وعصمَكَ من الحيْرة، وجعل بينك وبين المعرفة نسباً، وبين الصدق سبَباً، وحبَّبَ إليك التثبُّت، وزيَّنَ في عينك الإنصاف، وأذاقك حلاوة التقوى، وأشعر قلبك عِز الحق، وأودع صدرك برْدَ اليقين، وطرد عنك ذل اليأس، وعرَّفك ما في الباطل من الذلة، وما في الجهل من القلة»(١/٣).

وقال في دعاء خطبة رسالته مناقب الترك: «وجعلنا وإياك ممن يقول بالحق ويعمل به، ويؤثره ويحتمل ما فيه مما قد يصدُّه عنه، ولا يكون حظه الوصفَ له والمعرفة به، دون الحث عليه والانقطاع إليه، وكشف القناع فيه، وإيصاله إلى أهله، والصبر على المحافظة في ألاَّ يَصِلَ إلى غيرهم، والتثبُّتِ في تحقيقه لديهم، فإن اللّه تعالى لم يُعلم الناس ليكون عالمين دون أن يكونوا عاملين؛ بل علمهم ليعملوا منهجه.»[2]

١– فصل ما بين العداوة والحسد : ١٦٥

٢– مناقب الترك :١/٥ .

فالعلم والعمل وجهان لعملة واحدة إذا انفصل أحدُهما عن الآخر اختلَّ ما به تستقيم حركة الحياة. وقول الحق لا يقِف عند الوصف له والمعرفة به؛ وإنما يقتضي العمل به والسير على نهجه. وارتباط العلم بالعمل قضية جوهرية في حضارة الإسلام، وقد أكَّد عليها الجاحظ أكثر من مرة.

(٥) بواعث تأليف الكتاب: الأسباب والدواعي

ومن الجوانب المنهجية في التأليف، التي تأتي عادةً في مقدمات الكتب؛ عنايةُ المؤلِّفين بالكشف عن السبب الحامل على التأليف أو ما يُقال له دواعي التأليف.

ونجد أبا عثمان ينظر إلى هذه المسألة في بداية رسالته في الحنين إلى الأوطان قائلاً: «إن لكل شيء من العلم، ونوع من الحكمة، وصنفٍ من الأدب سبباً يدعو إلى تأليف ما كان مُشتتاً، ومعنىً يحدو على جمع ما كان منه متفرقاً. ومتى أغفل حَمَلَةُ الأدب وأهل المعرفة تمييز الأخبار واستنباط الآثار، وضمَّ كلِّ جوهرٍ نفيسٍ إلى شكله، وتأليف كل نادر من الحكمة إلى مثلِه؛ بطلت الحكمة وضاع العلم، وأُميتَ الأدبُ ودرسَ مستور كلِّ نادر»[١].

وهو ما يُعرف بالقول في علة وضع الكتاب، والجاحظ هنا ينهج طريقة التنظير لدواعي التأليف في جمْع ما تفرّق؛ وهو من أساليب التأليف في حضارة الإسلام؛ حين يضُمُّ المؤلف كل شكل إلى شكله مما كان مُفرّقاً. ونبَّه علي بن خلف (ق٥هـ) في كتابه مواد البيان إلى ضرورة تحديد أسباب التأليف بقوله: «المعرفة بوضع الكتاب يدل على السبب الذي من أجله وُضع الكتاب»[٢].

١- الحنين إلى الأوطان: ٢/٣٨٣.

٢- مواد البيان ص، ٩٢. وينظر: مقدمة الكتاب في التراث الإسلامي وهاجس الإبداع، ص١٢٩ –١٣٢.

(٦) تداعي المعاني في التأليف

يرى الجاحظ أن مؤلِّف الكتاب يعتريه أثناء الكتابة ما يعتري أحد المؤدِّبين حين يضرب مَن يُريد تدريبَه، فإنه يبتدئ الضرب وهو ساكن الطباع، وما أن يشرع في الضرب حتى يتحرَّكَ دمُه؛ فيُشيع فيه الحرارةَ فَيزدادُ ضربُه بازدياد غضبه.» فما أكثرَ مَن يَعزِمُ على خمسة أسواط فيضرب مائة !» فيُريه الغضبُ أنَّ الرأيَ في الإكثار. «وكذلك صاحب القلم، فما أكثر مَن يبتدئ الكتابَ وهو يُريد مقدار سطرين، فيكتب عشرة !» (١/٨٩).

ولو أن الإنسان رجع إلى ما كتبه لغيَّر رأيه فيما كتبه؛ بسبب تداعي المعاني لحظةَ مراجعة ما كُتِب. ومِمّا وصف به الجاحظ محمد بن عبد الملك الزيات وتعجب، قولُه: «ما يقولون في رجلٍ لم يقلْ قطُّ بعد انقطاع خصومته وذهابِ خصمِه: لو كنتُ قلتُ كذا كان أفضل، أو كنتُ لم أقلْ كذا كان أمثل» [١].

ولعل ما وصَفَ به الجاحظ هنا ابن الزيات، كان من الأصول الأولى للعبارة المشهورة التي تعاورتها الأقلام، وهي عبارة القاضي الفاضل (٥٩٦هـ) في إحدى رسائله إلى عماد الدين الأصفهاني(٥٩٧هـ)، وهي قوله: «إني رأيتُ أنه لا يكتب إنسانٌ كتاباً في يومه إلاَّ قال في غده: لو غُيِّرَ هذا لكان أحسن، ولو زُيِّن كذا لكان يُستحسن، ولو قُدِّم هذا لكان أفضل، ولو تُرِك هذا لكان أجمل، وهذا من أعظم العِبَر، وهو دليل على استيلاء النقص على جملة البشر» [٢].

وهل يعني هذا أن المؤلِّف يكتب كما اتفق، ولا يَحسب ألف حساب لقارئ كتابِه؟ هل بإمكانه أن ينسى أنه بإخراجه لكتابه يُصبح عقلُه معروضا أمام أنظار القراء، أي أنه يُصبح هدفاً لِسهام النقد، ولرأي كل مَن قرأ كتابَه؟

١- التربيع والتدوير:٣/٧٢.

٢- كشف الظنون عن أسماء الكتب والفنون: ١٨/١ – ينظر: مقدمة الكتاب في التراث الإسلامي وهاجس الإبداع، ص١٣٨.

(٧) لغة الكتاب بين الإفهام والإغماض

والجاحظ دافع عن الوضوح في البيان العربي، وتنقية الأساليب من كل ما يحول دون إفهام المعاني، وقدَّم صورة ناصعة من أدائه البياني في مجمل آثاره. يقول الجاحظ: «وليس الكتابُ إلى شيء أحوجَ منه إلى إفهام معانيه، حتى لا يحتاج السامع لما فيه من الروية ، ويحتاج من اللفظ إلى مقدارٍ يرتفع به عن ألفاظ السِّفْلَة والحَشْو، ويحُطُّه من غريب الأعراب ووحشي الكلام، وليس له إلا أن يُهذبه جدا، ويُنقِّحَه ويُصفِّيَه ويُروِّقَه؛ حتى لا يَنطق إلا بلُب اللب، وباللفظ حذَفَ فضولَه وأسقطَ زوائدَه حتى عاد خالصاً لا شوْبَ فيه؛ فإنّه إنْ فعَلَ ذلك، لم يُفهَمْ عنه إلاَّ بأنْ يُجدِّدَ لهم إفْهاماً مِراراً وتَكراراً لأن الناس كلهم قد تعودوا المبسوط من الكلام، وصارت أفهامهم لا تزيد على عاداتهم إلا بأن يعكس عليها ويُؤخذ بها»(١/٨٩ – ٩٠).

ومَن دافع عن البيان العربي أمام الحركة الشعوبية خلال النصف الأول من القرن الهجري الثالث مثل الجاحظ؟ لقد جعل البيان قوة إنسانية تُعرِبُ فيها النفسُ عن مكنونها، وتُصوِّر العبارة حركتَها على قدر انفعالها في الوجود. وهذه القوة الإنسانية هي القادرة على التجاوب مع حقيقة الإعجاز في القرآن الكريم. فالله تعالى علّمَ الإنسان البيان، وجعل القرآنَ بيناً للناس. «ومُدِحَ القرآنُ بالبيان والإفصاح، وبحسن التفصيل والإيضاح، وبجودة الإفهام وحكمة الإبلاغ»[١].

فكيف ينبغي أن تكون لغة الكتاب

يُقدِّمُ الجاحظ نموذجين من الكتب التي استغلقت معانيها عن الأفهام، ولم يَتحقّق فيها الإفصاحُ عن مقاصد أصحابها. يقول: «ألا ترى أن كتابَ المنطق الذي قد وُسِمَ بهذا الاسم، لو قرأتَه على جميع خطباء الأمصار وبُلغاء الأعراب، لمَا فهِموا أكثَرَه، وفي كتاب إقليدسَ كلامٌ يدورُ، وهو عربيٌّ

١– البيان والتبيين:١/٨ .

وقد صُفِّيَ، ولو سمعه بعضُ الخطباءُ لَمَا فهمه، ولا يُمكنُ أن يُفَهِّمَه مَن يُريدُ تعليمَه؛ لأنه يَحتاجُ إلى أن يكونَ قد عرَفَ جِهةَ الأمر، وتعوَّدَ اللفظَ المنطقيَّ الذي استُخرِجَ من جميع الكلام» (١/٩٠).

نلمَحُ هنا شيئاً من سخرية الجاحظ بكتاب وُسِم بالمنطق، ولا منطقَ فيه يُسعفُ على إيصال مراد صاحبه منه. وفي هذا إشارة إلى ما كانت عليه بعضُ الكتب المترجمة من الغموض والاستغلاق حتى عند أهل الخطابة.

ونجدُ هناك من المؤلفين مَن يقصدون إلى استغلاق كتبهم عن عَمْد؛ بقصد الحصول على المال، كما فعل الأخفش (سعيد بن مسعدة ٢١٥هـ). فالجاحظ يسألُه – وهو أعلم الناس بالنحو في زمانه – عن سبب تقديمه للعويص في كتبه وتأخيره للمفهوم منها، ولمَ لا يجعل كتبَه مفهومةً كلَّها؟ وما بالُ الناس يفهمون بعضها ولا يفهمون أكثرَها؟ ولمَ يُقدِّمُ العويصَ منها ويُؤَخِّرُ المفهوم؟ فأجاب الأخفش: «فأنا أضع بعضَها هذا الوضعَ المفهومَ لتدعوهم حلاوة ما فهِموا إلى التماس فهْم ما لمْ يَفهموا، وإنما كسبْتُ في هذا التدبير، إذ كنتُ إلى التكسب ذهبتُ»(١/٩٢).

فنجد الأخفش يتخذ وسيلته هذه في التأليف عن قصد ليزداد إقبال القراء إلى كتبه؛ فيزداد دخْلُه منها. وللدفاع عن موقفه هذا، يرى أن كُتُبَ إبراهيم النظام (وهو أحد شيوخ الجاحظ) وغيره من المؤلفين، لا يُفهَمُ أكثرُها.

(٨) الكتاب بين الإيجاز والإسهاب، ومسألة حجم الكتاب

ومن الأساليب التي ترددت كثيرا في مقدمات الكُتُب، وكانت في عِداد أدوات المنهج؛ قولُ أهل التأليف بضرورة الاعتدال في التأليف بين الإطالة والإيجاز، وهو أمر ظل الجاحظ يدعو إليه في الكتابة عامة، كقوله: «وللإطالة موضعٌ وليس ذلك بخطل، وللإقلال موضعٌ وليس ذلك من عجز» (١/٩٣). وقد سبَق إلى القول «وما فضُل عن المقدار هو الخطَل»(١/٩١).

وأكّد الجاحظ على ضرورة الاقتصار على مقدار البُغية حتى لا يزيد الكلام على الحاجة. يقول: «على أن الكلام ينبغي ألاَّ يكثر وإن كان حَسَناً كلُّه؛ إذا كان السامع لا ينشَط له، وجازَ قَدْرَ احتمالِه؛ لأنَّ غايةَ المتكلم انتفاعُ المستمع»[1].

ولاحظ الأستاذ طه الحاجري أن الجاحظ يُراوِح في طريقته في التأليف «بين الأحاديث الطويلة والرسائل المسهبة، بالطُّرف القصيرة والنوادر المقتضبة؛ إيثاراً لاستهواء القراء، وحرصاً على استجلاب رغبتهم، ودفع السآمة والملل عنهم» [2].

وكثرة عدد أوراق الكتاب لا تدعو إلى الإملال، «لأنه وإن كان كتاباً واحداً فإنه كتب كثيرة، وكل مُصحف منها فهو أمٌّ على حِدَة فإن أراد قراءة الجميع لم يَطُل عليه الباب الأولُ حتى يهجم على الثاني، ولا الثاني حتى يهجم على الثالث، فهو أبداً مستفيد ومُستطرِف، وبعضُه يكون جَماماً لبعض، ولا يزال نشاطُه زائداً» (١/٩٣).

أما إذا كانت النفوس تحن إلى الطرائف فإنها تستثقل الكثرة، كما يقول: «إلاَّ أني لا أشك على حال أن النفوس – إذا كانت إلى الطرائف أحن، وبالنوادر أشغف، وإلى قِصار الأحاديث أميل وبها أصب – أنها خليقة لاستثقال الكثير، وإن استحقت تلك المعاني الكثيرة، وإن كان ذلك الطويل أنفع، وذلك الكثير أرد»[3] (٦/٨ – ٩).

والمؤلف إذا لم يَجِدْ مَن يُنازعه فيما يذهب إليه، أو يعترض عليه؛ تراه «يزداد نشاطاً عندما يرى من خلاء الأمر. وقد قيل: (كل مُجرٍ في الخلاء يُسَرُّ)، وكل مُناظر مُتَفَرِّد بالنظر مسرور، وإنما يُعرف جريُ الخيل عند المسابقة، وبراعةُ النظر عند المخاصمة»[4].

١– رسالة في نفي التشبيه:١/٢٨٩ .

٢– الجاحظ حياته وآثاره: د. طه الحاجري ، ص٣١ .

٣– أردُّ : أنفعُ (اللسان: رد)

٤– فصل ما بين العداوة والحسد: ٣٤٢/١

(٩) قيمة الكتاب في معانيه

والكتاب – في تصور الجاحظ – لا تُقاس قيمته بأن يكون وعاء لتهاويل فارغة من كل حقيقة، ولألفاظ فارغة من كل معنى، كما هو حاصل فيما يكتبُه كثير من أهل زماننا، يقول: «والأصل في ذلك أن الزنادقة أصحاب ألفاظ في كتبهم، وأصحاب تهويل؛ لأنهم حين عدِموا المعانيَ ولم يكن عندهم فيها طائل، مالوا إلى تكلف ما هو أخصرُ وأيسرُ وأوجز كثيراً» (٣/٣٦٥).



المبحث السادس

منهجية تأليف الكتاب بين المؤلف والقارئ

(١) فتنة الرجل بكلامه وكُتُبه فوق فتنته بولِده

إن الغاية من كل بحث علمي أن يأتي صاحبُه بشيء جديد لم يُسبَق إليه، وكل مؤلِّف يروم أن يُحقِّق إضافة في المجال الذي خاض فيه؛ ينبغي أن يتِمَّ به إثراءُ التجربة الإنسانية. وهذا الإعجاب بما يُبدعه الإنسان في مجالات الفكر البشري، من المشاعر الإنسانية المعقدة التي يختلط فيها الجانب العلمي الذي يتطلع إلى كل جديد، بالجانب النفسي الذي يمتزج فيه غرور الذات بحب التملك في الإنسان. وكثيراً ما يعتري الإنسان شيء من العُجب بما تولَّد من بنات أفكاره، فيُبالِغ في تقدير ما أتى به. والأولى أن يتواضع ولا يُبالِغ في تقدير ما أنجزه؛ لأن ما أُوتِيَه – إن كان مِن أهل المعرفة حقاً – يظلُّ قليلا شأن متاع الدنيا. وقد قيل قديماً: «بحسب الرجل من الجهل أن يُعجَب بعلمه»[١].

وليَكشف لنا الجاحظ عن مدى ذلك العُجب الذي يَعتري مَن أتى بشيء لم يُسبَقْ إليه؛ نراه يُقارن بين مولود يُولدُ وبين كتاب يُكْتَبُ، فيُحدثنا عن أيهما أقربُ إلى نفس الأب/المؤلِّف؛ أهو الولَدُ أم الكتاب. فبالرغم من أن الوالد يَحسُنُ في عينه منْ وَلَده ما يَقْبُحُ في عيْن غيره؛ فإن كتاب المؤلِّف يكون لفظُه «أقرب نسباً من ابنه، وحركَتَه أمَسُّ به رحِماً من ولده؛ لأنَّ حركَتَه شيءٌ أحدثَه من نفسه بذاته، ومن عين جوهره فَصَلَت، ومن نفسه كانت؛ وإنما الوَلَد كالمَخْطة يتمَّخَطُها، والنُّخامة يَقذفُها، ولا سواءٌ إخراجُك من جزئكَ شيئاً لم يكن منك، وإظهارُك حركةً لم تكن حتى كانت منك. ولذلك تجِدُ فتنةَ الرجل بشعره، وفتنتَه بكلامه وكُتُبه، فوق فتنته بجميع نِعمتِه»(١/٨٩).

ألم يُبالغ الجاحظ هنا في جعل حب الكتاب فوق حبِّ الأبناء؟ ألا يدل هذا على ما بين الكتاب ومؤلّفه من علاقة روحية؛ تفتنه عن بقية النِّعم التي أنعم اللّه بها عليه؟ وهل قال ذلك الجاحظ لأنه استعاض بالكُتُب عن الأولاد؟

١- كتاب العلم لأبي خَيْثَمة (زهير بن حرب النَّسائي ٤٣٢ هـ) ، ص٩

وعادةً ما يُعجب المؤلِّفون بآثارهم في مقدمات كتبهم، كما قد يأتي ذلك في تضاعيفها في بعض الأحيان. وسنرى في مبحث تجربة الجاحظ في التأليف أنه أعرب عن إعجابه بكتبه ورسائله فمدحها، ودافع عنها أمام خصومه ومُنتقديه عامة، كقوله في رسالة في نفي التشبيه: «وقد كتبتُ – مدَّ الله في عُمرك – كتاباً لا يرتفِعُ عنه الحاذق المستغني، ولا يرتفِع عن الرَّيِّض المبتدئ (...). وقد بيَّنتُ ذلك بالوجوه القريبة، والدِّلالات المختصَرة، وبالأشعار الصحيحة والأمثال السائرة، واستشهدتُ الكلامَ المعروفَ، والقياسَ على الموجود. وهو مع ذلك كلِّه كتابٌ قَصْدٌ، ومِقْدارٌ عدْلٌ، لم يَفضُل عن الحاجة، ولم يُقصِّر عن مقدار البُغية»[1].

وقدَّم الجاحظ، في صدر كتابه الحيوان، ردودا وتوضيحات حول جملة من كتُبه؛ تنم في مجملها عن إعجابه بكتبه، كما سنرى.

(٢) حياد المؤلِّف في عرض وجهة نظره

ويرى الجاحظ ضرورة الالتزام بالموضوعية والحياد في عرض وجهة نظر المؤلِّف، فإن للقارئ حقاً على المؤلف أن يقدم أمامه وجهات النظر المختلفة، دون تحيز أو عصبية لِوجهة دون أخرى. يقول: «واعلم أن واضع الكتاب لا يكون بين الخصوم عدلا، ولأهل النظر مَأْلَفاً حتى يبلغ من شدة الاستقصاء لخصمه مثل الذي يبلغ لنفسه؛ حتى لو لم يقرأ القارئ من كتابه إلا مقالة خصمه لخيل له أنه الذي اجتباه لنفسه»[2].

فهو يستقصي الأدلة لكل وجهة نظر، ويعرضها بتجرُّد ونزاهة؛ حتى يُخيّل إلى القارئ أن المتحدِّث يتَبنَّى وِجهة نظر خصمه، وكأنه يريد إقناعَ قارئه بها. وكان هذا مِمّا جعل بعضَهم يتهم الجاحظ بالتلوُّن.

وهذا لم يتأتَّ للجاحظ إلاَّ نتيجة خبرته بالمعارف العامة، وبطرُق التفكير

١- رسالة في نفي التشبيه: ١/٢٨٩ .

٢- العثمانية الجاحظ، تحقيق: عبد السلام هارون، ص٢٨٠ .

لدى الإنسان وما يعتمل في نفسيته؛ فسعى في بعض أعماله أن يكون ميزاناً بينه وبين غيره؛ يحتكم إلى منطق العقل، ولا ينخدع بمنطق النزوع الذاتي.

ويُنبِّه الجاحظ أهل التأليف ألاَّ ينسَوْا أن مؤلفاتهم ستصير بأيدي العلماء، وأنها ستُعرَضُ على العقول في الأزمان المختلفة.

(٣) الإقرار بوجود علماء أفذاذ في كل زمان

ولكل زمانٍ علماؤُه المحقِّقون؛ يدرسون أصول العلوم، ويُميزون بين الأشباه والنظائر، ويستنبطون القضايا والأحكام، يدرسون كُتُبَ مَن تقدَّمهم، ويُؤلِّفون ضروب العلم لأهل زمانهم. يقول: «إنه لم يخلُ زمنٌ من الأزمان فيما مضى من القرون الذاهبة إلاَّ وفيه علماء مُحقُّون، قد قرأوا كتبَ مَن تقدَّمهم، ودارسوا أهلها، ومارسوا الموافقين لهم، وعانوا المُخالفين عليهم، فمخضوا الحكمة وعجموا عيدانَها، ووقفوا على حدود العلوم، فحفظوا الأمهات والأصول، وعرفوا الشرائع والفروع، ففرّقوا ما بين الأشباه والنظائر، وصاقبوا بين الأشكال والأجناس، (...)، واستنبطوا الغامض الباطن بالظاهر البين، واستظهروا على الخفيِّ المُشكل بالمكشوف المعروف، وعُرفوا بالفهم الثاقبوالعلم الناصع، وقضت لهم المحنة بالذكاء والفطنة، فوضعوا الكُتُب في ضروب العلوم وفنون الآداب لأهل زمانهم، والأخلافِ مِن بعدهم»[1].

ويلاحظ أن هـؤلاء يتفاضلون فيما بينهم، ويتبارون بذلك، ويُباهون بمعرفتهم الأمم المخالفة وهم «يزدلفون بذلك إلى الممتنِّ عليهم بفضل المعرفة التي ركَّبَها الله فيهم»[2]، ويُواجهون الحسّاد من أهل زمانهم في تلك العلوم.

١- كتاب فصل ما بين العداوة والحسد :١/٣٣٨.

٢- نفسه.

(٤) العناية بمراجعة الكتاب وتنقيحه

من الأشياء التي تنبَّه إليها الجاحظ ضرورةُ مراجعةِ الكتاب وتنقيحه قبل عَرْضِه على أعين القراء، حتى لا يصير هدفاً لانتقاداتهم وتعليقاتهم ومتابعاتهم. ويرى أن على المؤلِّف أن يَعُدَّ كلَّ مَن قرأَ كتابَه عدوّاً له، ولكن ما نوْعُ هذا العدوّ إنه عدوٌّ متخصِّص في الموضوع الذي كتَبَ فيه، ومتفرِّغٌ لقراءة كتابِه ونقده. فعلى المؤلِّف ألاَّ يتسرَّعَ في إخراج كتُبه إلى الوجود إلاَّ بعد تصفُّحِها ومراجعتِها وفحصها ومحاسبة النفس على ما ورَد فيها، وأثناء تلك المراجعة تهدأ فَوْرَةُ النفس مما قد يعتريها من عُجْبٍ أو غرور. يقول الجاحظ: «ينبغي لمن كتب كتاباً ألاَّ يكتبه إلاَّ على أن النَّاس كلهم أعداء، وكلهم عالم بالأمور، وكلهم متفرغ له؛ ثم لا يرضى بذلك حتى يدع كتابه غُفلا، ولا يرضى بالرأي الفطير؛ فإن لابتداء الكتب فتنةً وعُجباً، فإذا سكنت الطبيعة وهدأت الحركة، وتراجعت الأخلاط، وعادت النفس وافرةً أعاد النظر فيه، فيَتَوَقَّفُ عند فصوله توقفَ مَن يكونُ وَزْنُ طَمَعه في السلامة أنقصَ مِن وزْنِ خوْفه من العيب، ويتفَهَّمَ معنى قول الشاعر (ابن هرْمة):

إنَّ الحديثَ تَغُرُّ القوْمَ خُلوَتُه حتّى يَلِجَّ بهم عِيٌّ وإكثارُ

ويقف عند قولهم في المثَل«كلُّ مُجرٍ في الخلاءِ يُسَرُّ»، فيخاف أن يَعتريَه ما اعترى مَن أجرى فرسَه وحدَه، أو خلا بعلمه عند فَقْدِ خصومه، وأهلِ المنزلة من أهل صناعته» (١/٨٨).

فالجاحظ يُحذِّرُ المؤلِّفَ أن يغتر بما يَكتُبُه في خلوته دون أن يُراجعه ويتأمل ما عسى أن يكون رأي العلماء فيه؛ ففرقٌ أن يكون بعيداً عن الناس أو أن يكون في ملأ منهم. يقول:«ولكنَّ الرأيَ لك أن لا تثِق بما يرسمُه العلم في الخَلا، وتتوقاه في الملا .

اعلم أنك متى تفرَّدْتَ بعلمك استرسلتَ إليه، ومتى ائتمنتَ على نفسك نواجمَ خواطرك ، فقد أمكنتَ العدو من رِبْقة عنقك. وبنيةُ الطبائع

وتركيبُ النفوس، والذي جرت عليه العادة، إهمالُ النفس في الخلا، واعتقالها في الملا»[1].

ويتعجّبُ الجاحظ من أهل العلم والنظر، وأصحاب الفكر والعِبَر حين يجدهم لا يُحاسبون أنفسهم قبل إخراج كتبهم، «ولا يوازنوا بين ما عليهم ولهم، ولا يخافون تصفح العلماء» (١/٢٥).

ومحاسبة النفس تقتضي التحكُّمَ فيما قد يكون فيها من اندفاع، ومعرفة ما تكون حاجة الناس إليه في ذلك العلم، وتقتضي التثبت والخوف من متابعات أهل العلم. يقول في فصل من صدر كتابه في الوكلاء، وهو يمدح مَن أهدى إليه كتابه: «وأنت عندي ممن لا يُمضي القول إلا بعد التثبت، ولا يُخرج الكتب إلا بعد التصفح»[2].

وهكذا يُصبح المؤلِّفُ هدفاً للأنظار، ويُصبح التأليف مسؤولية جسيمة يتعرَّضُ صاحبُها للأخطار. من هنا يدعو الجاحظ المؤلِّف أن يَبذُل أقصى جهده في إخراج كتابه، وأن يُراجعَه قبل أن يتداولَه أهل العلم. هذا إذا حظِيَ أن تقع عليه أعين الناس!

(٥) مَن ألَّفَ أصبح هدفا للنقد

ولما كان التأليف مما يُستدَلُّ به على الأفهام والعقول، وبه توضع المواهب أمام أنظار عامة القراء؛ احتاج الأمر إلى إعداد العدة لمواجهة تجربة التأليف. وأورد الحُصري (إبراهيم بن علي ٤٥٣هـ) في زُهر الآداب قول الجاحظ :» مَن صنَّف كتاباً فقد استهدَف؛ فإن أحسن فقد استعْطَفَ، وإن أساء فقد استَقْذَفَ»[3].

١- الوكلاء: ٤/٩٧.

٢- نفسه: ٤/٩٥ .

٣- زهر الآداب وثمر الألباب: ١/١٨٣. في مروج الذهب نسب المسعودي (٣٤٦هـ) هذا القول إلى ابن المقفع (١٤٢هـ) هكذا: «من وضع كتابا فقد استهدَف فإن أجاد فقد استشرف، وإن أساء فقد استَقذَف»: ١/١٧ – تُنظر معاناة التأليف في كتابي:" مقدمة الكتاب في التراث الإسلامي وهاجس الإبداع، ص١٣٢ – ١٣٦ – وينظر: مَن ألَّف فقد استهدَف واستشرَفَ : عباس أرحيلة ، مقالة في مجلة دعوة الحق، العدد ٣٧١، يناير – فبراير ٢٠٠٣، ص ١١١ – ١١٧ .

وورد هذا القول في كتاب العمدة في محاسن الشعر وآدابه لابن رشيق (٤٦٣هـ)، هكذا: «وقال الجاحظ: «مَن صنع شعراً أو وضع كتاباً فقد استهدف، فإن أحسن فقد استعطف، وإن أساء فقد استقذَفَ»[١].

ونسب يوسف البلوي (٦٠٤ هـ) في كتابه ألف باء هذا القول إلى الجاحظ، بهذه الطريقة: «وقال الجاحظ : لا يزال المرء في فسحة من عقله، ما لم يصنع كتاباً يَعرضُ فيه على الناس مكنون فضله، ويتصفَّح فيه إن أخطأ مبلغ عقله «. وعلّق بقوله: «وصدَقَ لأنه من امتحن قولاً ظَهَرَ على عيبه، ومن طلب عيباً وجده» [٢].

ولا يُخفي الجاحظ خوفه من النقاد عامة ومن الحُسّاد خاصة، كما سنرى، ويبدو أن كتبه كانت محط أنظار الباحثين في زمانه. يقول في نهاية مقدمة كتاب البخلاء: «ولولا أنك سألتني هذا الكتاب لما تكلفتُه ولما وضعتُ كلامي موضع الضيم والنِّقمة»[٣].

ويقول أيضاً في مقدمة كتاب الحيوان :» إن كل من التقط كتاباً جامعاً، وباباً من أمهات العلم مجموعاً، كان له غُنمُه، وعلى مؤلفه غُرمُه، وكان له نفعُه، وعلى صاحبه كدُّه، مع تعرضه لمطاعن البُغاة، ولاعتراض المنافسين، ومع عرضِه عقلَه المكدود على العقول الفارغة، ومعانيه على الجهابذة، وتحكيمه فيه المتأولين والحسدة»(١ /١٠).

وورد عند ياقوت الحموي (٦٢٦هـ) في معجم الأدباء: «قال أبو زيد البلخي (٣٢٢ه): ما أحسن ما قال الجاحظ : عقل المنشئ مشغولٌ، وعقل المتصفح فارغ» [٤]. ومن هنا دعا الجاحظ إلى مراجعة الكتاب وتصحيحه قبل إخراجه إلى الناس، كما رأينا.

١- العمدة في محاسن الشعر وآدابه لابن رشيق (٤٦٣هـ)، تحقيق: د. محمد قرقزان:١/١٣٥ .

٢- ألف باء: يوسف البلوي (٦٠٤هـ):١/٦١ .

٣- البخلاء:٨ .

٤- معجم الأدباء: ٥ /٢١٢١ .

(٦) التواضع أمام القارئ والاعتذار له

وظاهرة الاعتذار تكاد تكون من الثوابت في مقدمات الكتب، فهي دليل على كَبْح جِماح النفس، وهي من شِيَم أهل التواضع، وهذا لا يتناقض مع رغبة المؤلِّف في تحقيق الكمال الذي ينشده القارئ.

فمَن يدعي الكمال فيما أتى به، وهو يرى ما تَرَاكَم من آثار السابقين في الموضوع الذي تناوله؟ أليس أدعى للتواضع ألاَّ يتجاوز المؤلِّفُ قدرَه في مجالات المعرفة؟

يقول في التربيع والتدوير: «فإن كنا أصبنا فالصوابَ أردنا، وإن كنا أخطأنا فما ذاك عن فساد من الضمير، ولا قلة احتفال بالتقصير. ولعل طبيعة خانت، أو لعل عادة جذبت، أو لعل سهواً اعترض، أو لعل شُغلا منع»[١].

وما أوجزه الجاحظ في هذا الاعتذار هو خلاصة ما نجده في أغلب اعتذارات المؤلفين في مقدمات كتبهم؛ فكل مؤلِّف يسعى أن يُقدِّم ما يعتبره حقيقة بدون تدليس أو مِراء، ويرى أنه بذل أقصى جهده في إفادة القارئ، إلاَّ أنه قد تخون الطبيعة وتجذب العادة، وقد يعترض السهو والنسيان، وتحول مشاغل الحياة دون مواصلة الكتابة والبحث. وهكذا يلجأ المؤلفون إلى الاعتذار عمّا يجدُه شُداةُ العلم من نقص أو غيره.

وعادة ما نجد المؤلفين في مقدمات كتبهم يَدّعُون قراءَهم أن يتجاوزوا عمّا في كتبهم من هفوات، ويُقوِّمون ما فيها من أخطاء ويقولون لكل قارئ من قرائهم: «متى رأيتَ زَلَلا غفرته وقوَّمْتَ صاحبَه»[٢]، على حد تعبير الجاحظ وهو يُخاطب أحمد بن أبي دواد.

ويرى الجاحظ أن المؤلف مُتعب مكدود، يَعرِضُ عقلَه على العقول الفارغة، ويعرض معانيَه على الجهابذة وأهل التأويل، ويضع كتابه بين حساد يغمطون

١- التربيع والتدوير: ٣/١٠٦ – ١٠٧.

٢- كتاب الفتيا: ٣١٧/١.

حقَّه، ويَكرهون أن يُنسَبَ لصاحبه. فالكتاب غنيمة ينتفع بها مَن أراد أن ينتفع بالعلم، أما القارئ فله من الكتاب غُنمُه ونفعُه. «ومتى ظفر بمثله صاحب العلم، أو هجَم عليه طالب فقه، وهو وادعٌ رافهٌ، ونشيط جامٌّ، ومؤلفه متعبٌ مكدود، فقد كُفيَ مؤونة جمعه وخزنه، وطلبه وتتبعه، وأغناه ذلك عن طول التفكير، واستنفاد العمر وفلِّ الحَدِّ، وأدرك أقصى حاجته وهو مجتمع القوة»(١/١٠ – ١١).

والجاحظ يرسُمُ هنا معادلة لا إنصاف فيها بين مؤلف استنفد جانباً من عمره كدّاً في طلب العلم وعناء التفكير فيه، وبين قارئ أدرك أقصى حاجته دون أن يستنفِدَ عمرَه أو يُبدِّدَ قواه.

وبالرغم ممَّا قد يُصيب المؤلف من غَبْن وظُلم؛ فإن على القارئ أن يتجاوز عما يكون قد وقع في الكتاب من سهو أو عيب،.يقول الجاحظ لقارئه معتذراً:«فإن وجدْتَ فيه خللاً من اضطراب لفظ، ومن سوء تأليف، ومن تقطيع نظام، ومن وقوع الشيء في غير موضعه، فلا تُنكر، بعد أن صورتُ عندك حالي التي ابتدأتُ عليها كتابي» (٤/٢٠٩).

وما عسى أن يَبذُلَه القارئ أمام هذا الوضع المُجحِف؟ وما ينبغي أن يكون عليه تجاه المؤلِّف؟

(٧) على القارئ أن يلتمس العذر للمؤلِّف

أمام ما يبذله المؤلِّفُ من جَهدٍ ومعاناة، وما يُبديه من تواضع؛ فإن على القارئ أن يتذكَّرَ أن صاحب الكتاب إنسان، وكل إنسان يُخطئ ويُصيب، فعلى القارئ أن يتجاوز على ما في الكتاب من زلل أو سهو أو خطأ، وأن يعمل على تصويبه، وألاَّ يكون متعنِّتاً في تتبُّع العيوب وإشاعتها والتشهير بصاحبها. «وقد كان يُقال: مَن طلب عيباً وجده» [١].

١- التربيع والتدوير:٣/١٠٩

يقول الجاحظ لقارئ كتابه:» فإن نظرتَ في هذا الكتاب فانْظُرْ فيه نَظَرَ مَن يلتمسُ لصاحبه المخارج، ولا يَذهبُ مذهبَ التعنُّت، ومذهبَ مَن إذا رأى خيراً كَتَمَهُ، وإذا رأى شراً أذاعَه.

وليَعلَمْ مَن فَعَلَ ذلك أنه تعرَّضَ لِباب إنْ أُخذَ بمثله، وتُعُرِّضَ له في قوله وكتُبه، أن ليس ذلك إلا من سبيل العقوبة، والأخذ منه بالظُّلامة. فليَنظُر فيه على ما أدَّبَ اللّه به، وعرَّف كيف يكون النظرُ والتفكير والاعتبارُ والتعليم؛ فإن اللّه عزَّ وجلَّ يقول ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ﴾ (البقرة:٦٣)» (٢٠٩/٤ – ٢١٠).

ويقول لقارئه في مكان آخر: «فانظُر فيه نظَرَ المنصِف من الأكفاء والعلماء، أو نظر المُسترشد من المتعلمين الأتباع» (١٥٦/٥). وينطوي قوله هذا على إعجاب كبير بالنفس.

ولم يخرج ما ورد في مقدمات الكتب عامة ، في موضوع التواضع بشكل خاص، عمّا جاء عند الجاحظ في هذه العبارات وما تنطوي عليه من معانٍ. ولا يسَعُ الباحث إلاَّ أن يعترف بريادة الجاحظ في كثير من الأفكار التي تتعلق بمنهجية التأليف في تاريخ الإسلام.

ولمّا كان القراء ليسوا على مستوىً واحدٍ من العلم؛ فإنه دعا إلى مراعاة مستويات القراء في التأليف؛ تبَعاً لاختلافِ مداركهم واستعدادهم . ونراه يقول – باعتزاز - إنَّ كتابه الحيوان «يحتاج إليه المتوسط العامي ، كما يحتاج إليه العالم الخاصي».

ثم إن نقد الكتب والتعرُّضِ لأصحابها ليس في متناول كل مَن قرأ كتاباً وأراد نقدَه، فهدا أمرٌ يحتاج من القارئ إلى استعداد خاص يؤهِّله لاستيعاب ما في الكتاب قصد تحليله والكشف عن قيمته.

(٨) القارئ النموذجي

فمن العبث أن يتجرأ أحدٌ على نقد كتاب قبل فهمه واستيعاب ما ورد فيه. وكيف يتطاول أحدٌ على كتاب وهو لم يسبُر غَوْرَه، ويُدرك كنهَهُ، ويتحقق من وِجهة صاحبه في تأليفه

يقول لعائب كتابه الحيوان: «وأراك قد عبتَ الكتابَ قبل أن تقف على حدوده، وتتفكر في فصوله، وتعتبر آخرَه بأوله، ومصادره بموارده، وما غلَّطَكَ فيه بعضُ ما رأيتَ في أثنائه من مَزْح لم تعرف معناه، ومن بطَالةٍ لم تطلع على غوْرها، ولم تدرِ لم اجتُلِبَتْ، ولا لأيٍّ علة تُكُلِّفَت، وأيِّ شيء أُرِيغَ به» (٣٧/١).

فكيف يتحامل إنسان على كتاب وهو يجهل مراد صاحبه فيه؟ ونهاية كل عيب، عند الجاحظ، أن يعيب الإنسانُ الكتب بلا علم، ويتجاوز ذلك إلى التشنيع (٣٨/١).

والقارئ النموذجي في نظر الجاحظ هو مَن يستوعب المقروء، ويُلِمّ بالجوانب الإيجابية والسلبية فيه، ويكون ناقداً حصيفاً يَحتكِم في فهمه إلى العلم، وفي موقفه إلى الاعتدال والإنصاف. ويجد الجاحظ هذا الموقف لدى أحمد بن أبي دواد، حين قال له في عبارة إهداء لكتاب الفتيا: «وأنك متى قرأت كتابا أو سمعت كلاما، كنت من وراء ما فيه من نقص أو فضل، باتساع الفهم، وصحة العلم»[١].

(٩) وجود فهرس محتويات البحث في أول الكتاب

عادة ما يأتي فهرس محتويات الكتاب في نهاية مقدمات الكتُب في تراث الإسلام، وهو أمر توهَّم بعضهم أنه من تأثير الحضارة الغربية فينا. ونجد الجاحظ حين ألَّفَ رسالته فصل ما بين العداوة والحسد لأبي الحسن عبيد بن يحيى بن خاقان، قد دعاه أن يمتَّنَّ عليه بقراءتها والتقصي لجميعها،

١- في كتاب الفتيا: ٣١٧/١.

وإذا كانت ظروفه لا تسمح له بذلك فيكفيه أن يُلقي نظرة خاطفة على فهرس محتوياتها.

يقول الجاحظ: «فأنا أسألُكَ بساطَ كرمكَ وناصعَ كرمك، لمَّا امتنَنْتَ عليَّ بصرف عنايتكَ إلى قراءَتها. فإنْ لم يُمكنْكَ تبحُّرُها والتقصِّي لجميعها؛ للأشغال التي تعروك، فبحسبكَ أن تقفَ على حدودها، وتتَعرَّف معانيَ أبوابها بتصفُّحِ أوائلها، فإنَّ معكَ قلباً به من اليَقَظة والذكاء، والتوقُّد والحفظ، ما يكفي معه النظر الخاطف»[1].

ويُستفاد مما قاله الجاحظ هنا أن فهرس محتويات الكتب تكون ضمن مقدمة الكتاب؛ أي في أوائل الكتب لا في أواخرها، كما أصبحت العادة جارية في أغلب الكتب في العصور الحديثة.

وهل كان الجاحظ يضع فهرس محتويات كتبه ورسائله في أوائل كُتُبه؟ وهل كانت النظرة الخاطفة لهذا الفهرست كافية لحصول فكرة مجملة عن محتويات البحث؟ لعل الجاحظ يُشير هنا إلى طريقته في إيراد موضوع الكتاب والإشارة إلى محاوره في بداية الكتاب؛ كقوله في بداية الجزء الخامس من كتاب الحيوان: «نبدأ في هذا الجزء بتمام القول في نيران العرب والعجم، ونيران الديانة ومبلغ أقدارها عند كل ملة، وما يكون منها مفخرا، وما يكون منها مذموما، وما يكون صاحبها مهجورا. ونبدأ بالإخبارعنها وبدئها، وعن نفس جوهرها، وكيف القولُ في كُمونها وظهورها...» (٥/٥).

(١٠) الكتاب بين أيدي الحساد

والحسد في العلم مما لا يحتاج إلى دليل، «ولن تجِد الحسدَ محموداً في حال إلاَّ في طلب العلم»[2].

وخير من تناول موضوع حسد العلماء كان هو الجاحظ في رسالته فصل

١- كتاب فصل ما بين العداوة والحسد: ١/٣٣٧ – ٣٣٨.

٢- الإيضاح في علل النحو لأبي القاسم الزجاجي (٣٣٧هـ) ، ص ٣٨.

ما بين العداوة والحسد، فهو يذكر أنه لا يخلو زمن مضى من وجود علماء «وضعوا الكتبَ في ضروب العلوم وفنون الآداب لأهل زمانهم، والأخلاف من بعدهم.(...). ولهم حُسادٌ معارضون من أهل زمانهم في تلك العلوم والكتب، منتحِلةٌ يدَّعون مثل دعاويهم، قد وَسَمُوا أنفسهم بسمات الباطل، وتَسَمَّوْا بأسماء العلم على المجاز من غير حقيقة، لبسوا لباس الزور، متزخرفين متشبعين بما لا محصول له»[1].

وكان الجاحظ من أوائل الذين نظروا في الحسد الذي ينشأ بين أهل العلم، وقدم تحليلات رائدة في الموضوع دلت على خبرته بالنفس الإنسانية.

جاء عنده:«وكان يُقال: ثلاثة توجبُ الظِّغن وتُكثِرُ من الغِلّ: المُجاورة في المنزل، والاستواء في النسب، والمُشاكلة في الصناعة»[2].

ولاحظ في كتابه في النساء أنَّ الدنيا:«لا تنفك من حاسد باغ ومن قائل متكلف، ومن سامع طاعن، ومن مُنافس مقصر. كما أنها لا تنفك من ذي سلامة متسلِّم، ومن عالم متعلم، ومن عظيم الخطر حسن المحضر، شديد المحاماة على حقوق الأدباء، قليل التسرع إلى أعراض العلماء»[3].

فالكتاب، حسب ما ورد في عبارات الجاحظ، يَتعرَّضُ صاحبُه لمطاعن البغاة، ولاعتراض المنافسين، وللنقد والمتابعة من ذوي العقول المتفرِّغة لذلك، وتتناول معانيَه الجهابذة بالنظر والفحص، وتَتحَّكم فيه آراء المتأولين والحَسَدَة.

وسنتعرَّف على تجربة الجاحظ مع حسَّاده في المبحث الموالي إن شاء الله تعالى، ومن خلاله نستكمل آراءَه المنهجية في التأليف.

١- فصل ما بين العداوة والحسد: ١٦٦/١ .

٢- رسالة في نفي التشبيه:٢٩٢/١ .

٣- في النساء: ١٣٩/٣ .



المبحث السابع

تجربة الجاحظ في التأليف

(١) منهجه في التأليف وبناء الكتاب

بالرغم مما يُقال عن ظاهرة الاستطراد في كتب الجاحظ؛ إلا أننا لا يمكن أن ننكر إحساسه الدائم ببناء الكتاب وتصميمه العام ، فهو على سبيل المثال حين أحس بطول كتاب الحيوان وبثقَله على القارئ؛ أنهى الكتاب ولم ينته منه على الصورة التي أرداها. فالكتاب خلا من باب كبير هو «القول في فصل ما بين الذكورة والإناث» و«في فصل ما بين الرجل والمرأة». ولرغبته في تناول هذا الموضوع ألَّفَ كتابَ النساء وجعله ملحقاً بكتاب الحيوان، كما ذكر ياقوت[١].

ولهذا نجده يقول في فصل من بقايا كتاب النساء: «كما نُحبُّ أن يخرج هذا الكتابُ تاماً، ويكونَ للأشكال الداخلة فيه جامعاً، وهو القول فيما للذكور والإناث في عامة أصناف الحيوان (...) حتى يكون الكتاب عربياً أعرابياً، وسُنياً جماعياً (...)، فمنع ذلك فرطُ الكَبْرَة، وإفراط العِلَّة، وضُعف المُنَّة، وانحلال القوة (...).

فلما اعتزمنا على ما ابتدأنا به وجدناه قد اشتمل على أبواب يكثر عددُها، وتبعُدُ غايتُها، فرأينا، والله الموفق، أن نقتصر منه على ما لا يبلغ بالمستمع إلى السآمة، وبالمألوف إلى مُجاوزَة القدْر(...). وللصبر غايةٌ، وللاحتمال نهايةٌ»[٢].

والجاحظ هو القائل: «ولكل مقام مقال، ولكل صناعة شكل» (٣/٣٦٩).

(٢) إعجابه بكتبه: وإحساسه بضرورة التجديد والإبداع

مِمّا جعل كتُب الجاحظ محط أنظار الناس: استقلالُه الفكري واعتداده بشخصيته فيها، وإعجابه بها، ودفاعه القوي عنها، واعتزازه بتداولها بين العلماء والكبراء. وكان هذا الإعجاب بكتبه من عوامل عنايته بها،

١- يقول ياقوت:«كتاب الحيوان وهو سبعة أجزاء، وأضاف إليه كتاباً آخر سماه كتاب النساء وهو الفرق فيما بين الذكر والأنثى، وكتاباً آخر سماه كتاب البغل» (معجم الأدباء:٥/٢١١٧).

٢- كتاب النساء: ٣/١٥٢ - ١٥٣ .

وأن يأتي فيها بما لم يُسبَق إليه في مجالات المعرفة في معترك عصره. فما كان لهاجس الإبداع أن يُفارق الجاحظ في رحلته عبر تأليف كتُبه. فقبل أن يتناول موضوعاً لا شك أنه يُحيط أولا بما قيل فيه، حتى يتسنى له أن يأتيَ بشيء جديد في الموضوع لم يُسبَق إليه. فحين أراد أن يتناول موضوع المعاش والمعاد نجده يقول: «ورأيت كثيراً من واضعي الآداب قبلي قد عهدوا إلى الغابرين بعدهم في الآداب عهودا قاربوا فيها الحق، وأحسنوا فيها الدلالة، إلا أني رأيتُ أكثر ما رسموا من ذلك فروعا لم يُبينوا عللها، وصفاتٍ حسنةً لم يكشفوا أسبابها، وأموراً محمودةً لم يدلوا على أصولها.

فإن كان ما فعلوا من ذلك روايات رووها عن أسلافهم، ووِراثات ورِثوها عن أكابرهم، فقد قاموا بأداء الأمانة، ولم يبلغوا فضيلة من استنبط. وإن كانوا تركوا الدَّلالة على علل الأمور التي بمعرفة عللها يُوصَلُ إلى مباشرة اليقين فيها، ويُنتهى إلى غاية الاستبصار منها ، فلم يَعْدوا في ذلك منزلة الظن بها»[1].

فما أشبه ما يقوله الجاحظ هنا بما يَكتبه الباحثون في مقدمات رسائلهم وأطاريحهم في الجامعات اليوم، حين يُشيرون إلى أعمال السابقين في الموضوع؛ فيجدونهم لم يستوفوا المطلوب فيها، «ولم يبلغوا فضيلةَ مَن استنبط» فيسعون في أعمالهم إلى بلوغ فضيلة الاستنباط أي أن يستخرجوا من الأعماق ما عجَز عنه غيرُهم، ويستوفون ما بقيَت الحاجة تدعو إلى استيفائه. ويعتمدون من المناهج ما يُحقِّقُ ذلك؛ وهو أمر مطلوب في تحقيق التراكم المعرفي وتناميه.

وعن إعجابه بكتبه، وإتيانه بما لم يُسبَقْ إليه، جاء في بداية كتاب فصل ما بين العداوة والحسد: «هذا كتاب – أطال الله بقاءك- نبيل بارع، فصل فيه بين الحسد والعداوة، ولم يسبقني إليه أحد ولا إلى كتاب فضل الوعد الذي تقدم هذا الكتاب، ولا إلى كتاب أخلاق الوزراء الذي تقدم كتاب فضل الوعد.

١- كتاب المعاش والمعاد:١/٩٦ .

وإنما نبلت هذه الكتب وحسنت وبرعت، وبذت غيرها، لمشاكلتها شرف الأشراف، بما فيها من الأخبار الأنيقة الغريبة، والآثار الحسنة اللطيفة، والأحاديث الباعثة على الأخلاق المحمودة، والمكارم الباقية المأثورة، مع ما تضمنته من سير الملوك والخلفاء ووزرائهم وأتباعهم، وما جرت عليه أحوالهم» [1].

وأثناء تناوله لما كان يُعانيه من الحسد، كان لا يني يتحدَّثُ عن قيمة كتبه. ويبدو أن تجربة الجاحظ مع حسّاده كانت مريرة، وأنه واجه في حياته أشكالا من الحُسّاد. يقول: «ولست آمن – جعلني الله فداك – أن تكون هذه الكتب التي أُعْنَى بتأليفها، وأتأنق في ترصيفها، يتولى عرضها عليك مَن قد لبِس لباسَ الزور في انتحال وضع مثلها، ونسب نفسه إلى القوة على نظائرها (...) ولعل بعضَ مَن حوْلَه (...) يوهمُه الحسدَ له على ما يدعي من ذلك (...) فيلتوي في قراءتها، ويقبض لسانه عن بسط ما يحتاج أن ينشره منها (...) بل لا آمن أن يتجاوز ذلك إلى الطعن عليها بقول أو إشارة، من غير أن يُظهر المعاداة لها، والحسدَ لمؤلفها، والحمل عليها بقول يكون دليلا على ما يُضمر(...) وقد قيل: «مَن يَسْمَعْ يَخَلْ» [2].

ولا يُخفي الجاحظ اعتزازه بثقافة الأمة التي ينتمي إليها، فهي لا تقل عنده معرفة عما تعارف لدى الأمم الأخرى. يقول:» وقلَّ معنىً سمعناه في باب معرفة الحيوان من الفلاسفة، وقرأناه في كتب الأطباء – إلا ونحن قد وجدناه، أو قريباً منه في أشعار العرب والأعراب، وفي معرفة أهل لغتنا وملَّتنا، ولولا أن يطول الكتاب لذكرتُ ذلك أجمع «(٣/٢٦٨). وعن شدة ارتباطه بآداب قومه يقول: «ولكني أخذتُ بآداب وجوه أهل دعوتي وملّتي، ولغتي، وجزيرتي، وجيرتي، وهم العرب» (٣/٣٦٧).

١- فصل ما بين العداوة والحسد: ١/ ٣٣٧ .

٢- نفسه:١/ ٣٤٠ – ٣٤١ .

وفي مواجهة أرسطو في كتاب الحيوان نجِد الجاحظ مُعتدّاً بنفسه، شامخاً بثقافته؛ فهو – كما يقول د. طه الحاجري – «يَضَعُ نفسَه بإزائه على أنه نظيرٌ له، ويضعُ الثقافة العربية بإزاء المعارف التي أوردها في كتابه على أنها حَكَمٌ يُحتكَمُ إليه، ومصدرٌ أجدرُ بالثقة من مصادره»[1].

(٣) دفاعه عن كتبه وإعجابُه بها

فنَّد الجاحظ آراء شخص تعرَّض لمؤلفاته بالطعن، وبالرغم من الشهرة التي بلغها الجاحظ، وبالرغم من إحساسه بقيمة ما أتى من أفكار، وما تركه من أثر في عالم التأليف؛ فإن التواضع قد رافق الجاحظ في حياته الفكرية، وظلّ بعيدا عن الغرور والتبجح والادعاء.

ويُعربُ عن إعجابه بكتُبه أثناء حديثه عن الجيد منها وما يتميزتْ به عن غيرها.

ويكشف بصدق ما يعتري نفسه من حبور وإعجاب بما جادت به موهبته، فيقول وهو في نشوة انكبابه على تأليف كتاب الحيوان: "وما أكثر ما يعرِض في وقت إكبابي على هذا الكتاب، وإطالتي الكلام، وإطنابي في القول، بيت ابن هَرْمَة، حيث يقول:

إن الحديثَ تَغُرُّ القومَ خَلْوَتُهُ   حتى يَلِجَّ بهم عِيٌّ وإكثارُ

وقولهم في المثل: «كلُّ مُجْرٍ في الخَلاء يُسَرُّ».

وأنا أعوذُ بالله أن أُغَرَّ من نفسي، عند غيبة خصمي، وتصفُّح العلماء لكلامي، فإني أعلم أن فِتنةَ اللسانِ والقلم، أشدُّ من فتنة النساء، والحِرصَ على المال»[2].

وكقوله عن كتابه في النساء: «حتى يكون الكتاب عربيا أعرابيا، وسنيا

١- الجاحظ حياته وآثاره: ٤١٩.

٢- الحيوان: ٤/٢٠٧ – ٢٠٨- أصل المثل: «كلُّ مُجْرٍ في الخَلاء يُسَرُّ»، ذكر هارون أن الرجل يجري فرسُه في المكان الخالي لا مُسابِق له فيه، فهو مسرور بما يرى من فرسه، ينظر هامش٤، ج٤، ص٢٠٧.

جماعيا، وحتى يُجتنب فيه العويصُ والطرق المتوعِّرة، والألفاظ المستنكرة، وتلزيقُ المتكلِّفين، وتلفيقُ أصحاب الأهواء من المتكلمين» [1].

(٤) تجربتُه في تأليف كتاب الحيوان

وتحدث عن تجربته في تأليف كتاب الحيوان، وما كان يُعانيه من وطأة المرض أثناء تأليفه، فقال: «وقد صادف هذا الكتاب مني حالات تَمنَعُ من بلوغِ الإرادة فيه، أولُ ذلك العلَّةُ الشديدة، والثانية قلة الأعوان، والثالثة طول الكتاب، والرابعة أني لو تكلَّفتُ كتابا في طوله، وعدد ألفاظه ومعانيه، ثم كان من كُتُب العَرَض والجوهر، والطفرة والتولُّد، والمداخلة والغرائز والتماس؛ لكان أسهلَ وأقصرَ أياماً، وأسرعَ فراغا؛ لأني كنتُ لا أفزَعُ فيه إلى تَلَقُّطِ الأشعار، وتتبُّع الأمثال، واستخراج الآي من القرآن، والحجج من الرواية، مع تفرُّق هذه الأمور في الكتب، وتباعد ما بين الأشكال. فإن وجدتَ فيه خَلَلاً من اضطرابِ لفظ ومن سوءِ تأليف، أو من تقطيعِ نِظام، ومن وُقوع الشيء في غير موضعه؛ فلا تُنكر، بعد أنْ صوَّرتُ عندك حاليَ التي ابتدأتُ عليها كتابي.

ولولا ما أرجو من عون الله على إتمامه؛ إذ كنتُ لم ألتمسْ به إلاَّ إفهامك مواقعَ الحُجَج لله، وتصاريفَ تدبيره، والذي أودعَ أصنافَ خلقه من أصناف حكمته – لما تعرَّضتُ لهذا المكروه.

فإن نظرتَ في هذا الكتاب فانظُرْ فيه نَظَرَ مَنْ يلتمسُ لصاحبَه المَخرج، ولا يذهبُ مُذهبَ التعنُّت، ومذهبً مَن إذا رأى خيراً كَتَمَه، وإذا رأى شرّاً أذاعه»(٤ –٢٠٨/٢٠٩).

ويكشف قول الجاحظ هذا عدة حقائق، منها:

الأسباب التي حالت دون بلوغ الغاية في تأليفه لكتاب الحيوان، ومن بينها تلك الأسباب الأربعة التي منعته من تحقيق ما كان يصبو إليه.

١– في النساء: ١٥٢/٣ .

موضوع الكتاب يتناول قضايا علمية متنوعة لا يستطيع المؤلِّفُ الإحاطة بها في وقت وجيز. ولو كان موضوعه مُحدّداً لكان إنجاز الكتاب أسهل وأسرع.

المعاناة في جمع مواد الكتاب؛ وهي مبثوثة في مصادر متنوعة؛ ممَّا احتاج معه إلى تلقُّط الأشعار وتتبُّع الأمثال، واستخراج الآي من القرآن الكريم، والحُجج من الحديث الشريف.

وسبب العوامل المذكورة هناك ما يحدث من: اضطراب لفظ وسوء تأليف، وتقطيع نظام، ووقوع شيء في غير محله.

– ونتيجة لكل ما سبق، يعتذر الجاحظ لقارئه ويدعوه أن يلتمس له المخرج، بعد الذي تعرَّض له من مكروه في سعيه لإفهام قارئه مواقع الحجج للّه، وتصاريف تدابيره !

وإن التأمل في قراءة ما قاله الجاحظ هنا لِمَّا يكشف بوضوح بعض ملامح منهجية التأليف في تصوُّر الجاحظ.

وقد ذكر في مقدمة كتاب البغال، الذي ألفه بعد كتاب الحيوان – كما أشار إلى ذلك – ما كان عليه من سوء الحال وهو يؤلِّف هذا الكتاب، فقد كانت رغبتُه أن يستوعب القول في هذا الموضوع ويُخرجه في جزء كبير، ولكن حالت دون هذا موانع، فقال:«وقد منع من ذلك ما حدث من الهم الشاغل، وعَرَضٍ من الزمانة، ومن تخاذل الأعضاء، وفساد الأخلاط وما خالط اللسان من سوء التِّبيان، والعجز عن الإفصاح، ولن تجتمع هذه العلل في إنسان واحد، فيسلم معها العقل سلامة تامة. وإذا اجتمع على الناسخ سوء إفهام المملي، مع سوء تفهم المستملي، كان ترك التكلف لتأليف ذلك الكتاب أسلم لصاحبه من تكلف نظمه على جمع كل البال، واستفراغ كل القوى» [١].

لقد كانت معاناة التأليف قاسية في نهاية حياة الجاحظ.

١– كتاب البغال: ٢/٢١٥

(٥) تحديد موضوع الكتاب

وأولُ ما يبدأُ به المؤلِّف – عادةً– تحديد موضوع كتابه ليجعل قارئه على بيِّنة ممّا يكتب. يقول – مثلا – عن موضوع كتاب المعاش والعاد: «فرأيت أن أجمع لك كتاباً من الأدب، جامعاً لعلم كثير من المَعاد والمعاش، أصف لك فيه علل الأشياء، وأخبرك بأسبابها ومَا اتفقت عليه محاسن الأمم»[١].

وقال أيضا: «فألفت لك كتابي هذا إليك، وأنا واصفٌ لك فيه الطبائع التي رُكب عليها الخلق، وفُطرت عليها البرايا كلُّهم، فهم فيها مستوون، وإلى وجودها في أنفسهم مضطرون، وفي المعرفة بما يتولد عنها متفقون» [٢].

وقال في مقدمة كتاب الحجاب: «وقد جمعتُ في كتابي هذا ما جاء في الحجاب من خبر وشعر، ومعاتبة وعذر، وتصريح وتعريض»[٣].

(٦) معاناة الجاحظ للحسد

يبدو أن الجاحظ ظل يُعاني من حسد الحساد طيلة حياته العلمية، وقد تحدث عن هذا الجانب في مواطن كثيرة من كتبه، وتناوله بشكل خاص في كتاب فصل ما بين العداوة والحسد .

ويُحدثنا الجاحظ عن تجربته مع الحسد، وكيف كان ذلك يضطره أحيانا أن يُؤلف الكتاب وينسبه إلى غيره؛ إما عبثا بخصومه، أو إنّه يتخذ ذلك وسيلة لإشاعة كتبه بين القراء. يقول:«وإني ربما ألفتُ الكتابَ المُحكمَ المتقنَ (...) وأنسبه إلى نفسي، فيتواطأ على الطعن فيه جماعة من أهل العلم، بالحسد المركب فيهم (...) وربما ألفت الكتاب الذي هو دونه في معانيه وألفاظه، فأترجمه باسم غيري، وأحيله على مَن تقدمني عصرُه، مثل ابن المقفع والخليل وسلْم صاحب بيت الحكمة ويحيى بن خالد والعتابي ومن

١- كتاب المعاش والعاد (رسائل الجاحظ):١/٩٥

٢- نفسه:١/٩٧

٣- كتاب الحجاب: ٢/٣٠

أشبه هؤلاء من مؤلفي الكتب، فيأتني أولئك القوم بأعيانهم، الطاعنون على الكتاب الذي كان أحكم من هذا الكتاب، لاستنساخ هذا الكتاب وقراءته علي» [1].

ولاحظ شيوع الحسد في أهل العلم أكثر من غيرهم فقال:«وهو في أهل العلم أكثر، وعليهم أغلب، وبهم أشدُّ لُصوقاً مَن غيرهم من الملوك والسُّوقة. وكأن مَن ناله التقصير في صناعة العلم عن غايته القُصوى قد استشعر حَسَدَ كلِّ ما يَرِدُ عليه من طريف أدب، أو أنيق كلام، أو بديع معنى. بل وقع في خَلَده لضعفه، وقرَّ في رُوعه لخساسته، أنه لا يَنالُ أحدٌ منهم رياسةً في صناعة، إلا بالطعن على نواصيهم (أشرافهم) والعيب لجِلَّتهم، والتحيُّف لحقوقهم» [2].

وأورد الجاحظ ما قاله يحيى بن خالد عن تعرُض كتبه للطعن من لدن مَن لا يدري ما يُقرأُ عليه منها. قال يحيى:«إنَّ كتُبي لتُعرَضُ على مَن يَغلُظُ فهمُه عن معرفتها، ويَحْسو ذهنُه عنها، ولا يبلُغُ أقصى علمه ما فيها (...) فيطعَنُ فيها ولا يدري ما يُقرأُ عليه منها. إلاَّ أن نار الحسد تُلهبه فيهذي هذَيانَ المريض، ويهمزُ هَمَزات الغَيْرَى» [3].

وما عانى منه يحيى بن خالد ابتُلِيَ به الجاحظ في تجربته في عالم التأليف، فعقَّبَ بقوله: «وقد عرفتُ حقيقةَ ما قال يحيى بن خالد بالتجربة والابتلاء. وإني ربما ألفت الكتاب المُحكم المتقن في الدين والفقه، والرسائل والسِّيَر، والخُطب والخَراج والأحكام، وسائر فنون الحكمة، وأنسبُه إلى نفسي، فيتواطأُ على الطعن فيه جماعةٌ من أهل العلم، بالحسد المُركَّب فيهم ، وهم يَعرفون براعتَه ونَصاعتَه. وأكثر ما يكون هذا منهم إذا كان الكتاب مؤلَّفاً لمَلِك معه المقدرة على التقديم والتأخير، والحَطِّ والرفْع والترغيب

١- فصل ما بين العداوة والحسد: ١/٣٥١

٢- نفسه: ١/٣٤٤ – ٣٤٨

٣- نفسه:١/ ٣٤٩ – ٣٥٠ .

والترهيب، فإنهم يهتاجون عند ذلك اهتياجَ الإبل المغتلمة، فإن أمكنتْهم حيلةٌ في إسقاط ذلك الكتاب عند السيد الذي أُلِّفَ له فهو الذي قصدوه وأرادوه، وإن كان السيد المؤلف فيه الكتاب نِحريراً نقابا، ونِقْريسا بليغاً، وحاذقا فطنا، وأعجزتْهم الحيلةُ، سرَقوا معانيَ ذلك الكتاب وألفوا من أعراضه وحواشيه كتابا، وأَهْدَوْه إلى ملك آخر، ومَتُّوا إليه به، وهم قد ذَمُّوه وثَلَبُوه لمَّا رأوه منسوباً إليَّ، وموسوماً بي»[1].

وقد رأيناه يقول إنه إذا ألَّف كتابا هو دونه، يأتون به إليه، ويُصيِّرونه إماماً يقتدون به. فكيف ينجو الجاحظ من حسَّادِه، وهم يُطاردون كتُبَه؛ يسرقون معانيها ويُهدونها إلى أحد الملوك، إن هو أجاد تأليفَها. وإن أتى بكتاب لا يرقى إلى درجة الأول في الجودة، ونسبَه إلى غيره، وأحالَه على مَن تقدَّمَه؛ أقبل عليه الحُساد بأعيانهم يستنسخونه،«ويُصيِّرونه إماماً يقتدون به»، لا لشيء إلاَّ أن الكتاب لا يحمِل اسمَ الجاحظ.

ويُتابع الجاحظ قولَه:» ولربما خرج الكتابُ من تحت يدي مُحْصَفاً [2] كأنه متْنُ حَجَرٍ أمْلَس، بمعانٍ لطيفة محكمة، وألفاظ شريفة فصيحة، فأخافُ عليه طعنَ الحاسدين إن أنا نسبتُه إلى نفسي، وأَحْسُدُ عليه من أُهُمُّ بنسبته إليه لجودة نظامه وحسن كلامه، فأُظْهِرُه مُبْهَماً غُفْلا في أعراض أصول الكتب التي لا يُعْرَفُ وُضَّاعُها، فيَنهالون عليه انهيالَ الرمل، ويستبِقون إلى قراءته سباق الخيل يوم الحَلْبة إلى غايتها»[3].

وحسَّاد الجاحظ صنفان: جاهل وعالم، ولكل منهما أسلوبُه في العداء والمَكر والدهاء، ويُقارن الجاحظ بينهما بدقته المعهودة فيقول:

«وحسد الجاهل أَهْوَنُ شوكةً وأذل مِحَناً، من حسد العارف الفَطِن؛ لأن

١- نفسه: ١/ ٣٥٠

٢- الحصيف: الرجل المُحكَم العقل،، وإحصاف الأمر: إحكامه (اللسان : حصف).

٣- فصل ما بين العداوة والحسد: ١/ ٣٥١ .

الحاسد الجاهل يبتدر إلى الطَّعْنِ على الكتاب في أول وهلة يُقرأ عليه، من قبل استتمام قراءته ورقةً واحدة؛ ثم لا يرضى بأيسرِ الطعن وأخفِّه حتى يبلغ منه إلى أشدِّه وأغلظِه من قبل أن يقف على فصوله وحدوده. وليس تَلْبُهُ مُفَسَّراً مُفَصَّلا، ولكنه يُجْمِل ذلك ويقول: هذا خطأ من أوَّلِه إلى آخره، وباطل من ابتدائه إلى انقضائه، ويَحْسِبُ أنه كلما ازداد إغراقا وطعْنا وإطنابا في الحمل على واضع الكتاب، كان ذلك أقربَ إلى القَبول منه. وهو لا يعلم أن المستمع إليه إذا ظَهَرَ منه على هذه المنزلة استخفَّ به، وبَكَّتَهُ بالجهل، وعلم انه قد حكم من غير استبراء، وقضى بغير رويَّة، فسقطَ عنه وبطل.

والحاسد العارف الذي فيه تقيَّة ومعه مُسْكَة، وبه طَعْمٌ أو حياة، إذا أراد أن يَغتال الكتابَ ويحتالَ في إسقاطه، تصفَّح أوراقَه ووقف على حدوده ومفاصله، وردَّدَ فيه بصَره وراجع فكره، وأظهر عند السَّيِّد الذي هو بحضرته وجلسائه، من التثبُّت والتأنِّي حِبَالَةً يقتنصُ بها قلوبَهم، وسببا يَسترعي به ألبابَهم، وسُلَّماً يرتقي به إلى مراده منهم، وبِساطا يَفْرِشُ عليه مصارع الخُدَع. فيُوهِمُ به القَصْدَ إلى الحق والاجتباءَ له. فربما استرعى بهذه المَخَاتِل والخُدَعِ قلبَ السيد الحازم»[1].

وأخطرُ الحُسّاد مَن كان حاذقا بنقد الكتاب والحطِّ من شأنه، ويكون هو مَن يتولَّى عرضَه على السيد الذي يُرجى منه العطاء وثمن الكتاب. يقول الجاحظ في السياق السابق:

«فمن أعظم البلايا وأكبر المصائب على مؤلفي الكتب إذا كان العارض لها على السيد الذي منه تُرجَى أثمانُها، وعنده تنفُق بضائعُ أهلها، على هذه الصفة التي وصفتُها من الحسد والحذقِ بأسبابه، والمعرفةِ بالوجوه التي تثلِم المحسودَ وتَهدُّه، وتَضَعُ منه ومن كتبه. لا سيما إنْ كان مع استبطان

١- فصل ما بين العداوة والحسد: ١/ ٣٥٢

الحسد واستعمال الدهاء والذكاء جليساً لازماً، وتابعاً لا يُفارقُ، ومُحدِّثاً لا يَريم، وليستْ له رِعَةٌ (تَحَرُّجٌ) تحجُرُه عن الباطل»[1].

وذكر الجاحظ جملة من حِيَل الحساد في إزرائهم بالكُتب وإقناع مَن يُقبلون عليها بالصدِّ عنها.

ويأتي الجاحظ في رسالته الحسد والمحسود، بما يُقال في العالم حين يكون محسوداً. فيُشاعُ في حقه ما يَغمِطُه حقَّه، وينفي عنه كل إبداع. ومِمّا يُقال في ثَلْبِه:» مبتدع، ولرأيه مُتَّبِعٌ، حاطبُ ليلٍ ومُبتغي نَيْل، لا يَدري ما حَمَل، قد ترَك العمل، وأقبل على الحِيَل»[2]. فهو يصير – في نظر حسّاده – كالحمار يحمل أسفارا، حين قال فيه»: إنه لا يدري ما حمل».

وإن من شأن التعليق على هذه النصوص أن يجعل هذا البحث طويلا، ولعل القراءة الفاحصة لها تُغنينا عن كل تعليق عليها، وإلاّ طال الكتاب.

(٧) نموذج من حُسّاد الجاحظ

ذكر الجاحظ أن كتابه في تحليل النبيذ عُرِض على المأمون وبحضرته محمد بن أبي العباس الطوسي، فانبرى للطعن عليه، وأسهب في ذلك وأكثر وأطنب. وقلِق المأمون إذ لم يكن بالمجلس مَن يتصدى له ويُدافع عن الكتاب، فتمثل المأمون برجز طرفة:

يالكِ من قُبَّرَةٍ بمعمَرِ خلا لك الجوُّ فبيضي واصفري

ونَقِّري ما شئتِ أن تُنقِّري

وفي تلك اللحظة، أُذِن للجاحظ بالدخول، فلما سأل الطوسي عمّا عارض به الكتاب، تراجع عمّا كان يدَّعيه، ونفى وجود الخلاف بينه وبين ما جاء في الكتاب. ولاحظ الجاحظ أن الطوسي فعل ذلك؛ حُبّاً للتخلُّص من مناظرته،

١- فصل ما بين العداوة والحسد: ١/ ٣٥٣ .

٢- الحسد والمحسود: ٣/ ٨ .

وسخر منه الجاحظ قائلا إنه لم يرَ أثر قوة النبيذ في عقله.» فضحك المأمون – يقول الجاحظ – فلما رأيتُ ضحكَه أطنبتُ في معاني تحليل النبيذ، وابن أبي العباس ساكتٌ لا ينطِق، وكان قبل دخولي ناطقاً لا يسكت. فلما رأى المأمون سكوتَه عند حضوري مع كثرة كلامه في ثلْبِ كتابي وعيبه – كان – قبل دخولي، قال متمثلا:

ما لك لا تنبَحُ يا كلبَ الدَّوْمْ قد كنْتَ نبَّاحا فما لك اليومْ

ثم نظر إليَّ فقال: إنَّ الكتُبَ عقولُ قوم وراءَها عندهم حُجَجٌ لها، فما ينبغي أن يُقضى على كتابٍ إلاَّ إذا كان لَه دافعٌ عنه، وخصمٌ يُبينُ عمّا فيه؛ فإن أبناء النِّعَم وأولاد الأُسد محسودون»[1].

(٨) معاناة الجاحظ من وضع النسق التاريخي للمادة المعرفية

يُحِسُّ الجاحظ أحياناً بصعوبة التنسيق بين المراحل التاريخية والأحداث الأدبية، وما بينها من تفاعلات وأحداث.

قال في باب أسماء الخطباء في البيان والتبيين: «كان التدبير في أسماء الخطباء وحالاتهم وأوصافهم، أن نذكر أسماءَ أهل الجاهلية على مراتبهم، وأسماءَ أهل الإسلام على منازلهم، ونجعل لكل قبيلة منهم خطباءَ، ونُقسِّم أمورَهم باباً باباً على حِدَته، ونُقَدِّمَ مَن قدَّمَه اللّه عز وجل ورسولُه ﷺ في النسب، وفضَّلَه في الحسب، ولكني لمَّا عجزْتُ عن نظمه وتنضيده تكلَّفْتُ ذكرَهم في الجملة»[2].

ولعل ظروفه الصحية حالت دون تحقيق الترتيب الذي كان يرتضيه لكتابه الحيوان فقال في الجزء السادس منه: «على أني أذم هذا الكتاب في الجملة، لأن الشواهد على كل شيء بعينه وقعتْ مُتفرِّقةً غيرَ مجتمِعة. ولو

١– فصل ما بين العداوة والحسد: ١/ ٣٤٣ – ٣٤٤

٢– البيان والتبيين: ١/٣٠٦ .

قدرتُ على جمعها لكان ذلك أبلغَ في تزكية الشاهد، وأنوَرَ للبرهان، وأملأَ للنفس، وأمتعَ لها، بحسن الرَّصْف» (٦/٣٨ – ٣٩).

وهل يكتفي الجاحظ بذم الكتاب بسبب ما وقع فيه من شواهد متفرقة؟ لا، إنه يعتز بكتابه هذا، فنراه يقول عنه: «وأحمده لأن جملةَ الكتاب على حال مشتملة على جميع تلك الحجج، ومحيطة بجميع تلك البرهانات، وإن وقع بعضُه في مكان بعض، وتأخر مُتقدِّم، وتقدَّمَ متأخّر» (٦/٣٩). ألا يُحس الجاحظ هنا بضرورة التنظيم؟

فالجاحظ هنا يُدرك أهمية تماسك البناء في الكتاب، وما لتنضيد مواده ورصْفها من حسن. وممّا يُشيرُ به إلى أهمية البناء المنهجي للكتاب: - تبويب الكتاب ومراعاة النسَق التاريخي في عرض الظواهر – تجميع الشواهد في موقعها من الأبواب لتتَّسِق مع ما يُلائمُها.

ويلاحظ أن الجاحظ ذمَّ كتابَه الحيوان حين افتقد فيه حسنَ الرَّصْف؛ نتيجة ما كان يُعانيه من مرض أثناء تأليفه له. وحسن الرصف هذا يُحقق للكتاب أموراً ثلاثةً – حسب ما نستمده من كلامه الأخير:

جمع الشواهد ووضعُها في سياق واحد؛ مِمّا يُزكي الأدلة ويُقوي حجج الإقناع.

وبفضل البناء المتماسك تُصبح براهين المؤلف ساطعة نيِّرة.

– أما النفس فتستقبل جمالية ذلك الرصف، وهي تطفح سروراً وحبوراً.

وكم يصعب مع إحساس الجاحظ هذا أن نبالغ في وصمه بالاستطراد؛ دون أن نُدرك لفعله ذلك غاية.

(٩) ترك فَراغات وفُرَج في الكتاب لتُملأَ لاحِقاً

موسوعية الجاحظ واطلاعه الواسع على وجوه المعرفة، وحبه لتزويد القارئ بما يخطر في نفسه وعقله؛ تجعله لا يستحضر في بعض الأحيان المعلومات المناسبة؛ ممَّا يضطرُّه إلى ترْك مساحات فارغة على الأوراق يأمُل أن يمْلأها عندما يتذكَّرُها. يقول في رسالة طبقات المغنين: «وقد تركنا في كل باب من الأبواب التي صنفنا في كتابنا، فُرَجاً لزيادة إن زادت، ولاحقة إن لحقت، أو نابتة إن نبتت (...) ومن لعلنا نصير إلى ذكره ممن عَزَبَ عنا ذكرُه، وأُنْسينا اسمَه، ولم يُحط علمُنا به، فنُصيِّره في موضعه، ونُلحقه بأصحابه»[1].

ولكن إذا وقع الكتاب على هذه الصورة في يد أحد القراء، هل بإمكانه أن يُضيف المعلومات المناسبة؟ يرى الجاحظ أن على هذا القارئ أن يُراجعه ويستفسره في شأن ما يفتقدُه في الكتاب ويتمنّى أن يكون ذلك من صنعه. ويقول: «وليس لأحد أن يُثبِتَ شيئاً من هذه الأصناف إلاّ بعِلْمِنا، ولا يَستبدَّ بأمرٍ فيه دوننا، ويُوردُ ذلك علينا فنمتحنُه، ونُعرِّفُه بما عنده، ويصير إلى ترتيبه في المرتبة التي يستحقّها، والطبقة التي يحتملها»[2].

(١٠) ولكن كيف يأْمَن الجاحظ التحريفَ لكتبه؟

يرى أنه لم يأْمَن على كتبه من كثرة العيَّابين وأهل الأهواء؛ الذين يُسارعون في تبديلها وتحريفها عن مواضعها، التي رسَمَها عليها؛ فتُهَجَّنُ كتبهُ ويلْحَقُ بها ما ليس منها. وأمام هذا الوضع لا بد من وضعها في أيدٍ أمينة، ونسْخ أصول لها لتُعتمَد عند الضرورة في مواجهة كلِّ تحريف أو غيره.

قال عن أحد كتبه: «وأحببنا أن نأخذ في ذلك بالحزم، وأن نحتاط فيه بأنفسنا ومَن ضمَّه كتابُنا، ونُبادر إلى تفريق نُسخٍ منها وتَصْيِيرِها في أيدي

١- رسالة طبقات المغنين: ٣/ ١٣٤ – ١٣٥ .

٢- المصدر السابق:٣/١٣٥ .

الثِّقات والمستبصرين، الذين كانوا في هذا الشأن، ثم ختموا ذلك بالعُزلة والتوبة منه، كصالح بن أبي صالح، وكأحمد بن سلام، وصالح مولى رشيدة.

ففعلنا ذلك وصيَّرناه أمانة في أعناقهم، ونسخة باقية في أيديهم، ووثقنا بهم أمناء ومُستودَعين وحَفَظَةً غير مُضيِّعين ولا مُتَّهمين، وعلمنا أنهم لا يَدعُون صيانةَ ما استُودِعوا، وحِفْظَ ما عليه ائتُمِنُوا.

فإن شِيبَ به شَوْبٌ يُخالفه، وأُضيفَ إليه ما لا يُلائمه، رجعنا إلى النُّسْخَة المنصوبة، والأصول المخلدة عند ذوي الأمانة والثِّقة، واقتصرنا عليها، واستعلينا بها على المُبطلين، ودفعنا بها إِدْغال المُدغِلين، وتحريف المُحرِّفين، وتَزيُّد المتزيدين، إن شاء الله»[1].

يُلاحظ هنا أن الجاحظ أتى بما أسماه النسخة المنصوبة، وكأني به يقصد ما أصبح يُطلق عليه النسخة الأم في مجال التحقيق؛ أي الأصل المعتمد في توثيق النص. وأشار إلى ما اعتبره أصولا مُخلَّدَةً عند ذوي الأمانة والثقة.

وكما احتاط لنفسه احتاط لمن قدَّم إليه كتابه خوفاً على ما قد يقع فيه من التزيُّد والتحريف؛ ممّا قد يُسيء إلى مَن وُضع من أجله الكتاب.وهذه مجمل الاحتياطات التي أخذ بها الجاحظ لتسلم كُتبه من كل تزيُّد أو تغيير أو تحريف:

أولا: وضع نُسخ بمثابة أُصول تُعتمد عند النقل الصحيح.

ثانيا: توزيعُها وتَصْييرُها في أيدي الثِّقات؛ مِمّن لهم بصَرٌ وخِبرة بذلك العلم الذي يحمله الكتاب.

ثالثاً: وبتفريق النُّسخ الأصلية للكتاب على هؤلاء، يُصبح الأثرُ أمانة في أعناقهم، ونُسخُه بين يدي كل واحد منهم.

١- طبقات المغنين: ٣/١٣٥ – ١٣٦

رابعاً: عند حدوث أي تغيير في النسخ أثناء تداول الكتاب؛ تتمُّ العودةُ إلى ما أسماه النُّسخة المنصوبة أي النسخة الأصل التي وُضعتْ أول مرة تحت عنايته ورعايته، كما تتمُّ العودة إلى«الأصول المُخَلَّدة عند ذوي الأمانة والثقة».

ستظل هذه النصوص شاهدة على ريادة الجاحظ في توثيق النصوص وحفظها، ودالة على نشأة المصطلحات الأولى المتعلقة بتوثيق النسخ ومقابلتها، واعتماد الثقات في حفظها وصيانتها. وكلام الجاحظ يخفي قدراً يسيراً من الإعجاب بنفسه وكتبه، وحُقَّ له ذلك.

(١١) عنايته بمصادره

للجاحظ عناية خاصة بمصادره، وهو يُشكِّل بأعماله ذاكرةً للثقافة العربية من عهودها الأولى إلى زمانه. ومصادره استمدها من الكتب ومن تجاربه ورحلاته ومشاهداته الخاصة، ومن علاقاته الواسعة على امتداد عمره المديد. كقوله في البيان والتبيين: «وقد جمعتُ لك في هذا الكتاب جُمَلاً التقطناها من أفواه أصحاب الأخبار»[1].

وتأليف كتاب الحيوان حمَله – على حدِّ قوله – أن يَفزَع «إلى تَلقُّط الأشعار، وتتبع الأمثال، واستخراج الآي من القرآن، والحُجج من الرواية، مع تفرُّق هذه الأمور في الكتب، وتباعد ما بين الأشكال» (٤/٢٠٩).

(١٢) استمالة قلب القارئ

تصور الجاحظ للتأليف ولعلاقة المؤلف بقارئه مما يحسب للجاحظ في تاريخ التأليف عند العرب. فهو يُقدِّم إفادات في كيفية استمالة القارئ، وشد انتباهه. ولعل هذه الرغبة في استمالة القارئ كانت وراء ظاهرتين في آثار الجاحظ: ظاهرة الاستطراد، على طريقة الجاحظ، وظاهرة توشيح كتبه بشيء من الهزل.

١- البيان والتبيين: ١٨/٢ .

يقول: «وعلى أن الكتابَ إذا كثُرَ هزْلُه سخُفَ، كما أنه إذا كثُر جدُّه ثقُلَ. ولا بدَّ للكتاب من أن يكون فيه بعضُ ما يُنشِّطُ القارئَ، ويَنفي النُّعاسَ عن المستمِع. فمن وجَدَ في كتابنا هذا بعضَ ما ذكرنا، فليَعلم أن قصدَنا في ذلك إنما كان من جهة الاستدعاء لقلبه، والاستمالة لسمعه وبصره»[1].

ولكن كيف يكون موقف الجاحظ المؤلِّف إذا لم يُقبِل القراء على كُتُبه لسبب من الأسباب؟ وكيف يُقبل القراء على كتُبه إذا كان يسيء الظن بمَن يطلب العلم في زمانه؟ فإلى أيّ شيء يحتاج في هذه الحالة؟ يقول – عن تجربته في كتاب الحيوان – إنه يحتاج إلى «مداراتهم واستمالتهم، وترقيق نفوسهم، وتشجيع قلوبهم – مع كثرة فوائد هذا الكتاب – إلى هذه الرياضة الطويلة، وإلى كثرة هذا الاعتذار، حتى كأنَّ الذي أُفيدُهُ إياهم أستفيدُهُ منهم، وحتى كأن رغبتي في صَلاحِهم، رغبَةُ مَن يَرْغَبُ في دنياهُم، ويتضرَّعُ إلى ما حوَتْه أيديهم» (١٥٥/٥).

فكيف ينظر القارئ إلى الكتاب؟ وما الرهان بينهما؟ فهذا الجاحظ يتحدث إلى القارئ، نراه يُغريه بقراءة كتابه، ويكشف له عن قيمته، ويُخاطبُه بقوله: «فإنْ مللْتَ الكتابَ واستثقلْتَ القراءةَ، فأنتَ حينئذ أعذر(...). وما عندي لك من الحيلة إلاَّ أن أُصوِّرَه لك في أحسن صورة، وأُقلِّبَكَ منه في الفنون المختلفة، فأجعَلَك لا تخرجُ من الاحتجاج بالقرآن الكريم إلاّ إلى الحديث المأثور، ولا تخرجُ من الحديث إلاّ إلى الشعر الصحيح، ولا تخرجُ من الشعر الصحيح إلاَّ إلى المثَلِ السائر الواقع، ولا تخرجُ من المثَل السائر الواقع إلاّ إلى القول في طُرَفِ الفلسفة، والغرائب التي صحَّحتْها التجربة، وأبرَزَها الامتحان، وكشَفَ عنها البُرهان، والأعاجيب التي للنفوس بها كَلَفٌ شديدٌ، وللعقول القويّة النُّزُوعُ القوي. ولذلك كتبتُه لك، وسُقتُه إليك، واحتسبتُ الأجرَ فيك» (١٥٥/٥ – ١٥٦).

١– النساء :١٥٣/٣ .

وهو في عمله لا ينشُد إلاَّ الصدقَ، ولا يُدخل الباطل في تضاعيف الحق، ولا يتكثَّرُ بقول الزور، أو يلتمسُ تقوية ضعفه باللفظ الحسن، وسَتْرِ قُبحِه بالتأليف المُونِق، ولا يستعينُ على إيضاحِ الحقِّ إلاَّ بالحق، وعلى الإفصاح بالحجة إلا بالحجة (٧/٥).

بعد أن قدم الجاحظ منهجه في كتاب الحيوان، وبعد أن صوَّره في أحسن صورة، وبعد أن قلَّبَ قارئَه في الفنون المختلفة، وقدَّم إليه من الأعاجيب ما تكلَفُ به نفسُه؛ فماذا على القارئ أمام كل هذا؟ وكيف يستقبِلُ الكتابَ ويُقدِّر ما بذل فيه صاحبه من جهد؟ هنا يتجِّه إلى القارئ بالقول:

«فانظُرْ فيه نظَرَ المُنصِف من الأكفاء والعلماء، أو نظرَ المُسترشِد من المُتعلمين والأتباع. فإن وجدتَ الكتابَ الذي كتبْتُهُ لك يُخالفُ ما وصفتُ فانقُصْني مِن نشاطك له على قَدْرِ ما نقصْتُكَ مما يُنَشِّطُكَ لقراءته. وإن أنتَ وجدتني – إذا صحَّ عقلُك وإنصافُك – قد وفَّيْتُك ما ضمنتُ لك فوجدْتَ نشاطَكَ بعدَ ذلك مدخولا، وحدَّكَ مفلولا؛ فاعلَمْ أنا لم نُؤْتَ إلا من فسولَتِك، ومن فساد طبعِك، ومن إيثارك لما هو أضرُّ بك»(٥/١٥٦).

فالجاحظ هنا يختبر ذكاءَ قارئه، ويدعوه أن يكون في مستوى الكتاب المعروض عليه.

وتتنوَّعُ أساليب الجاحظ في شد القارئ إلى كتُبه، ودعوته أن يُشرِكهُ في المعاناة، ويُقرِّبُه من فكرته، ويستهويه ويستدرجه ويُدغدغ مشاعره؛ فهناك حرْصٌ دائم من الجاحظ على مخاطبة قارئه، في جل ما وقفتُ عليه من آثاره.

(١٣) المزاوجة بين الجد والهزل

المزاوجة بين الجد والهزل من أسس منهجية التأليف عند الجاحظ في مجمل ما كتب، وتبعاً لاهتمامه بالقارئ، يُلح الجاحظ على ضرورة تنشيطه؛

فيقول في رسالته النساء:«وليس ينبغي لكتُب الآداب والرياضات أن يُحمل أصحابُها على الجِدِّ الصِّرف، وعلى العقل المحض، وعلى الحق المُر، وعلى المعاني الصعبة، التي تستكدُّ النفوسَ، وتستفرغ المجهود. وللصبر غاية، وللاحتمال نهاية. ولا بأس بأن يكون الكتاب موشحاً ببعض الهزل. وعلى أن الكتاب إذا كثُرَ هزلُه سخُفَ، كما أنه إذا كثُر جِدُّهُ ثقُلَ»[1].

ويكشف الجاحظ عن سر اهتمامه بالمزاح في تناوله لحقائق الوجود بقوله:«أن المزاح جدٌّ إذا اجتُلب ليكون علةً للجدِّ، وأن البَطالة وقارٌ ورزانة، إذا تُكلفتْ لتلك العاقبة. ولمَّا قال الخليل بن أحمد: لا يصلُ أحدٌ من علم النحو إلى ما يُحتاجُ إليه، حتّى يتعلّم ما لا يُحتاجُ إليه، قال أبو شمر: إذا كان لا يُتوصَّلُ إلى ما يُحتاجُ إليه إلاَّ بما يُحتاجُ إليه، فقد صار ما لا يُحتاجُ إليه يُحتاجُ إليه. وذلك مثل كتابنا هذا» (١/٣٧ – ٣٨).

(١٤) لا بد من الصدق في الإقبال على الكتب

على القارئ أن يُقبِل على العلم بغاية التحصيل، وأن يُعِدَّ العُدَّةَ لذلك، وأن يتهيَّأ نفسيا وعلميا لقراءة الكتب، ومدارسة العلم؛ «فإن كثيراً مِمَّن يتكلَّفُ قراءةَ الكتب، ومُدارسة العلم، يقفون من جميع الكتب على الكلمة الضعيفة، واللفظة السخيفة، وعلى موضع من التأليف قد عَرَضَ له شيءٌ من استكراه، أو نالَهُ بعضُ اضطراب، أو كما يَعرِضُ في الكتب من سَقَطات الوهْم، وفَلَتاتٍ الضَّجَر، ومن خطأ الناسخ، وسوءِ تحفُّظ المُعارض على معنىً له لو تدبَّرَه بعقل غير مُفسِد، ونَظَرٍ غيرِ مَدخول، وتصفَّحَهُ وهو مُحترِسٌ من عوارض الحسد، ومن عادة التسرُّع، ومن أخلاق مَن عسى أن يتَّسِع في القول بمقدار ضيق صدره، ويُرسِل لسانَه إرسالَ الجاهل بكُنْه ما يكون منه. ولو جَعَلَ بدلَ شُغله بقليلِ ما يَرى من المذموم شَغَلَه بكثير ما يرى من المحمود- كان ذلك أشبهَ بالأدب المَرضيِّ والخِيمِ الصالح، وأشدَّ مُشاكلةً للحكمة، وأبعدَ من

١-رسالة النساء :١٥٣/٣ .

سلطان الطيّش، وأقرب إلى عادة السلف وسيرة الأولين، وأجدرَ أن يَهَبَ اللّه له السلامةَ في كُتُبِه، والدِّفاعَ عن حُجَّتِه يومَ مُناضلة خصومه ومُقارعةِ أعدائه» (٦/٧).

فالكتاب مُعرَّضٌ لسقطات الوهم، وفلتات الضجر، وأخطاء النُّساخ، وسوء تحفُّظ المُعارض (معارضة النسختين)، ومن عادة التسرُّع، ومن ضيق صدر القارئ. وهناك مَن يتكلف قراءته بحثاً عن عيوب يُريد إذاعتَها بين الناس.

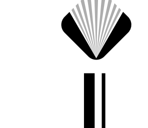
إن ما قاله الجاحظ هنا يدل على رسوخ التأليف في تصور الجاحظ، كما يدل على رسوخ منهج التأليف في حضارة الإسلام منذ القرن الثالث للهجرة.

(١٥) خبرة الجاحظ بالكتب

وإذا كان الجاحظ يقرأ كل كتاب وقع بيده من أوله إلى آخره، كما شهد له بذلك المبرد؛ فإن خبرتَه بالكتب كانت عالية، كما نجد في هذا الخبر الذي رواه محمد بن سليمان الجوهري، قال: «كنا نصحَبُ الجاحظ على سائر أحواله من جِدّ وهزل، فخرجنا يوماً لنُزهة، فبينا نحن على باب جامع البصرة، ننتَظر شيخاً أردناه؛ إذ عارضتْنا امرأةٌ معها أوراقٌ مقطّعةٌ، فعرضتْ ذلك علينا، فلم نجدْ فيها طائلاً، فتركناها وانصرفنا، وتخلَّفَ معها الجاحظُ، ونحن ننتظره، فأطال ثم رأيناه قد وزَنَ لها شيئاً، وأخذ الأوراقَ وقال: انتظروني، ومضى بها إلى منزله، فلما عاد أخذنا نهزأ به، ونقول: فُزْتَ بقطعة من العلم وافرة، وضحكنا، فقال: أنتم حَمْقى، واللّه إن فيها ما لا يوجدُ إلاّ فيها، ولكنكم جُهّالٌ لا تعرفون النفيس من الخسيس»[1].

١- تقييد العلم: الخطيب البغدادي(أبو بكر أحمد بن علي ٤٦٣هـ)، تحقيق: د. يوسف العش، ص١٣٨ - ١٣٩

ونستفيد من هذا الخير، ومن غيره، أهمية المصادر في التأليف، والحِرص على جمعها. يقول:«ولولا الكتب المدوَّنة والأخبار المُخلدة، والحكم المخطوطة... لبطَلَ أكثرُ العلم»(١/٤٧).فلا بد من توافر الكتب عند مَن يُريد أن يطلب العلمَ أو يُؤلِّف فيه، ولا بد من السعي في طلب الكتب والإنفاق عليها مهما كلفك ذلك. «فالإنسان لا يعلم حتى يكثُرَ سماعُه، ولا بد مِن أن تكون كتُبُه أكثرَ من سماعه، ولا يَجمع العلمَ، ولا يُختَلَفُ إليه حتى يكون الإنفاق عليه من ماله، ألذَّ عنده من الإنفاق من مال عدوِّه» (١/٥٥). ألهذا الحد أحب الجاحظ الكتب؟ أكان في حضارة الإسلام مَن يقول مثل هذا الكلام؟ بمثل هذا الإحساس كانت حضارة الإسلام حضارة كتاب.



المبحث الثامن

هل هناك فوضى في آثار الجاحظ ؟

(١) اتهام الجاحظ بالاستطراد قديما وحديثا

بالرغم مما قدَّمه الجاحظ من نظرات منهجية في قضايا التأليف، إلا أن الباحثين افتقدوا تلك الروح المنهجية في آثاره، واتهموه بالاستطراد، وجعلوه سمةً من سِمات التأليف لديه. وقد لاحظ القدماء ظاهرة الاستطراد في آثار الجاحظ، فهذا أبو هلال العسكري (٣٩٥هـ) يُلاحظ أن أقسام البيان، في كتاب البيان والتبيين» مبثوثة في تضاعيفه، ومنتشرة في أثنائه، فهي ضَلَّةٌ بين الأمثلة، لا توجَدُ إلاَّ بالتأمّل الطويل، والتصفُّحِ الكثير»[١]. ومن المعاصرين يقول جميل جبر: «وقد يكون أهم ما يُؤخذ على الجاحظ هو انتقاله من موضوع إلى موضوع حتى ليضيع القارئُ ويغيب عنه إحساس البحث»[٢]. وذكر د. محمد نبيه حجاب أن الجاحظ قد درج على الاستطراد، وبه تميزت طريقته؛ فكان كثير الاستطراد والتفريع[٣].

وعن كتاب الحيوان يلاحظ د.عمر الطباع أننا «إذا ما نظرنا إلى كتاب الحيوان من زاوية براعة التأليف يتضح لنا أن هذه الميزة تكاد تكون معدومة، فلا إحكام في التصميم، ولا أثر للتنسيق والتخطيط المنهجيين في هذا المؤلف: فالعلاقة بين الموضوع والمَوضوع الذي يليه واهية جدا، وأحيانا مبتورة. فالانتقال من بحث إلى آخر، بدون حسن التخلص، والإغراق في الاستطرادات التي تقطع على الأفكار نظامَ تَساوُقها، والعودة بعد الاستطرادات إلى البحث الذي انقطع، والمزج العلمي والنوادر المفكَّهة التي لا تمتُّ إلى العلم بصلة، كلُّ هذا من شأنه أن يَسِم كتاب الحيوان بالفوضى التأليفية»[٤].

١- كتاب الصناعتين: ١١ .

٢- الجاحظ في حياته وأدبه وفكره: جميل جبر – ط١ (بيروت، دار الكتاب اللبناني، ١٩٥٩)،ص١٥٠

٣- بلاغة الكتاب في العصر العباسي، دراسة تحليلية نقدية لتطور الأساليب: محمد نبيه حجاب،ص٢٩٠

٤- مقدمة تحقيق كتاب التاج في أخلاق الملوك للجاحظ ، تحقيق د. عمر الطباع – ط١ (بيروت، شركة دار الأرقم بن الأرقم، ٢٠٠٢)، ص١٧ .

وقال عن كتاب البيان والتبيين أن ما يُلفت النظر فيه «فوضوية التأليف؛ إذ لم يعتمد طريقة منظمة في البحث، فمن الصعب أن يعثر القارئ على ما ينبغي من آراء إلا بعد جهد المطالعة والجمع»[١].

وعلَّقَ آدم متز عن البيروني (٤٤٠هـ)، حين وجده يصِف كتب الهند بالاضطراب وعدم النظام، في كتابه تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة، بقوله: «على أن كُلا من الجاحظ والمسعودي قد كتب على نحو ما كتب الهنود. ولكن نقد البيروني للهند يدل على أن مؤلفي العرب خطوا في التأليف خطوة جديدة قُبِض بها عنان الاستطراد والخلط»[٢].

وقال آدم ميتزعن أسلوب الجاحظ: «وكان أسلوب الجاحظ مستحدثا لم يَستحِكم في التجربة، وكثيرا ما يشوب طريقته في الكتابة الثرثرة والاستطراد إلى حد الإملال، ولكن هذا بعينه هو ما كان موضع لذة المعجبين بالجاحظ، وكانوا يشعرون بأنه إنقاذ لهم من طريقة العلماء السائدة إلى ذلك الحين والتي كانت ثقيلة لكثرة ما فيها من الجد وإظهار العلم»[٣].

وورد في مادة الجاحظ في دائرة المعارف الإسلامية «وعيوب مصنفات الجاحظ كلها تقريبا افتقارُها إلى حسن النظام في التحرير والتبويب، وكثرة استطرادها» [٤].

ونجد أحمد أمين يُحمِّل الجاحظ مسؤولية ما حدث من فوضى في كتب الأدب العربي فيقول: «والحق أن الجاحظ مسؤول عن الفوضى التي تسود كتب الأدب العربي، فقد جرت على منواله، وحذت حذوه؛ فالمبرد تلميذُه تأثر به في تأليفه، والكتب التي تألفت بعده كعيون الأخبار، والعقد الفريد،

١- نفسه، ص٣٤ .

٢- الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري: أدم ميتز ١٧/٢ .

٣- الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري: آدم ميتز : ٤٤٣/١ .

٤- دائرة المعارف الإسلامية:٢٣٨/٦ .

فيها شيء من روح الجاحظ، وإن دخلها شيء من الترتيب والتبويب»[1].

وهل يَصِحُّ أن نُحَمِّل الجاحظ، مسؤولية ما شاع من فوضى في التأليف في الأدب العربي، أو أن ندعيَ سيادة الفوضى في كتب الأدب العربي عامة

ومما يلاحظ أن مقدمة كتاب الحيوان تشتمل على جانب من فهرست كتبه، وأنه فنَّد فيها آراء شخص تعرض لمؤلفاته بالطعن، ولم يَرِد في تلك الطعون ما يُشير إلى الطعن فيما أُطلق عليه فوضى التأليف في آثار الجاحظ.

وظاهرة الاستطراد، أو ما أُطلِق عليه فوضى التأليف في كتب الجاحظ، يُمكن تقديم تبريرات في شأنها؛ للتخفيف من الطعن عليه فيما كتبه من كُتُب ورسائل؛ منها أن الظاهرة كانت شائعة في كتب الأدب خلال القرن الثالث للهجرة.

(٢) الاستطراد ظاهرة تعم كتب الأدب في زمن الجاحظ

فما يُعَدُّ فوضى التأليف في كتب الأدب، كان ظاهرة تعم مرحلة الجاحظ. فالجاحظ أديب قبل كل شيء، وكُتُب الأدب على عهده كانت تطبعها سِمة التنوع وطابع الاختيار؛ فلم تكن لها رؤية منهجية متخصصة. وقد لاحظ أستاذ الأجيال، رحمة الله عليه، الدكتور أمجد الطرابلسي أن كتب الأدب تتميز عن سواها بصفتين: الأولى: فُقْدان الاختصاص، والثانية الاستطراد المستمر. فقد وجد أن كتب الأدب لا تقتصر على فن واحد، بل هي تخوض في كل الألوان، بدون استقصاء أو استقراء، وبدون معالجة منطقية متعمقة. كما وجد أن الاستطراد، أو تداعي الأفكار، يُشكل فوضى في التأليف.

والجاحظ هو المؤسس للمكتبة الأدبية في تاريخ الثقافة العربية، وكُتُبُه من أوائل ما وصل إلينا من تراث الأدب العربي؛ فلا غرابة أن تتنوع موضوعات كتبه ويسودها خَلَلٌ واضطراب في تبويبها وتنظيمها.

١-ضحى الإسلام: أحمد أمين – ط٦ (القاهرة، مكتبة النهضة المصرية، د.ت) : ٣٩٢/١ .

وبالرغم من فوضى التأليف في كتب الأدب هذه؛ فإن قيمتها تتمثل فيما يجدُهُ قارئُها من مُتعة لا تُحدُّ «كما أن هذا التنوع في كتب الأدب جعلها صالحة لكل زمان. فالإنسان المثقف في كل عصر مُحتاجٌ في بعض أوقاته إلى مثل هذه المؤلفات الخفيفة الظل، المُحبَّبة إلى النفس؛ التي لا تُجهِدُ قارئَها ولا تشُقُّ عليه، بل تُسلّيه بمفاجآتها الفكرية وطرائفها الفنية. وأخيراً فإن دواوين الأدب هذه، بفضل اتساع أفقها وتعدد مراكز الاهتمام فيها، أصبحت من أهم مصادر الباحثين في دراساتهم الأدبية»[1].

ويلاحظ الأستاذ أمجد، تغَمَّدَه الله برحمتهأن تلك الفوضى في كتب الأدب كانت مُتعمَّدَة مقصودة، وأن أكثر مؤلفيها يُصرحون أنهم قصَدوا إلى ذلك قصْداً، وأن غايتهم نهْجُ تلك الطريقة ذات الأنغام المتعددة لنفْيِ السأم عن القارئ. ويرى أن تصنيف كتب الأدب على مثل هذه الطريقة ذات الأنغام المتعددة والألوان المختلفة لم يكن بالأمر السهل[2].

(٣) وعْيُ الجاحظ بطريقته في التأليف

فمن المعلوم أن الجاحظ كان على وعي واضح بهذه الظاهرة؛ فهو ينقُدُها في آثاره، من جهة، ويُبَرِّرُ وجودَها أكثر من مرة فيما يكتبه، من جهة ثانية. ويَعدُّها وسيلة تعليمية لنفي الملَل والرتابة عن متلقي كتبه، وبواسطتها يستدرُّ نشاطَ القارئِ وإعجابَه، ويستميل فكره وقلبه.

فهو يرى أن قارئه «أبدا مستفيد ومُستطرِفٌ، وبعضه يكون جَماماً (راحةً) لبعض، ولا يزال نشاطه زائداً. ومتى خرج من آي القرآن صار إلى الأثر، ومتى خرج من أثر صار إلى خبر، ثم يخرج من الخبر إلى شعر، ومن الشعر إلى نوادر، ومن النوادر إلى حِكَمٍ سِداد، ثم لا يترك هذا الباب(...)، حتى

١- د. أمجد الطرابلسي نظرة تاريخية في حركة التأليف عند العرب في اللغة والأدب: — ط٥ (الدار البيضاء، دار قرطبة للطباعة والنشر١٩٨٦)، ص١٣١ – ١٣٢ .

٢- نفسه، ص١٣٩

يُفضيَ به إلى مزْح وفكاهة، وإلى سُخْف وخرافة، ولستُ أراه سُخفاً إذ كنتُ إنما استعملتُ سيرة الحكماء، وآداب العلماء» (١/٩٣ – ٩٤). ألا يُفهم من هذه الإشارة أن أساليب التأليف قبله على هذا المنوال؟ ألا تراه يقول إنه يستعمل آداب العلماء؟

ووعيُ الجاحظ بالاستطراد يتمثل في مظهرين:

أولهما: ما وضعه من نظرات رائدة حول قضايا الكتاب تأليفا وبناء وترتيبا ومراجعة. وهو ما رأينا جوانب منه في هذا البحث.

وثانيهما: ما قدمه من تعليلات وتبريرات في شأن ما يجده القارئ في كتبه من استطرادات.

وإذا كانت مآخذ الاستطراد تبرز بشكل خاص حول كتابيه: الحيوان والبيان والتبيين. فعن كتابه الحيوان يقول معتزّاً به ومدافعاً عن منهجه فيه: «وهذا كتابُ موعظةٍ وتفَقُّهٍ وتنبيه. وأراك قد عِبتَه قبل أن تقِف على حدوده وتتفكَّرَ في فصوله، وتعتبرَ آخرَه بأوله، ومصادره بموارده». ويدعو قارئه إلى متابعة كتابه قائلاً: «لم يَصْبِرْ عليه مع طوله إلاَّ مَن تجرَّد للعلم، وفهِم معناه، وذاق من ثمرته، واستشعر من عزِّه» (١/٣٧ – ٣٨).

ومن تبريراته للاستطراد يقول في بداية الجزء الثالث من كتاب الحيوان: «على أني عزمْتُ – والله الموفق – أني أوشح هذا الكتاب، وأفصِّلُ أبوابَه، بنوادرَ من ضروب الشعر، وضروب الأحاديث؛ ليخرجَ قارئُ هذا الكتاب من باب إلى باب، ومن شكل إلى شكل؛ فإني رأيتُ الأسماعَ تمَلُّ الأصواتَ المُطربةَ، والأغانيَ الحسنةَ، والأوتارَ الفصيحة إذا طال ذلك عليها. وما ذلك إلا في طريق الراحة التي إذا طالت أورثت الغفلةَ. وإذا كانت الأوائلُ قد سارت في صِغار الكتب هذه السيرةَ كان هذا التدبيرُ لِمَا طالَ وكثُر أصْلَحَ. وما غايتُنا من ذلك كلِّه إلا أن تَستفيدوا خَيْراً» (٣/٧).

فإذا كانت الأوائل قد سارت في صغار الكتب هذه السيرة، كما يذكر الجاحظ؛ فلِمَ نتهمه بإشاعة فوضى التأليف في كتب الأدب؟

وعن الاستطراد في البيان والتبيين، يذكر الجاحظ منهجَه في تأليفه فيقول: «قد يَجْري السبب فيُجرَى معه بقدر ما يكون تنشيطاً لقارئ الكتاب؛ لأن خروجَه من الباب إذا طال لبعض العلم، كان ذلك أروحَ على قلبه وأزيد في نشاطه»[1].

(٤) تبريرات الجاحظ لظاهرة الاستطراد في كتبه

ويتضح من خلال التبريرات التي أتى بها الجاحظ في بعض المواضع من كتبه، أنها تدور في مجملها حول أمور أهمها:

أولا: إنه لم يخرج عن الطريقة السائدة في تأليف كتب الأدب خلال عهده.

ثانيا: ليس معنى الاستطراد، عند الجاحظ، أن يتم الخروج عن الموضوع؛ إنما الاستطراد أن يخرج من شيء إلى شيء داخل الموضوع الواحد، يقول، بصيغة مَن يُنظِّرُ لهذا الشأن، في البيان والتبيين:«وجْهُ التدبير في الكتاب إذا طالَ أن يُداويَ مؤلِّفُه نشاطَ القارئ له، ويسوقَه إلى حظه بالاحتيال له، فَمِن ذلك أَن يُخرجَهُ من شيء إلى شيء، ومن باب إلى باب، بعد أن لا يُخرجَه من ذلك الفن، ومن جُمهور ذلك العلم»[2].

فالاستطراد عنده لا يعني الخروج عن الموضوع الذي هو مجال البحث، أو الخروج عمّا له علاقة بذلك العلم، أي بذلك التخصص.

وشعور الجاحظ بالاستطراد، والتنبيه إليه، نجده في كتابه البيان والتبيين حين عرض، في إشارة، لكراهية الرجال أن يلِد نساؤهم بناتاً فأحس أن ذلك خروج عن الموضوع، فقال: «وهذا الباب يقع في كتاب الإنسان

١- البيان والتبيين: ١/١٨٦

٢- المصدر السابق:٣/٣٦٦

ﻓﻲ فصل ما بين الذكر والأنثى تامّاً، وليس هذا الباب مما يدخل ﻓﻲ باب البيان والتبيين»[1].

ويرى الجاحظ أن النفس الإنسانية يتقاسمها الجد والهزل؛ ومن هنا لم يرَ غضاضة ﻓﻲ توشيح كتبه ببعض الهزل، يقول: «وليس ينبغي لكُتُب الآداب والرياضات أن يُحمل أصحابُها على الجِدِّ الصِّرف، وعلى العقل المَحْض، وعلى الحق المُر، وعلى المعاني الصعبة، التي تستكدُّ النفوس، وتستفرغ المجهود. وللصبر غايةٌ، وللاحتمال نهاية. ولا بأس بأن يكون الكتابُ موشَّحاً ببعض الهزل. وعلى أن الكتاب إذا كثر هَزْلُه سَخُفَ، كما أنه إذا كثُر جِدُّه ثقُلَ»[2].

إن طبيعة الموضوع وسياقه المعرفي قد يقتضيان من صاحبه أن يكون تأليفُه منسجماً مع سياقه المعرفي. فـ» قد يَجْري السبب فيُجرَى معه»، كما قال الجاحظ.

ثالثا: ضرورة تنشيط القارئ، والاستزادة من ذلك، تحت تأثير طول الكتاب؛ حتى يكون ذلك أروح على قلب القارئ. وقد رأيناه يقول: «ولابد للكتاب من أن يكون فيه بعضُ ما يُنشِّطُ القارئ، وينفي النعاس عن المُستمع»[3].

رابعا: تحديده لنوع الاستطراد، كما يُعرب عن ذلك ﻓﻲ بداية كتاب العصا من البيان والتبيين، حين يقول: «هذا، أبقاك الله، الجزء الثالث من القول ﻓﻲ البيان والتبيين، وما شابه ذلك من غُرَر الأحاديث وشاكَلَه من عيون الخُطَب، ومن الفِقَر المستحسنة، والنُّتَف المستخرَجَة، والمقطعات المتخَيَّرة، وبعض ما يجوز ﻓﻲ ذلك من أشعار المذاكرة، والجوابات المنتخَبَة»[4].

١- المصدر السابق:١/١٨٦ .

٢- كتاب النساء: ١٥٣/٣ .

٣- نفسه: ١٥٢/٣ .

٤- البيان والتبيين: ٥/٣ .

وكما رأينا، فإن الجاحظ يستحضر القارئ في جميع مراحل الكتابة؛ فهمُّه الأول أن يشتمل الكتاب على بعض ما يُنشِّط القارئ، ويطرُد عن السآمة، وغايتُه أن تجد النفس راحتها وهي تُقبل على الكتاب. فنفسية المتلقي لا ينبغي أن تتعرض للكد وطاقتُه لا ينبغي أن تُستفرَغ كلية، ولا عليها أن تتعرض للجد الصرف، وإلى مواجهة القضايا العقلية المحضة، أو أن تتجرع المعاني الصعبة.

(٥) كيف أعرب الجاحظ عن وعيه بالاستطراد؟

وعيُه بالاستطراد أعرب عنه بأشكال مختلفة، كما نرى من خلال الأقوال الآتية:

قوله: «لا بد أن يكون في الكتاب بعضُ ما يُنشط القارئ» [١].

وقوله:«فإننا سنُنشطك ببعض البَطالات، وبذكر العلل الظريفة، والاحتجاجات الغريبة» (٣/٥).

قوله في نهاية كتاب الحيوان:«وأنا أعلم أني لو فسرتُ لك معانيَ هذه الأشعارَ وغريبَها لكان أتمَّ للكتاب وأنفعَ لمن قرأ هذه الأبوابَ، ولكني أعرف ملالة الناس للكتاب إذا طال» (٧/٢٢٢).

وقوله: «فليعلم أن قصدنا في ذلك إنما كان على جهة الاستدعاء لقلبه، والاستمالة لسمعه وبصره»[٢].

- ويظهر هذا الوعي في إحساسه بتبويب الكتاب حين يقول فيه « وجدناه قد اشتمل على أبواب يكثُر عددُها، وتبعُد غايتُها»[٣].

١- كتاب النساء (رسائل الجاحظ): ٣/١٥٣

٢- المصدر السابق: ٣/١٥٣

٣- نفسه: ٣/١٥٣

- وقوله: «كما نحب أن نُخرج هذا الكتابَ تاما، ويكونَ للأشكال الداخلة فيه جامعاً»[1].

- قوله : «جُعلتُ فداك، إنما أُخرجُك من شيء إلى شيء، وأورد عليم الباب بعد الباب؛ لأن من شأن الناس مَلالة الكثير، واستثقال الطويل، وإن كثُرت محاسنُه وجمّت فوائدُه» [2]

ويتضح إحساسه بالمنهج فيما قاله في كتابه مناقب الترك: «سلكنا في هذا الكتاب سبيلَ أصحاب الخصومات في كتبهم، وطريق أصحاب الأهواء في الاختلاف الذي بينهم. وكتابنا هذا إنما تكلفناه لنُؤلِّف بين القلوب إن كانت مختلفة، ولنزيد في الألفة إن كانت مؤتلفة» [3].

كان همُّ الجاحظ أن يُقيد ما تناثر من آداب العرب؛ فيجمع شتات النصوص؛ ومن هنا ضربت آثاره في عدة اتجاهات واتسمت بالشمولية. ورأى د. حمادي صمود أن نزعة الجاحظ إلى التجميع والتقصي، «تجسيمُ لتصوُّر ثقافي ونظرية المعرفة، لم تخضع، في الغالب، لمنهجية واضحة وبناء مُحكم، في حدود مفهومنا نحن اليوم للمنهج والنظام»[4].

وما اعتبره الناس استطراداً، كان عند الجاحظ منهجاً في التأليف؛ جاء نتيجة تنوع معارفه، وسَعة ثقافته، ونتيجة ما يجده من لذة في تنويع المادة واستقصاء جوانبها والبحث عن غرائبها ودقائقها. فهو يبدو في بعض الأحيان كأنَّما يعبث بكل تخطيط وتنظيم وتسلسل في الأفكار، وتراه يتحرك بين الأفكار بكل حرية ووعي وتحدٍّ، وغايتُه أن يُلم بالموضوع من جميع أطرافه، ويَردُّه إلى مختلف عناصره.

١- نفسه : ١٥٢/٣

٢- التربيع والتدوير:١٠٣/٣ .

٣- مناقب الترك :١٨٩/٣ .

٤- التفكير البلاغي عند العرب، أسسه وتطوره إلى القرن السادس: ص١٤٣ .

وكان مرضُه في المراحل الأخيرة من حياته مبرِّراً لما يعتري كتبَه من استطرادات، وكان على وعي بذلك، كما يصف لنا معاناته أثناء تأليف كتاب الحيوان، حين قال:

«قد صادف هذا الكتاب مني حالات تمنع من بلوغ الإرادة فيه. أول ذلك العلةُ الشديدة، والثانيةُ قلةُ الأعوان، والثالثةُ طولُ الكتاب (...) فإن وجدتَ فيه خلَلا من اضطراب لفظ، ومن سوء تأليف، أو من تقطيع نظام، ومن وقوع الشيء في غير موضعه، فلا تُنكرْه بعد أن صوَّرْتُ لك حالي التي ابتدأتُ عليها كتابي».

فهو يعترف هنا بالاستطراد في كتابه، ويردُّ ذلك إلى مرضه. ومن التبريرات التي يمكن سوقها هنا:

- في البصائر والذخائر:«كتَب الجاحظ في» المُلَح» يُدافع عن ظاهرة الإضحاك في أعماله، وما ينتابها من مزج الجد بالهزل، يقول مدافعا عما يعتبره الناس سُخفا عنده: «فلم نقصد إلى الباطل، ولا إلى ما يَرُدُّ نفعاً في عاجل، ولا مرجوع له في آجل، بل إنما أردنا أن يكون ذلك الضحِك إجماماً للقُوّة، وتنشيطاً إلى العمل»[1].

- وعندما تناول ابن خلدون (٨٠٨هـ) في المقدمة مقاصد التأليف التي ينبغي اعتمادُها وإلغاء ما سواها، ذكر في النوع السادس من التأليف أن يَجمَعَ المؤِّلفُ ما تفرَّقَ «أي أن تكون مسائل العلم مُفرَّقةً في أبوابها من علوم أخرى، فيتنبَّه بعضُ الفضلاء إلى موضوع ذلك الفن وجمع مسائله، فيفعَلُ ذلك، ويَظهَرُ به فنٌّ يَنظِمُه في جملة العلوم التي ينتحلُها البشرُ بأفكارهم. كما وقع في علم البيان فإن عبد القاهر الجرجاني وأبا يوسف السكاكي وجدا مسائله متفرقة في كتب النحو. وقد جمع منها الجاحظ في كتاب

١- البصائر الذخائر: ٨/٥٩ .

البيان والتبيين مسائل كثيرة تنبَّهَ الناسُ فيها لموضوع ذلك العلم وانفراده عن سائر العلوم»[1].

- ومن التبريرات التي ساقها د. طه الحاجري في شأن ظاهرة الاستطراد في كتابات الجاحظ؛ أن هذا الأخير يُسيء الظن بجمهور القراء، ويفترض فيهم قِصَر الهِمَّة؛ ومن هنا نوَّع موضوعاته في كتاب الحيوان، ومال إلى الاستطراد[2].

ولاحظ عبد السلام هارون أن كتاب البرصان والعرجان والعميان والحولان جاء «مُفصّل الأبواب، واضح التقسيم والتبويب»[3].

- وتقول وديعة طه النجم «الجاحظ باحث مُتأمِّل مُدقِّق، وربما صَرَفَه التأمُّلُ عن التنظيم إلى التشتُّت، ولكنه لا يدَعُ قضيةً تُثيرُ تساؤلَه أو ذِهنَه دون أن يَقِفَ عندها، ويُشرك قارئه معه»[4].

ومن المبررات التي أضافها د. عمر الطباع ثقافة الجاحظ الموسوعية المتنوعة، فهو يرى أنها «كانت تُمطره، وهو يكتب، بوابل من الأفكار التي تتداعى، فلا يستطيع إلى صدِّها سبيلا، فيستقبلها قلمُه، على تنوعها وتباينها، وعزاؤه أنه يعرِضُ كمية هائلة من المعارف قلَّما توافرت لرجل واحد في تاريخ الأمم»[5] وعموما، إن اتهام الجاحظ بالاستطراد، لا يُقلِّل شيئا من عبقريته، ولا يُقلل شيئا من أهمية آثاره، ولا ينبغي أن يدعي مدَّعٍ أنه كشف خصائص عبقرية الجاحظ؛ فما تزال مدفونة في تضاعيف آثاره.

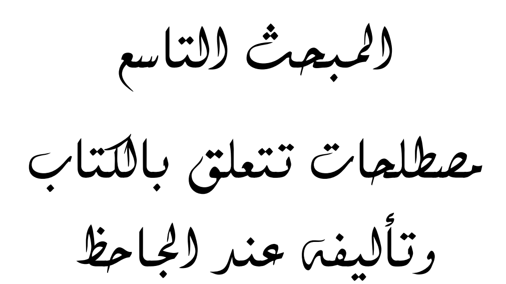
١- مقدمة ابن خلدون، تحقيق د. علي عبد الواحد وافي: ٣/١٢٣٩ .

٢- الجاحظ ، حياته وآثاره، ص٤٢٢ .

٣- مقدمة هارون لتحقيقه كتاب البرصان والعرجان، ص١٤ .

٤- منقولات الجاحظ عن أرسطو في كتاب الحيوان: د.وديعة طه النجم – ط١ (الكويت، منشورات معهد المخطوطات العربية)، ص٤٥ – ٤٦ .

٥- مقدمة أنيس الطباع لتحقيق كتاب التاج في أخلاق الملوك، ص٤٢ .



المبحث التاسع

مصطلحات تتعلق بالكتاب وتأليفه عند الجاحظ

دفع الجاحظ بكثير من الألفاظ إلى الخروج من عالم الدلالات الخاصة إلى عالم الدلالات الاصطلاحية العامة. وكانت مرحلته تشهد انبثاق المصطلحات في مجالات المعرفة، وفي مجالات تأليف الكتاب. وقد وضعتُ بعض الألفاظ التي لها علاقة بالكتاب في وحدات تبعاً للتكوين المادي للكتاب ولكتابته وتصنيف مواده ونسخه وقراءته وتداوله. ولم أرتبها ترتيبا ألفبائيا حتى لا يطول الكتاب.

والجاحظ مِمّن تفطَّنوا إلى ميلاد الألفاظ تبعا لحاجة الناس إلى استعمالها في حياتهم . يروي الجاحظ في البخلاء قول طاهر الأسير: «ومِما يدل على أن الروم أبخلُ الأمم أنك لا تجد للجود في لغتهم اسماً، يقول: إنما سَمَّى الناسُ ما يحتاجون إلى استعماله ومع الاستغناء يسقط التكليف»[1]. فلا شك أن في آثار الجاحظ تُلتمس الألفاظ المتعلِّقة بالكتاب في جميع أطواره؛ لأنه كان بالنسبة للأمة التي ينتمي إليها، وعاءَ ثقافة تُؤسس بواسطته حضورَها في التاريخ، وتستجيب من خلال ذلك لنداء السماء، أن تتعلّم وأن تقرأ، لئلاَّ تكون في درجة مَن لا يعلمون. فلا عِزَّةَ في الأرض لمن لا يعلمون، ولا حياةَ لِمن هم عن القراءة ساهون.

وغايتي التنبيه إلى بذور هذه المصطلحات في آثار الجاحظ. وعن شروح بعض هذه المصطلحات ، يمكن الاستفادة من العمل الرائد الذي قدمه كل من د. أحمد شوقي بنبين ود. مصطفى طوبي، بعنوان معجم مصطلحات المخطوط العربي (قاموس كوديكولوجي) . وقد اكتفيت ببعض الشروح التي أوردها الجاحظ.

(الأرقام الواردة ما بين معقوفين: في الحيوان، وبدونهما: في رسائل الجاحظ) .

المواد الأولية للكتاب: سفط، الأسفاط (١/٦١) – الصحيفة، الصحف

١- البخلاء:١٩٥

(٨٦/١، ٢١٦) - الدفاتر (٦١/١)، دفاتر علمه (١٠١/١) – حزامة الدفتر، شداده ، رُبُطه:٢٤٦/١ الرقوق (٦١/١) - الرقوم (٧٠/١) – السجلات (٦٩/١) - الصكاك: ٢٥٣/١- طومار، وطامور: الصحيفة، ج. طوامير (٩١/١) - ١٤٩/١ ، البيان:٢٥٥/١ – الطوامير الطِّوال (٢٠٩/١)[1]- قرطاس، قراطيس (٦١/١ ، ٧٠) - القُطْنِيُّ:٢٥٣/١ - القماطر (٦١/١) - ٢٤٧/١) - الكاغد: ٢٥٤/١ - الكاغد الخراساني: ٢٥٢/١ - كراريس:٢٤٦/١ – كراريس درسه (١٠١/١) ، ٢٤٦/١- المساطر (٦١/١) - المحابر (٦١/١) - مهارق (والمهارق ليس يُراد بها الصحف والكتب، ولا يُقال للكتب مهارق حتى تكون كتب دين، أو كتب عهود، وميثاق، وأمان (٧٠/١ - ٨٦) [2] - ألواح (٨٦/١) – الورق الصيني: ٢٥٢/١.

الخطوط والمداد: لا يَخُطُّ سطراً:٢٥٣/١ - استجادة الخط (٥٥/١) –لم أر ...كالخطوط التي فيها خطّاً - الخط الحازي والعراف والزاجر (الحازي: صاحب الكهانة، والعراف: الكاهن والطبيب) (٦٣/١) - الخطوط (٧٠/١) - الحبر الأسود المشرق (٥٥/١)- رداءة الخط، تقبيح الخط، خط حُلو:١٩٠/٢ – الدواة:١٩١/٢ .

أصول الكتاب : أصول الكتب: ٣٥١/١- أمٌّ (كل مصحف منها فهو أم على حدة = أصل) (٩٣/١) - أم الكتاب: سُميت فاتحة الكتاب : أم الكتاب: ١٨٦/١ – كل مصحف منها هو أم على حدة (٩٣/١) - التصحيف (٧٩/١ - ١٢٣/١) – مصادر الكتاب وموارده (أراك قد عبته قبل أن تقف على حدوده، وتتفكَّر في فصوله، وتعتبر آخره بأوله، ومصادره بموارده) (٣٧/١)

١- الطوامير هي المهارق التي تُصنع من ورق المَوز للكتابة، وأحسبه مأخوذا من المطمورة وهي الحُفرة التي تُطمَر فيها الأشياء أي تُخبّأ فيها؛ لأن المكتوب يُخبّأ في الصحيفة، وقيل إنه ليس بعربي أصيل : سفر السعادة وسفير الإفادة: السخاوي : ٣٥٤/١ .

٢- المُهْرَقُ : الصحيفة، أصله من الفارسية : مُهْرَه، والمهارق : القراطيس التي يُكتب فيها ، وقالوا هي خِرَق كانت تُصقل ويُكتب فيها وأصلها " مُهرَكَرْوَه أي صُقِلت بالخَرَز : سِفر السعادة وسفير الإفادة: السخاوي:٤٨٣/١

- النسخة المنصوبة (الأصل، الأم، المعتمدة في المقابلة) :١٣٦/٣- عِرْق الكتابة:١٨٩/٢ – سِنْخُ الكتابة:١٩٠/٢.

مكونات الكتاب بعد تأليفه: اسم الكتاب (١٠/١) - يبتدئ الكتاب (٨٩/١) - أول كتابي (١٠/١) – مستفتح الكتب (٤٢/١) - مقدمة: ٦٥/٤ – مقدمات الكتاب مرتبة (١٠/١) – توطئة: ٦٥/٤ - صدر هذا الكتاب: ٣٣٥/١ - باب الكتاب [٩٣/١) - فصول الكتاب (٨٨/١) - فصَّل أبوابه (٧/٣) - الطابَع (الخاتم الذي يُختم به الكتاب):١٥٠/١- طبقات معاني الكتاب منزلة (١٠/١) – فصول الكتاب (٣٧/١) – معاني الكتاب (٨٩/١) جملة الكتاب (٩٧/) حقائق الكتاب (٢٦٨/٦) – فهرست (حافظا لفهرست كتبه) (٤٧/١) (قال أبو حيان: حدثنا علي بن عيسى النحوي، قال سمعت ابن الإخشيد يقول: «ذكر أبو عثمان في أول كتاب الحيوان أسماء كتبه ليكون ذلك كالفهرست» : معجم الأدباء: ٢١١٥/٥).

النساخة والوِراقة: نسخ الكتاب (٦٢/١) النسخ في الجلود:٢٥٢/١ - أسقاط الناسخين (١٧٨) - خطأ الناسخ (٥٥/١ ،٦/٣)، ٢١٥/٢- الخرائط: ٢٥٤/١ - سحاءة (سحاءة القرطاس: ما انقشر منه):١٥٠/١) - سقطات الكلام (٧٨/١) – سقطات الوهم (٦/٣) - السَّقَط (٦٩/١، ٧٩/١) - تحفُّظُ المُعارض(معارضة النسختين) (٦/٧ - نسخة، نُسَخٌ، ينسخ (٧٨/١) - (٧٩/١) – ١٢٦/٣ – أصناف الناسخين (٧٨/١) – أسقاط الناسخين للكتب (٧٨/١) – فساد النسخ (٢٨٠/٦) - الورَّاق: ورقات (٧٩/١ - ٢٠٢) – وذكر له ياقوت الحموي رسالتين: رسالة في مدح الوراق ورسالة في ذم الوراق (معجم الأدباء:٢١٢٠/٥). ولعل الجاحظ أول مَن ألف في موضوع الوِراقة والورّاقين. الورق النقي الأبيض: (٥٥/١) – حواشي الكتاب وأسافلها (البيان:٩/٢) – شَنَجُ الكتاب (تقلُّصُه):(١٩٠/٢) – يُصَحِّفُ :(٢١٦/٢).

التأليف والجمع والتصنيع: تأليف (١٠١/١) – أصناف التأليف (١٠٢/١) – الكلام المؤلف من حروف (٢٠٩/١) - التصنيف (تصنيف الجند ، تولى التصنيف): ٢٠٧/٢ - مؤلف الكتاب وواضعُه (٧٦/١) – واضع الكُتب (١/ ٨٤، ٨٥ – ١٤/٦) - وضع الكتب (٢١٨/١) - واضع الكتاب (٨٤/١)- مؤلف الكتاب (٧٩/١)- نحت الكتاب وسبكه (١٠/١) - أهل الكتاب (يقال لأهل التوراة والإنجيل) (٨٦/١) - يُعنون الكتاب: (٩٨/١) - يخزم الكتاب ويختمه: (٩٨/١) - (الكتاب) موسوم بي: (٣٥٠/١) - موسوم بسيما (٧٨/٤) - أفضِّلُ الكتب (٧/٣)- المُملي والمُستملي:٢١٥/٢.

أنواع الكتب: صنوف التأليف: (٣١/٤) - كتب الظرفاء والعلماء، كتب الفُرّاغ، والخلعاء، وكتب الملاهي، والفكاهات، وكتب أصحاب الخصومات، وكتب أصحاب المِراء، وكتب أصحاب العصبية وحمية الجاهلية (٢٥/١) – كتب الدين (٥٠/١) - كتب الزنادقة، كتب حكم، كتب فلسفة، كتب ارتفاقات ورياضات، كتب الحكمة (٥٦/١)- كتب الهندسة، كتب التنجيم، كتب الحساب، كتب اللحون، كتب دين، كتب إخبار عن الله عز وجل (٧٧/١) - كتُب الحساب، والطب، والمنطق، والهندسة (٨١/١) – كتب المناقضان، كتب المسائل والجوابات:٢٢٠/٣ - كتب الله تعالى (٨٦/١) - كتاب المنطق (٩٠/١) - كتُب الدين (٩٢/١) - كتب الآباء (١٠١/١) - كتاب علم (١٠١/١) – كتاب العروض، كتاب الموسيقى:١٦٠/٢ .

قراءة الكتاب: استعمال الكتاب وتداوله: قارئ الكتاب (٧/١) -قراءة الكتب (٨٤/١) – الناظِرُ في الكتاب، المُتصفِّح لمعانيه، المُقلِّب لوجوهه، المفكر في أبوابه، والمقابل بين أوله وآخره:(١٩٠/٣) - اصطناع الكتب (١٥٥/٥) - تصفَّح الكتاب (٦/٣) - دِرَاسة كتب (٦/٣) - نظر في الكتاب (٨٧/١) – النظر في الكتب (١٠١/١) – يتكلّف قراءة الكتاب

(٦/٣) - اصطناع الكتاب (٨٤/١) – فهِم الكتاب وفهَّمه (٩٠/١) - أحاط بجميع ما في الكتاب (٩٧/١) - قرأ الكتاب (٥٧/٦) – التقط كتابا جامعا (١٠/١) – دراسة كتُب (٦/٣) – استنفد الكتاب (٥٣/١)- درَّاسة كتب (٢٠٠/٥)- مطَّلِع في الكتاب: ١٥٠/١- دبَّرَ الكتاب (فإذا دبَّرِنا كتابَنا هذا التدبير):(١٩٠/٣) .

وصف الكتب: جِيادُ الكُتبِ (٨٧/١) - فضيلة الكتاب (٥٠/١) - الكتاب المُتقن (٧١/١) – الكتاب الدقيق:(٦٦/٣)- جياد الكتب وحَسنُها (٨٧/١) – كتاب مُبيَّنٌ ومُختصر (٨٧/١) - كِرامُ الكُتُب النفيسة (٩٩/١) – كتب بارعة (١٠١/١) - الكتاب الدقيق: ٦٦/٣ كتُب مُعجِبة: ١٣٢/٣- كتاب أجهل (٥٧/١) – كتُب مفهومة (٩٢/١) كتاب ناطق (٢١٢/٦) – كتاب معناه أنبه من اسمه (١٠/١) – حقيقة الكتاب آنق من لفظه (١٠/١) – طول الكتاب (٣٨/١ – ٤٧ – ٥٣) - (٣٨/١) – معنى الكتاب (٣٨/١) – ثمرة الكتاب (٣٨/١) – فضيلة الكتاب (٣٨/١) – استحسنتُ الكتاب واستجدته (٥٣/١) – رجوت من الكتاب الفائدة، رأيت الفائدة في الكتاب (٥٣/١) - صغار الكتب (٥٤/١) - صغار الكتب (٧/٣) – المصلحة في الكتب (٩٨/١) – جملة الكتاب (٣٩/٦) – وشح الكتاب (٧/٣).

اقتناء الكتب: جمْع الكتب (١٠١/١) – اختيار الكُتُب (٩٧/١) - نفقتُه في الكتُب، الإنفاق على الكتب، اتخاذ الكتب (٥٥/١) – تحصيل الكتب (٦٦/١)

نقد الكتاب ومراجعته: أذم هذا الكتاب (٣٨/٦) – فساد الكتاب (٢٨٠/٦) – التصغير لقدر الكتاب (١٠/١) – التهجين لنظم الكتاب (١٠/١) – التحقير لمعني الكتاب (١٠/١) - الاعتراض على لفظ الكتاب (١٠/١) – هجم على الكتاب (١٠/١) – نفْع الكتاب (٩٦/١) - عبث الكتاب (٤١/١) - الطعن على الكتاب (٣٨/١) - كتاب أجهل ... أفسد

من كتاب (٥٧/١) – الطعن على هذا الكتاب ١٣٩/٣ – فساد الكتاب (٢٨٠/٦)- التكلُّف لتأليف الكتاب:٢١٥/٢ .

تجليد الكتب وتغليفها: الجلد، أجلاد : (مجلدة ، مجلد) «وقد رأيت عند داود بن محمد الهاشمي كتابا في الحيات أكثر من عشرة أجلاد ما يصح منها مقدار جلد ونصف) (٢٤٦/١/٤ – الرسوم (١٧٠) - دفتان طائفيتان (نسبة إلى الطائف) (٦١/١) – (استخلص آدم ميتز من قول الجاحظ في رسالة فخر السودان على البيض، أن الطريقة التي تُجلَّد بها الكتب كان منشؤها في القارة السوداء. قولهم : «وثلاثة أشياء جاءتكم من قبَلنا؛ منها الغالية، وهي أطيبُ الطِّب وأفخرُه وأكرمُه، ومنها النعش، وهو أَسترُ للنساء، وأصونُ للحُرَم، ومنها المصحف، وهو أوقى لما فيه، وأحصن لما فيه وأبهى وأهيأ» : ٢٠٢/١)

المصحف بمعنى الكتاب أو المجلد أو الجزء: (المصحف بضم الميم وكسرها: الجامع للصحف المكتوبة بين الدفتين، مأخوذ من أُصْحِف أي جُمعت فيه الصحف المكتوبة بين الدفتين : اللسان: صحف).

استعمل الجاحظ المصحف بمعنى الكتاب : (٥٣/١ ، ٩٣) المصاحف: (٨٦/١ ٩ : ٢٥٤/١) – مصيحف (كتيب) وشرحه بقوله: المصحف القليل الورق (٣٣٦/١) .

واستعمل كلمة المصحف للدلالة على المجلد (كسائر مصاحف كتاب الحيـوان):(٢١٥/٢) – وورد في البيان والتبيين: «كانت العادة في كتب الحيوان أن أجعل في كل مصحف من مصاحفها عشر ورقات من مقطعات الأعراب ونوادر الأشعار ...» :(٣/ ٣٠٢) - واستعمل مصطلح الجزء : (٢٢/٢ ، ٢٠٩) – (قد كتبنا من كتاب الحيوان ستّةَ أجزاء، وهذا الكتاب السابع...:٩/٧). أجزاء (١٠٢/١).

يقول هارون في مقدمة تحقيق كتاب الحيوان: «كان الجاحظ يُسمي كل جزء من أجزاء الحيوان مصحفاً. وكان يفعل ذلك في نهاية كل جزء من أجزاء كتاب الحيوان – وفي النسخة الشنقيطية من الحيوان نجد مكتوباً في نهاية كل جزء: «تم المصحف .. من كتاب الحيوان ويليه المصحف» (٢٧/١).

– وقال الجاحظ في رسالة في الجد والهزل: «وقد كان من الواجب أن يدع الناس اسم المصحف للشيء الذي جمع القرآن دونَ كل مجلَّد، وألا يَروموا جمع شيءٍ من أبواب التعلُّم بين الدفتين ، فيُلحقوا بما جعله السلف للقرآن غيرَ ذلك من العلوم» (٢٥٤/١)

ولاحظ د.يوسف العش أن كلمة المصاحف التي سوف تعني فيما بعد النص الكامل للقرآن حصرا، كانت تعني بشكل عام في ذلك العصر الكتب المجلدة، فضلا عن معناها الخاص بالقرآن الكريم المجلد . وذكر أن أول خازن للكتب عند العرب في كتاب الأنساب للسمعاني، حيث لقب بـ (سعد المصاحفي) ذكره في معرض الحديث عن مولاه: «زياد مولى سعد صاحب المصاحف «تلميذ عبد الله بن عباس ٦٨هـ) – ورد عن مكتبة الوليد بن عبد الملك هذا النص: «من جملة ما وجد في الأندلس اثنان وعشرون مصحفا ، كلها من التوراة، آخر محلى بفضة فيه منافع الأحجار والأشجار والدواب وطلسمات عجيبة، فحُمِل ذلك إلى الوليد، وكان في المصاحف مصحفٌ فيه عمل الصنعة وأصباغ اليواقيت» (يُنظر. دور الكتب العربية العامة لبلاد العراق والشام ومصر في العصر الوسيط : د. يوسف العش، ص٤٨–٥٠).

مكان الكتاب : بيت الكُتب (٦١/١) – بيت الحكمة :(٣٥١/١)

خاتمة

كشف الجاحظ عن أهمية الكتابة وضرورتها في المجتمع البشري. وجعل الكتابَ هو الصَّدى لوجود الإنساني على الأرض، واتخذ مَدارَ ما في العالم عليه، وجعله وسيلة التطور على امتداد الحضارة الإنسانية. يقول جورج عطية: «ويُمكن أن نقول مطمئنين إن حضارات كوكبنا وثقافاته لم تبدأ في الازدهار إلا بعد اختراع الكتاب»[1] ووضع الجاحظ للكتاب من النعوت والصفات ما تجاوَزَ به مُتَع الحياة؛ فجعله الكنز الذي لا يَفنى، والوعاء الحافظ للثقافة الإنسانية، وصديق العمر الذي لا يُمَل.

ونجده واعيا بطبيعة تأليف الكتاب وما يُرافق ذلك من معاناة، وما يستلزمه من شروط، وما يرتبط به من ظروف وملابسات، منذ انبثاق فكرة الكتاب في الذهن إلى أن يصل إلى صيغته النهائية في يد القارئ.

لعل هذا البحث قد أسهم في الكشف عن أمور أهمها:

ريادة الجاحظ في إبراز أهمية الكتابة في الحضارة الإنسانية عامة.

أهمية العلم والتثقيف في مسار البشرية على الأرض.

دور الكتاب في مواكبة حضارة الإسلام .

علاقة الإنسان بالكتاب في تصور الجاحظ.

كيفية صناعة الكتاب من حيث مادته الأولية، وأدوات كتابته، وطريقة تأليفه وبنائه. وكيفية تلقيه وقراءته، مع تقديم ملامح من تاريخ الكتاب العربي في مرحلة ازدهار الحضارة الإسلامية.

تحديد أهم عناصر منهجية التأليف في حضارة الإسلام، مع إبراز تجربة الجاحظ الذاتية في عالم التأليف.

١- لكتاب في العالم الإسلامي (عالم المعرفة) ، ص٩

وأشير باقتضاب إلى عناصر منهجية التأليف كما أبرزها الجاحظ في المحاور الأربعة الآتية:

أولا: منهجية الكتاب:

- ١ - مقدمة الكتاب والتوطئة له - ٢ - تحديد موضوع الكتاب - ٣ - بواعث التأليف وملابساتُه - ٤ - تداعي المعاني في التأليف - ٥ - العناية بالمصادر - ٦ - بناء البحث وتصميمه - ٧ - لغة الكتاب بين الإفهام والإغماض، وبين الإيجاز والإسهاب .

ثانياَ: مسؤولية المؤلِّف:

- ١ - الموضوعية والحياد ونُشدانُ الحق - ٢ - مسؤولية المؤلِّف أمام القراء - ٣ - مراعاة مستوى القارئ - ٤ - استحضار القارئ واستدعاء قلبه باستمرار فهو يُقدِّر ملَل القارئ وغلبة السآمة عليه - ٥ - مراجعة الكتاب قبل إخراجه إلى القراء - ٦ - التواضع إزاء ما أتى به الكاتب - ٧ - الاعتذار للقارئ فيما يقع في الكتاب من أخطاء وهفوات - ٨ - ألاَّ يكون الكاتب مفتونا بما كتَبَه، فيُصاب بالغرور والادعاء .

ثالثاً: مسؤولية القارئ:

- ١- على القارئ أن يبذل مشقة في تصحيح الكتاب إن كان مخطوطاً - ٢ - وأن يستوعب ما فيه قبل نقده - ٣ - وعلى القارئ أن يبتعد عن الحسد - ٤ - وعلى القارئ أن يلتمس العُذرَ للمؤلِّف، إن وجده قد وقع في أخطاء وأوهام.

رابعاً: تجربة الجاحظ في التأليف :

- ١ - عنايتُه بما يَفتتح به كتبَه - ٢ - إعجابُه بنفسه في مقدمات كتبه فيه اعتدال - ٣ - دفاع عن كتبه فيه استماتة - ٤ - معاناتُه من الحسد على امتداد حياته العلمية - ٥ - تَرْكُ فراغات وفُرَجٍ في الكتاب أثناء التأليف

لمِلَئِها لاحقاً – ٦ – معاناتُه من وضع النسَق التاريخي لمواد تأليف الكتاب – ٧ – صيانةً لكتبه كان يَضَعُ نُسخاً من كُتُبِه بين أيدٍ أمينة حتى لا تَتعرَّضَ لعبث العابثين والحسّاد – ٨ – سوء ظن الجاحظ بالقراء.

ويُستفاد مما قدَّمه الجاحظ أنه كان أحد عشاق الكتُب في الثقافة الإنسانية، وأنه نبَّه إلى أهميتها في معترك الثقافة الإسلامية، وإلى ودورها في تطور الفكر الإنساني. وقد قدم ملامح هامة من تاريخ الكتاب العربي، كما أبرز الجانب المنهجي للتأليف في عصره. واتضح من خلال ما قدمه الجاحظ أن منهج تأليف الكتاب العربي كان واضحا منذ النصف الأول من القرن الهجري الثالث.

وأخيراً أقول: لقد كان ظهور الورق في بغداد في نهاية القرن الثاني نقطة تحول في تاريخ الكتاب العربي، وعاصر الجاحظ ذلك الظهور فكان نقطة تحول في منهجية تأليف الكتاب العربي.

والحمد لله رب العالمين.

المصادر والمراجع

أولا : المصادر: كتب الجاحظ ورسائله

- البخلاء: الجاحظ (عمرو بن بحر٢٥٥هـ)، تحقيق: طه الحاجري – ط٤ (القاهرة، دار المعارف، ذخائر العرب (٢٣)، ١٩٧١).

- البُرصان والعُرجان والعُميان والحُولان: الجاحظ، تحقيق: عبد السلام هارون – ط١ (بيروت، دار الجيل، ١٩٩٠).

- كتاب القول في البغال: الجاحظ ، تحقيق: شارل بيلا – ط١ (بيروت، دار الجيل، ١٩٩٥).

- البيان والتبيين: الجاحظ، تحقيق: عبد السلام محمد هارون – ط٤ (بيروت، دار الكتاب ، د.ت).

- التاج في أخلاق الملوك: الجاحظ، تحقيق: د. عمر الطباع – ط١ (بيروت، شركة دار الأرقم بن الأرقم٢٠٠١).

- كتاب الحيوان: أبو عثمان الجاحظ ، تحقيق: عبد السلام محمد هارون– ط٢ (القاهرة ، مكتبة البابي الحلبي ، ١٩٦٥).

- كتاب العثمانية، تحقيق: عبد السلام هارون- ط١ (بيروت، دار الجيل١٩٩١).

- رسائل الجاحظ، تحقيق : عبد السلام محمد هارون – ط١ (بيروت، دار الجيل، ١٩٩١): (كتاب البغال - التربيع والتدوير- كتاب الحجاب - الجوابات في الإمامة - الحسد والمحسود - الحنين إلى الأوطان – الجد والهزل – العثمانية - فخر السودان على البيضان – كتاب الفتيا - فصل في صدر كتابه في المعلمين - فصل ما بين العداوة والحسد – فصل من رسالة إلى أبي الفرج الكاتب في المودة والخلطة - في الجد

والهزل – من كتابه في الحاسد والمحسود – في نفي التشبيه – رسالة في كتمان السر وحفظ اللسان – المعاش والمعاد – مناقب الترك – كتاب النساء – الوكلاء – رسالة النابتة).

- فصل من كتابه في الجوابات في الإمامة، ضمن مجلة المورد، عدد خاص بالجاحظ، مجلد ٧، عدد٤، ١٩٧٨.

ثانيا : المراجع

- أبجد العلوم: صديق حسن خان القنوجي (١٣٠٧هـ ١٨٨٩م) أعده للطبع ووضع فهارسه: عبد الجبار زكار – ط١ (دمشق، منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي، ١٩٧٨).
- إرشاد القاصد إلى أسنى المقاصد: أبو عبد الله محمد بن ساعد- الأنصاري المعروف بابن الأكفاني (٧٤٩هـ) ، اعتنى بضبطه : حسن عبجي – ط١ (جدة ، دار القبلة للثقافة الإسلامية، ١٩٩٤).
- ألف باء: أبو الحجاج يوسف بن محمد البلوي (٦٠٤هـ) – ط١ (جدة، دار العلم للطباعة والنشر، د.ت).
- الإيضاح في علل النحو: الزجاجي (عبد الرحمن بن إسحاق٣٣٧هـ)، تحقيق: د. مازن المبارك – ط٣ (بيروت، دار النفائس، ١٩٩٦).
- البصائر والذخائر: أبوحيان التوحيدي (علي بن محمد ٤١٤هـ)، تحقيق: د. وداد القاضي – ط١ (بيروت، دار صادر، ١٩٨٤).
- بلاغة الكتاب في العصر العباسي، دراسة تحليلية نقدية لتطور الأساليب: د. محمد نبيه حجاب – ط١ (القاهرة، المطبعة الفنية الحديثة، ١٩٩٥).
- تاريخ بغداد أو مدينة السلام: الخطيب البغدادي (أبو بكر أحمد بن علي ٤٦٣هـ) – د.ط (المدينة المنورة، المكتبة السلفية، د.ت).

- تاريخ الفلسفة اليونانية: يوسف كرم – ط٣ (بيروت ، دار القلم ، د.ت).

- كتاب التبصرة بالتجارة: الجاحظ ، تحقيق: حسن حسني عبد الوهاب – ط٣ (القاهرة، مكتبة الخانجي،١٩٩٤).

- التعريف بآداب التأليف: جلال الدين السيوطي تحقيق: مرزوق علي إبراهيم – ط١ (القاهرة، مكتبة التراث الإسلامي، ١٩٨٩).

- التفكير البلاغي عند العرب أسسه وتطوره إلى القرن السادس: د. حمادي صمود – ط١ (تونس، منشورات الجامعة التونسية،١٩٨١).

- تقييد العلم: الخطيب البغدادي(أبو بكر أحمد بن علي ٤٦٣هـ) ، تحقيق: د. يوسف العش – ط٢ (القاهرة، دار إحياء السنة النبوية،١٩٦٤).

- ثمار القلوب في المضاف والمنسوب: الثعالبي (عبد الملك بن محمد ٤٢٩ هـ) ، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم – ط١ (القاهرة، دار المعارف، ١٩٦٥).

- الجاحظ حياته وآثاره: د.طه الحاجري– ط٢ (القاهرة، دار المعارف، ١٩٦٩).

- الجاحظ في البصرة وبغداد وسامراء: شارل بيلا ، ترجمة د. إبراهيم الكيلاني – ط١ (دمشق، دار الفكر،١٩٨٥).

- الجاحظ في حياته وأدبه وفكره: جميل جبر – ط١ (بيروت، دار الكتاب اللبناني، ١٩٥٩).

- الجامع لأحكام القرآن: القرطبي (محمد بن أحمد ٦٧١هـ) – ط١ (بيروت، دار الكتب العلمية،١٩٨٨).

- جمع الجواهر في المُلَح والنوادر: إبراهيم الحصري القيرواني، تحقيق: علي محمد البجاوي – ط١ (القاهرة، ١٩٥٣).

- الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري: آدم ميتز، نقله إلى العربية: محمد عبد الهادي أبو ريدة – ط٤ (بيروت، دار الكتاب العربي، ١٩٦٧).
- دائرة المعارف الإسلامية ، نقلها إلى اللغة العربية: محمد ثابت أفندي وزملاؤه– المجلد السادس (مادة: الجاحظ).
- دور الكتب العربية العامة لبلاد العراق والشام ومصر في العصر الوسيط: د. يوسف العش، ترجمه عن الفرنسية: نزار أباظة – محمد صباغ – ط١ (بيروت ، دار الفكر المعاصر، ١٩٩١).
- ذخائر التراث العربي الإسلامي (دليل بيبليوغرافي للمخطوطات العربية المطبوعة حتى عام ١٩٨٠): عبد الجبار عبد الرحمن – ط١ (البصرة، مطبعة جامعة البصرة، ١٩٨١).
- الرسالة الهزلية من أبي عثمان إلى أبي الوليد : شارل بيلا ، ص١٢٦ (ضمن: الكتاب: مجلة شهرية يصدرها اتحاد المؤلفين والكتاب العراقيين، عدد خاص بالذكرى الألفية لميلاد ابن زيدون)، عدد: ١١–١٢ ، السنة التاسعة، تشرين الثاني – كانون الأول ١٩٧٥.
- زهر الآداب وثمر الألباب: الحصري (إبراهيم بن علي ٤٥٣هـ)، تحقيق: د. زكي مبارك، وزاد في تحقيقه وشرحه: محمد محيي الدين عبد الحميد – ط٤ (بيروت ، دار الجيل، د.ت).
- سِفر السعادة وسفير الإفادة: السخاوي (أبو الحسن علي بن محمد ٦٣٤هـ)، تحقيق: محمد أحمد الدالي – ط١ (دمشق، مطبوعات مجمع اللغة العربية،١٩٨٣).
- صبح الأعشى: القلقشندي (أحمد بن علي ٨٢١هـ) – د.ط (القاهرة، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، المؤسسة المصرية العامة، د.ت).

- الصراع الفكري عند الجاحظ : إلياس فرح – ط١ (بغداد، منشورات دار الجاحظ للنشر، ١٩٨١) – الموسوعة الصغيرة (١٠١).
- ضحى الإسلام: أحمد أمين – ط٦ (القاهرة، مكتبة النهضة المصرية، د.ت).
- الفن ومذاهبه في النثر العربي: د. شوقي ضيف – ط٥ (القاهرة، دار المعارف، د. ت).
- الفهرست: النديم (محمد بن أبي يعقوب، أبو الفرج، بعد ٤٠٠هـ)، تحقيق: د. يوسف علي طويل، وضع فهارسه: أحمد شمس الدين – ط١ (بيروت، دار الكتب العلمية، ١٩٩٦).
- الكتاب في الحضارة الإسلامية: د. يحيى وهيب الجبوري – ط١ (بيروت، دار الغرب الإسلامي،١٩٩٨).
- الكتاب في العالم الإسلامي، تحرير : جورج عطية، ترجمة: عبد الستار الحلوجي – ط١ الكتاب في العالم الإسلام (عالم المعرفة)،(الكويت،عالم المعرفة، شعبان ١٤٢٤هـ/ أكتوبر ٢٠٠٣).
- كشاف اصطلاحات الفنون: التهانوي محمد علي بن علي (١١٥٨هـ ١٧٤٥م) د.ط (بيروت ، دار صادر د.ت).
- كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون: حاجي خليفة (١٠٦٧هـ) – د.ط (بيروت، دار الفكر، ١٩٨٢).
- لطائف المعارف: أبو منصور الثعالبي (٤٢٩هـ)، تحقيق: محمد إبراهيم سليم – ط١ (القاهرة، دار الطلائع، ١٩٩٢)
- لسان العرب: ابن منظور (محمد بن مُكَرَّم ٧١١هـ)، اعتنى بتصحيحه: أمين محمد عبد الوهاب – محمد الصادق العبيدي – ط٣ (بيروت، دار إحياء التراث العربي،١٩٩٩).

- مجلة المورد، عدد خاص بالجاحظ، مجلد ٧، عدد٤، ١٩٧٨.

- مروج الذهب ومعادن الجوهر: المسعودي (٣٥٦هـ) تنقيح وتصحيح: شارل بلا – ط١ (بيروت، منشورات الجامعة اللبنانية قسم الدراسات التاريخية ، ١٩٦٥).

- معاني القرآن وإعرابه: الزجاج (إبراهيم بن السري ٣١١هـ)، تحقيق: د. عبد الجليل عبده شلبي – ط١ (بيروت، عالم الكتب،١٩٨٨).

- مفاهيم الجمالية والنقد في أدب الجاحظ: د. ميشال عاصي- ط١ (بيروت ، دار العلم للملايين ، ١٩٧٤) .

- مقدمة ابن خلدون (٨٠٨هـ)، تحقيق: د. علي عبد الواحد وافي – ط١ (القاهرة، دار نهضة مصر للطبع والنشر، ١٩٧٩).

- مقدمة الكتاب في التراث الإسلامي وهاجس الإبداع : عباس أرحيلة – ط١ (مراكش، المطبعة والوراقة الوطنية، ٢٠٠٣).

- معجم الأدباء: ياقوت الحموي (٦٢٦هـ)، تحقيق: د. إحسان عباس – ط١ (بيروت، دار الغرب الإسلامي، ١٩٩٣).

- معجم مصطلحات المخطوط العربي (قاموس) كوديكولوجي): د. أحمد شوقي بنبين - د. مصطفى طوبي – ط١ (مراكش، المطبعة والوراقة الوطنية٢٠٠٣).

- المؤلفين: عمر رضا كحالة – ط١ (بيروت ، مؤسسة الرسالة، ١٩٩٣).

- مقالات العلامة د. محمود محمد الطنَاحي صفحات في التراث والتراجم واللغة والأدب – ط١ (بيروت، دار البشائر الإسلامية، ٢٠٠٢).

- المناحي الفلسفية عند الجاحظ: د. على بوملحم – ط١ (بيروت ، دار الطباعة، ١٩٨٠).
- مَن ألف فقد استهدف: عباس أرحيلة، مقال بمجلة دعوة الحق، العدد ٣٧١، يناير – فبراير ٢٠٠٣ .
- منقولات الجاحظ عن أرسطو في كتاب الحيوان، نصوص ودراسة: د. وديعة طه النجم – ط١ (الكويت، منشورات معهد المخطوطات العربية، ١٩٨٥).
- المنية والأمل : القاضي عبد الجبار الهمذاني(٤١٥هـ)، جمعه: أحمد بن يحيى المرتضى، حققه: د. عصام الدين محمد علي – ط١ (الأسكندرية، دار المعرفة الجامعية، ١٩٨٥).
- مواد البيان علي بن خلف الكاتب (ق٥هـ)، تحقيق : د. حسين عبد اللطيف- ط١ (ليبيا، منشورات جامعة الفاتح، ١٩٨٢).
- نصرة الثائر على المثل السائر: الصفدي (صلاح الدين بن أيبك ٧٧٤هـ)، تحقيق: محمد علي سلطاني – ط١(دمشق، مجمع اللغة العربية، ١٩٧٤).
- نظرة تاريخية في حركة التأليف عند العرب في اللغة والأدب: د. أمجد الطرابلسي – ط٥ (الدار البيضاء، دار قرطبة للطباعة والنشر١٩٨٦).
- وفيات الأعيان: ابن خلكان (أحمد بن محمد ٦٨١هـ)، تحقيق: د. إحسان عباس – ط١ (بيروت، دار صادر، ١٩٦٨).



١- الشهود الحضاري للأمة الوسط في عصر العولمة.

د. عبد العزيز برغوث.

٢- عينان مطفأتان وقلب بصير(رواية).

د. عبد الله الطنطاوي.

٣- دور السياق في الترجيح بين الأقاويل التفسيرية.

د. محمد إقبال عروي.

٤- إشكالية المنهج في استثمار السنة النبوية.

د. الطيب برغوث.

٥- ظلال وارفة (مجموعة قصصية) .

د. سعاد الناصر(أم سلمى).

٦- قراءات معرفية في الفكر الأصولي.

د. مصطفى قطب سانو.

٧- من قضايا الإسلام والإعلام بالغرب.

د. عبد الكريم بوفرة.

٨- الخط العربي وحدود المصطلح الفني.

د. إدهام محمد حنش.

٩- الاختيار الفقهي وإشكالية تجديد الفقه الإسلامي.

د. محمود النجيري.

١٠- ملامح تطبيقية في منهج الإسلام الحضاري.

د. محمد كمال حسن.

١١- العمران والبنيان في منظور الإسلام.

د. يحيى وزيري.

١٢- تأمل واعتبار: قراءة في حكايات أندلسية.

د. عبد الرحمن الحجي.

١٣- ومنها تتفجر الأنهار(ديوان شعر).

الشاعرة أمينة المريني.

١٤- الطريق... من هنا.

الشيخ محمد الغزالي

١٥- خطاب الحداثة: قراءة نقدية.

د. حميد سمير

١٦- العودة إلى الصفصاف (مجموعة قصصية لليافعين).

فريد محمد معوض

١٧- ارتسامات في بناء الذات.

د. محمد بن إبراهيم الحمد

١٨- هو وهي: قصة الرجل والمرأة في القرآن الكريم.

د. عودة خليل أبو عودة

١٩- التصرفات المالية للمرأة في الفقه الإسلامي.

د. ثـريـة أقصـري ________________________

٢٠- إشكالية تأصيل الرؤية الإسلامة في النقد والإبداع.

د. عمر أحمد بو قرورة ________________________

٢١- ملامح الرؤية الوسطية في المنهج الفقهي.

د. أبو أمامة نوار بن الشلي ________________________

٢٢- أضواء على الرواية الإسلامية المعاصرة.

د. حلمي محمد القاعود ________________________

٢٣- جسور التواصل الحضاري بين العالم الإسلامي واليابان.

أ.د سمير عبد الحميد نوح ________________________

٢٤- الكليات الأساسية للشريعة الإسلامية.

د. أحمد الريسوني ________________________

٢٥- المرتكزات البيانية في فهم النصوص الشرعية.

د. نجم الدين قادر كريم الزنكي ________________________

٢٦- معالم منهجية في تأصيل مفهوم الأدب الإسلامي.

د. حسن الأمراني ________________________

د. محمد إقبال عروي ________________________

٢٧- إمام الحكمة (رواية).

الروائي/ عبد الباقي يوسف ________________________

٢٨- بناء اقتصاديات الأسرة على قيم الاقتصاد الإسلامي.

________________ أ.د. عبد الحميد محمود البعلي

٢٩- إنما أنت... بلسم (ديوان شعر).

________________ الشاعر محمود مفلح

٣٠- نظرية العقد في الشريعة الإسلامية.

________________ د. محمد الحبيب التجكاني

٣١- محمد ﷺ ملهم الشعراء

________________ أ. طلال العامر

٣٢- نحو تربية مالية أسرية راشدة.

________________ د. أشرف محمد دوابه

٣٣- جماليات تصوير الحركة في القرآن الكريم .

________________ د. حكمت صالح

٣٤- الفكر المقاصدي وتطبيقاته في السياسة الشرعية.

________________ د. عبد الرحمن العضراوي

٣٥- السنابل... (ديوان شعر).

________________ أ. محيي الدين عطية

٣٦- نظرات في أصول الفقه.

________________ د. أحمد محمد كنعان

٣٧- القراءات المفسرة ودورها في توجيه معاني الآيات القرآنية.

________________ د. عبد الهادي دحاني

٣٨- شعر أبي طالب في نصرة النبي ﷺ.

________________ د. محمد عبد الحميد سالم

٣٩- أثر اللغة في الاستنباطات الشرعية.

________________ د. حمدي بخيت عمران

٤٠- رؤية نقدية في أزمة الأموال غير الحقيقية.

________________ أ.د. موسى العرباني

________________ د.ناصر يوسف

٤١- مرافىء اليقين (ديوان شعر).

________________ الشاعر يس الفيل

٤٢- مسائل في علوم القرآن.

________________ د. عبد الغفور مصطفى جعفر

٤٣- التأصيل الشرعي للتعامل مع غير المسلمين.

________________ د. مصطفى بن حمزة

٤٤- في مدارج الحكة (ديوان شعر).

________________ الشاعر وحيد الدهشان

٤٥- أحاديث فضائل سور القرآن: دراسة نقدية حديثية.

________________ د. فاطمة خديد

٤٦- في ميـــزان الإسـلام.

________________ د. عبد الحليم عويس

٤٧- النظر المصلحي عند الأصوليين.

________________ د. مصطفى قرطاح

٤٨- دراسات في الأدب الإسلامي.

________________ د. جابر قميحة

٤٩- القيمُ الروحيّة في الإسلام.

________________ د. محمّد حلمي عبد الوهّاب

٥٠- تـلاميـذ النبـوة (ديوان شعر).

________________ الشاعر عبد الرحمن العشماوي

٥١- أسماء السور ودورها في صناعة النهضة الجامعة.

________________ د/ فـؤاد البنـا

٥٢- الأسرة بين العدل والفضل.

________________ د. فريد شكري

٥٣- هي القدس... (ديوان شعر).

________________ الشاعرة: نبيلة الخطيب

٥٤- مسار العمارة وآفاق التجديد.

م. فالح بن حسن المطيري

٥٥- رسالة في الوعظ والإرشاد وطرقهما.

الشيخ محمد عبد العظيم الزُّرْقاني

٥٦- مقاصد الأحكام الفقهية.

د. وصفي عاشور أبو زيد

٥٧- الوسطية في منهج الأدب الإسلامي.

د. وليد إبراهيم القصاب

٥٨- المدخل المعرفي واللغوي للقرآن الكريم.

د. خديجة إيكر

٥٩- أحاديث الشعر والشعراء.

د. الحسين زروق

٦٠- من أدب الوصايا.

أ. زهير محمود حموي

٦١- سنن التداول ومآلات الحضارة.

د. محمد هيشور

٦٢- نظام العدالة الإسلامية في نموذج الخلافة الراشدة.

د. خليل عبد المنعم خليل مرعي

٦٣- التـراث العمـراني للمدينة الإسـلامـيـة

د. خالد عزب

٦٤- فراشات مكة...دعوها تحلق.. (رواية).

الروائية/ زبيدة هرماس

٦٥- مباحث في فقه لغة القرآن الكريم.

د. خالد فهمي

د. أشرف أحمد حافظ

٦٦- محمود محمد شاكر: دراسة في حياته وشعره.

د. أماني حاتم مجدي بسيسو

٦٧- بوح السالكين (ديوان شعر).

الشاعر طلعت المغربي

٦٨- وظيفية مقاصد الشريعة.

د. محمد المنتـار

٦٩- علم الأدب الاسلامي.

د.إسماعيل إبراهيم المشهداني

٧٠- الكِتَاب وصنعة التأليف عند الجاحظ.

د. عباس أرحيلة

نهــر متعــدد.. متجــدد

هــذا الكتــاب

... ففي زمن الجاحظ بدأت المعارف العربية تخرج من المجالس والمنتديات وتتشكّل في مدونات وتآليف ومصنفات. ومع الجاحظ، وبمعية كوكبة من كُتّاب المرحلة، بدأت الكتابة النثرية الفنية تسمو إلى مدارج الشعر، وتسعى إلى زحزحته عن مكانته. فقد أجاد الجاحظ صياغة العبارة العربية، وأضفى عليها جمالية خاصة، وحمّلها ما كانت تحفل به معاني الشعر، إلى درجة سحرت أهل زمانه ومَن أتى بعدهم.

ومع الجاحظ وغيره من مؤلفي المرحلة، أخذت صناعة التأليف تتضِحُ قسماتُها، وتبرز معالمها، وتتوطّد دعائمُها، وتتشكل مناهجُها. وبذلك أخذت صناعة الكتاب العربي تأخذ طريقها وضْعاً ونَسْخا وتصنيفا وتوزيعاً ومنهاجاً...



وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية
قطاع الشؤون الثقافية
إدارة الثقافة الإسلامية
www.islam.gov.kw/thaqafa